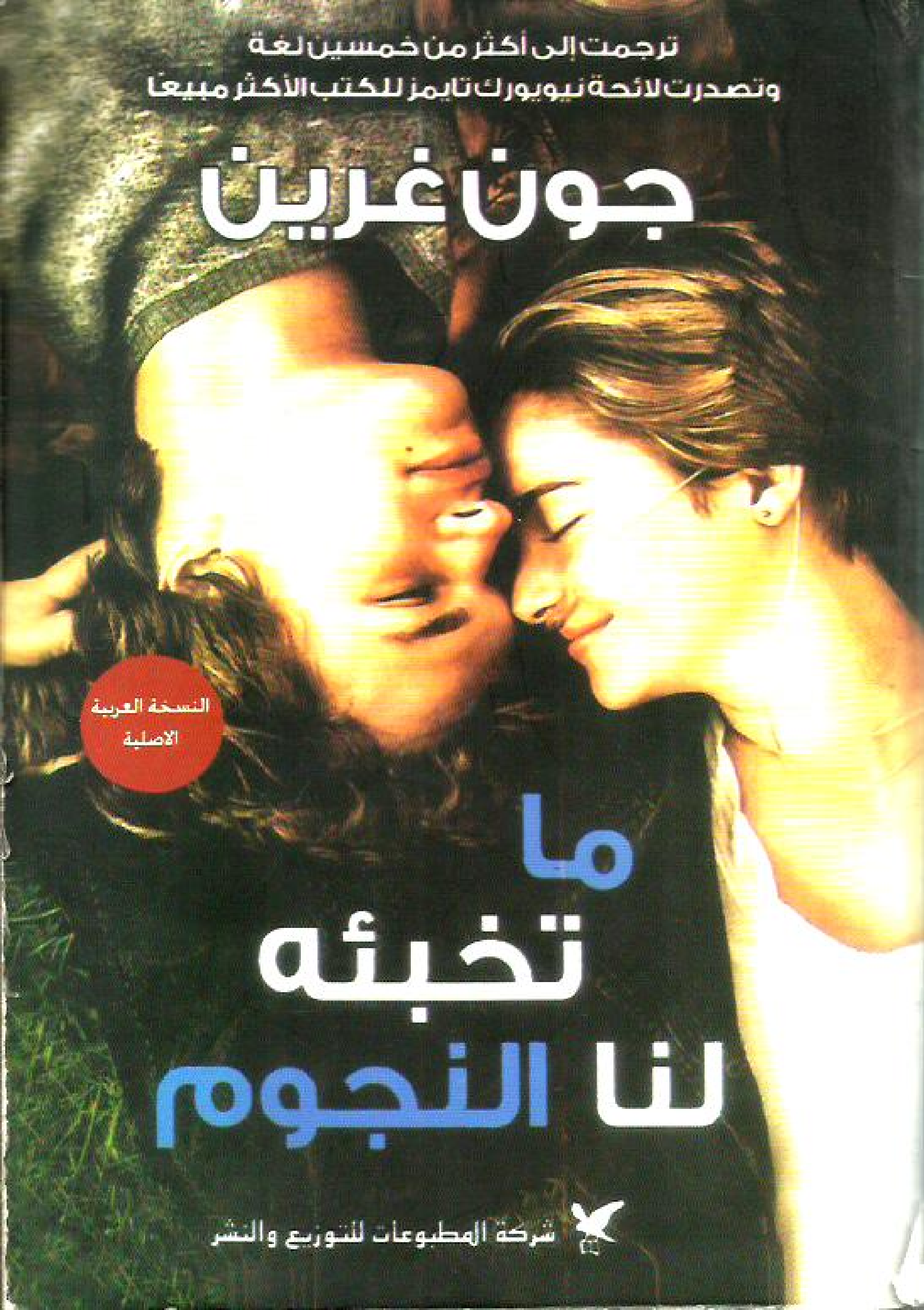

ترجمت إلى أكثر من خمسين لغة
وتصدرت لائحة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً

جون غرين

النسخة العربية
الاصلية

ما تخبئه لنا النجوم

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

عصير الكتب

جون غرين

ما تخبئه لنا النجوم

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

ISBN: 978-9953-88-831-6

Originally published as: **The Fault in Our Stars.**

Copyright © 2012 by John Green.

All rights reserved including the right of reproduction in whole or in part in any form.

This edition published by arrangement with **Dutton Children's Books**, a division of Penguin Young Readers Group, a member of Penguin Group (USA) Inc.

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق: وفيق زيتون

تصميم الغلاف: داني عوّاد

صورة الغلاف: Linnea Åsberg

صورة الكاتب: Marina Waters

الإخراج الفني: بسمة تقي

إلى إستير إيرل

هذا الكتاب عملٌ خيالي. إن الأسماء والشخصيات والأماكن والوقائع الواردة فيه، هي من مخيّلة الكاتب أو جرى استخدامها في النص بشكل خيالي. وأي تشابه بين هذه الأسماء وأسماء أشخاص حقيقيين، أحياء كانوا أم أمواتاً، هو من محض المصادفة، وكذلك أمر المؤسسات التجارية والمواقع والأحداث.

واجه رجل الخزامى الهولندي المحيط والمدّ يتصاعد:

«يجمع، يضمّ، يسمّم، يخفي، يكشف. انظر إليه، يعلو وينخفض، جارفاً كل شيء معه».

سألته: «وما هو؟».

«الماء»، قال الهولندي. «وكذلك الزمان».

- بيتر فان هوتن، "محنة عظيمة"

ملاحظة المؤلف

هذه ليست ملاحظة من المؤلف بقدر ما هي تذكير منه بما طُبع بأحرف صغيرة قبل ذلك بصفحات قليلة: هذا الكتاب قصة خيالية ابتكرتها أنا.

لا تستفيد الروايات، ولا قراؤها، من محاولات التكهّن بوجود أي وقائع حقيقية داخل الرواية. ومثل هذه المحاولات تهاجم في الصميم الفكرة القائلة: بأن القصص المخترعة يمكن أن تحدث فرقاً، وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه أجناسنا.

وأنا أقدّر تعاونكم في هذه المسألة.

الفصل الأول

ارتأت أمي في وقت متأخر من شتاء سنتي السابعة عشرة أنني مصابة بالاكتئاب، ربما لأنني لا أغادر المنزل إلا نادراً، وأقضي كثيراً من الوقت في السرير، وأعيد قراءة الكتاب نفسه مراراً وتكراراً، وأتناول الطعام بلا انتظام وأكرّس الجزء الكبير من وقتي الحرّ الوافر للتفكير في الموت.

يجد المرء، كلما قرأ كتيّباً عن السرطان أو قرأ في موقع على الإنترنت أو ما شابه، أنهم يصنفون الاكتئاب على الدوام واحداً من التأثيرات الجانبية للسرطان. لكن الاكتئاب ليس، في الواقع، تأثيراً جانبياً للسرطان، بل هو تأثير جانبي للاحتضار. (السرطان أيضاً تأثير جانبي للاحتضار، كما هو، حقاً، كل شيء تقريباً). لكنّ أمي اعتقدت أنني في حاجة إلى علاج، فأخذتني لرؤية طبيبي المعتاد، جيم، الذي اتفق معها على أنني أعوم فعلاً في حالةٍ تامة من الاكتئاب السريري المحبِط، وهو ما يتطلّب تعديلاً في أدويتي، ويوجب عليّ حضور اجتماع أسبوعي مع مجموعة دعمٍ.

ضمّت مجموعة الدعم هذه شخصيات متعاقبة في حالات مختلفة من الاعتلال الصحي الذي يتسبّب به الوَرَم. لكن لماذا تتعاقب الشخصيات؟ فلأن ذلك أحد الآثار الجانبية للاحتضار.

كانت مجموعة الدعم، بالطبع، مثيرةً لجحيم من الاكتئاب. وكانت تلتقي كل يوم أربعاء في قبو الكنيسة الأسقفية ذات الجدران الحجرية، والتي تشبه الصليب. جلسنا جميعنا في حلقة وسط الصليب تماماً، حيث يفترض أن يتقاطع اللوحان الخشبيان وأن يكون قلب يسوع.

لاحظت ذلك لأن باتريك، قائد مجموعة الدعم والشخص الوحيد في الغرفة الذي يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، لم ينفكّ يتحدّث عن قلب يسوع في كل اجتماع لعين، وكيف أننا نحن ـ الأحداث الذين لا يزالون أحياء على الرغم من إصابتهم بالسرطان ـ نجلس تماماً في قلب يسوع المقدّس بالذات وما إلى ذلك.

وهاكم إذاً كيف سارت الأمور في قلب اللّه: يدخل ستة أو سبعة أو عشرة منّا سيراً على الأقدام، أو على كراسي المقعدين، نقضم شيئاً من مجموعة البسكوت البالي ونشرب الليموناضة. نجلس في حلقة الثقة ونستمع إلى باتريك يروي للمرة الألف قصة حياته البائسة التي تصيب بالاكتئاب، وكيف أصاب السرطان خصيتيه واعتقدوا أنه سيموت. لكنه لم يمت، وها هو الآن بالغٌ، مكتمل النمو، في قبو كنيسة في المدينة التي تحتل المرتبة المئة والسابعة والثلاثين بين المدن الأجمل في أميركا، وهو مطلّق، ومدمن ألعاب الفيديو لا يقيم في الغالب علاقات صداقة، يحتال في كسب رزقه الهزيل باستغلال ماضيه السرطاني، ويشق طريقه ببطء لنيل شهادة ماجستير لن تحسّن

آفاق حياته المهنية، وينتظر، شأننا جميعاً، أن يمنحه سيف ديموقليس الراحة التي لم يحظَ بها منذ أعوام كثيرة عندما قضى السرطان على كلتا خصيتيه وأبقى على حياته، وفق ما يمكن أن يقوله أكثرهم لطفاً، فقط.

وأنتم أيضاً قد تكونون محظوظين إلى هذا الحدّ.

ثم شرعنا نعرّف بأنفسنا: الاسم. العمر. التشخيص. وكيف حالنا اليوم. أقول، عندما يأتي دوري: أنا هازل. ستة عشر عاماً. مصابة أساساً في الغدة الدرقية. لكن المرض امتد إلى رئتي حيث عاث فيهما فترة طويلة. وأنا بخير.

ويسأل باتريك دوماً، بعدما نجلس في الحلقة، إذا كان هناك من يريد المشاركة. وتبدأ عندها حلقة الدعم الحمقاء: يتحدث الجميع عن المصارعة والمقاومة والانتصار والتقلّص والمسح. وإنصافاً لباتريك، فإنه يدعنا نتحدث أيضاً عن الاحتضار. لكن معظمهم لا يحتضرون. وسيعيش معظمهم ويصلون إلى سن البلوغ مثل باتريك.

(ما يعني وجود قدر كبير من المنافسة في هذا الشأن، إذ لا يريد الجميع الانتصار على السرطان نفسه فحسب، بل أيضاً على الأشخاص الآخرين في الغرفة. أدركتُ مثلاً أن هذا غير عقلاني. لكن عندما يبلغونك أن نسبة احتمال أن تعيش خمس سنوات تبلغ ولنقل، عشرين بالمئة، يفرض الحساب نفسه وتتصور أن النسبة هي واحد من خمسة فتنظر حواليك وتفكّر، كما سيفعل أي إنسان سليم: يجب أن أبقى حياً أكثر من هؤلاء الحمقى).

كان الشخص الوحيد المعوّض في مجموعة الدعم، ولد اسمه

إسحق، وهو متطاول الوجه، نحيل وذو شعر أشقر أملس ينساب فوق عينيه.

كانت عيناه هما المشكلة فهو مصاب بنوع نادر جداً من سرطان العين. وقد استؤصلت إحدى عينيه حين كان صغيراً، وهو يضع الآن نوعاً من النظارات السميكة تجعل عينيه (العين الحقيقية والأخرى الزجاجية) ضخمتين ضخامة خارقة بحيث إنه عندما يحدق اليك تبدو عينه المزيفة وعينه الحقيقية بحجم رأسه كله. «وخلال المرات النادرة التي حضر فيها إسحق هذه اللقاءات عرفت أن عينه السليمة تعرّضت لانتكاسة قد تودي بها»...

وكان تواصلنا أنا وإسحق، محصوراً بالتنهّدات. وفي كل مرة يناقش أحدهم الحمية المضادة للسرطان، أو تنشق زعانف كلب البحر المطحونة أو غيرها، يلتفت صوبي ويتنهّد ولو تنهّداً خفيفاً. فأهزّ برأسي هزّة خفيفة جداً وأردّ عليه بالزفير.

وهكذا انفضت مجموعة الدعم، فلجأت بعد أسابيع قليلة إلى نوع من الركل والصراخ في شأن المسألة برمّتها. بذلت يوم الأربعاء الذي تعرفت فيه إلى أغسطس واترز، أقصى جهدي للخروج من مجموعة الدعم، وأنا أجلس على الأريكة مع أمي في المرحلة الثالثة من الماراتون الذي استغرق اثنتي عشرة ساعة من الموسم السابق لبرنامج «أميريكاز نكست توب موديل» (America's Next Top Model)، الذي لا أنكر أنني شاهدته من قبل. وها أنا مع ذلك أشاهده من جديد.

أنا: «أرفض حضور اجتماع مجموعة الدعم».

أمي: «فقدان الاهتمام بالنشاطات هو أحد أعراض الاكتئاب».

أنا: «أرجوكِ دعيني أشاهد «أميريكاز نكست توب موديل». فهذا نشاط».

أمي: «التلفاز خمود».

أنا: «آه، أمي، أرجوك».

أمي: «هازل، أنت مراهقة، ولم تعودي طفلة. تحتاجين إلى أصدقاء، تحتاجين إلى أن تخرجي من المنزل وأن تعيشي حياتك».

أنا: «لا ترسليني إلى مجموعةِ الدعم إذا أردت أن أعيش مراهقتي. اشتري لي بطاقة هوية مزوّرة لأتمكّن من الذهاب إلى الملاهي وشرب الفودكا وتدخين الحشيشة».

أمي: «ولكنكِ لا تتعاطين الحشيشة» منذ تناولك المقبّلات.

أنا: «أترين، هذا أمر من الأمور التي سأعرفها لو جئتني بهوية مزوّرة».

أمي: «ستذهبين إلى مجموعة الدعم».

أنا: «آآآه».

أمي: «هازل، تستحقين أن تحيي حياة طبيعية».

أفحمني هذا، بالرغم من أنني عجزت عن فهم كيفية الملاءمة بين حضور مجموعة الدعم وتعريف الحياة. إلا أنني وافقت على الذهاب بعد التفاوض مع أمي على حقي في تسجيل ما سيفوتني من الحلقة.

ذهبت إلى مجموعة الدعم للسبب نفسه الذي سمحتُ فيه مرة لممرضات لم تستغرق فترة تعليمهن العالي أكثر من ثمانية عشر شهراً بتسميمي بكيماويات تحمل أسماء غريبة. إرضاءً لأهلي. فهناك أمر

واحد في العالم أَنْتَنُ من سرطان يفتك بك وأنت في السادسة عشرة، وهو أن يفتك السرطان بولدك.

ركَنَت والدتي السيارة في الطريق المستدير الخاص وراء الكنيسة في الساعة الرابعة والدقيقة السادسة والخمسين تظاهرت برهة بالتلاعب بمستوعب الأكسجين الخاص بي لمجرد قتل الوقت.

«أتريدينني أن أحمله عنك؟».

قلت، «لا، لا بأس». فالمستوعب الأسطواني الأخضر لا يزن أكثر من بضعة أرطال، أجرّه ورائي على عربة فولاذية. ويمدني بلترين من الأكسجين كل دقيقة عبر الكانيولا، وهي أنبوب شفاف ينفصل أسفل عنقي تماماً ويلتف حول أذني ليجتمع في فتحتي الأنف. وهذه الآلة ضرورية لأن رئتيّ تعملان بشكل سيّئ.

«أحبك»، قالت وأنا أخرج من السيارة.

«أحبك أيضاً يا أمي. أراك عند السادسة».

«اتخذي لك أصدقاء»، قالت من خلال النافذة المفتوحة وأنا أسير مبتعدة.

لم أشأ استخدام المصعد لأن استخدامه نوع من الأعمال التي يقوم بها أحد أعضاء مجموعة الدعم المرضى في أواخر أيامه. فصعدت الدرج. أخذت قطعة من البسكوت وصَبَبْت قليلاً من الليموناضة في كوب بلاستيكي ثم استدرت فإذا بصبي يحدّق إليّ.

أنا متأكدة، إلى حد بعيد أنني لم أره من قبل. إنه طويل القامة، هزيل العضل، وقد قزّم الكرسي البلاستيكي المصبوب الذي يجلس

فيه والذي يُستخدم في الصفوف الابتدائية. شعره بني داكن، أملس وقصير. بدا أنه يماثلني سناً وربما يكبرني بسنة، وقد جلس وعصعصه عند طرف الكرسي. وباتت طريقة جلوسه وضيعة، ومتحفزة تحفزاً عدوانياً، وكان جزء من يده داخل جيب بنطاله الداكن.

أشحت بنظري وقد أدركت فجأة نواقصي التي لا تُحصى. فقد ارتديت بنطالاً قديماً، كان ضيّقاً لكنه ارتخى الآن عند مواضع شاذة، وتي - شيرت صفراء تصوّر دعاية لفرقة موسيقية لم تعد تعجبني. وهناك شعري أيضاً: فقد قصصته عند مستوى كتفي، ولم أكلّف نفسي حتى مشقة تسريحه بالفرشاة. أضف إلى ذلك أن خدّي سنجابيّان منتفخان للغاية جراء التأثير الجانبي للعلاج. بَدَوْتُ أشبه بشخص متّسق طبيعياً برأس كالبالون. ناهيك بحالة التورّم في أسفل الساقين. ومع ذلك استرقت النظر إليه ووجدت أن عينيه لا تزالان مصوّبتين نحوي.

مر بذهني سبب تسمية هذه النظرات «إغراءً».

سرت إلى الحلقة وجلست على مقربة من إسحق، على بعد مقعدين من الفتى. استرقت النظر من جديد، وكان لا يزال يراقبني.

اسمعوا، دعوني أقلْ ذلك وحسب: إنه مثير. فأَنْ يحدّق إليك فتى غير مثير باستمرار أمر في أفضل الحالات مُربك، وفي أسوأها نوع من الاعتداء. لكن أن يفعل ذلك فتى مثير... فهذا شيء حسن.

سحبت هاتفي وضغطت على الزرّ الذي يظهر الوقت: إنها الرابعة والدقيقة التاسعة والخمسون. امتلأت الحلقة بغير المحظوظين ممن تراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة، وبدأ باتريك، بعد ذلك يتلو علينا صلاة الصفاء: اللهم امنحني الصفاء لأتقبّل الأمور التي

أعجز عن تغييرها، والشجاعة لتغيير ما يمكنني تغييره والحكمة لأعرف الفارق. لا يزال الفتى يحدق فيّ. وشعرت أنني أتورّد خجلاً.

قرّرت في النهاية أن الاستراتيجية المناسبة تتمثل في الردّ على التحديق بمثله. فالصبية، في النهاية، لا يحتكرون عملية التحديق. وهكذا رمقته بنظرة فاحصة فيما باتريك يعترف للمرة الألف بفقدانه خصيتيه إلخ.. وسرعان ما تحوّل الأمر إلى مباراة في التحديق. ابتسم الفتى بعد فترة، ثم أشاح في النهاية بعينيه الزرقاوين. ولما عاود النظر إليّ رفعت حاجبي إلى أعلى لأقول: لقد فزت.

هزّ كتفيه. وتابع باتريك كلامه إلى أن حان في النهاية وقت التعريف بالذات. «ربما تود، يا إسحق، أن تبدأ أولاً اليوم. أعرف أنك تمر بوقت عصيب».

«نعم»، قال إسحق. «أنا إسحق. في السابعة عشرة. ويبدو أن عليّ الخضوع لعملية جراحية في غضون أسبوعين وسأصبح بعدها ضريراً. ولا أذكر ذلك من باب الشكوى أو ما شابه، لأنني أعرف أن كثيراً من بيننا مصابون بما هو أسوأ، لكنني.. آه، أعني أن الإصابة بالعمى كريهة نوعاً ما. لكن صديقتي تساعدني، وكذلك أصدقاء مثل أغسطس». وأومأ برأسه صوب الفتى الذي بات له الآن اسم. نظر إسحق إلى يديه اللتين طوى إحداهما إلى الأخرى، فبانتا أشبه بقمة خيمة هندية وقال: «نعم. لا يستطيع المرء فعل شيء حيال ذلك».

«نحن هنا من أجلك يا إسحق»، قال باتريك. «فليسمع إسحق ذلك منّا يا رفاق». وحينذاك قلنا جميعنا برتابة: «نحن هنا من أجلك يا إسحق».

جاء بعده دور مايكل ابن الثانية عشرة، وهو مصاب بسرطان الدم. ولطالما كان مصاباً به. وهو بخير (أو هكذا يقول مع انه استخدم المصعد).

ليدا في السادسة عشرة وتتمتع بما يكفي من الجمال لتصبح محط أنظار الصبية الشهوانية. هي من المواظبين على حضور اجتماعات مجموعة الدعم. تمرّ بفترة هجوع طويلة لسرطان الزائدة الذي أصيبت به والذي لم أعرف من قبل أن له وجوداً. قالت ـ كما فعلت في كل مرة أخرى حضرت فيها اجتماع مجموعة الدعم ـ إنها تشعر بالقوة، ما بدا لي كأنه تباهٍ فيما كانت تدغدغني القطعة الصغيرة التي تبخ الأكسجين في مخري.

مرّ خمسة آخرون قبل أن يصلوا إليه. ابتسم قليلاً لما جاء دوره. صوته منخفض ومثير للغاية. «اسمي أغسطس واترز، وأنا في السابعة عشرة. أُصبت منذ عام ونصف العام إصابة طفيفة بالغَرَن العظمي[1]، لكنني جئت إلى هنا اليوم بطلب من إسحق».

سأله باتريك: «وكيف تشعر؟».

«آه، أنا عظيم». وعلت ابتسامة زاوية فم أغسطس واترز. «أنا، يا صديقي، على قطار ملاهٍ لا يتّجه إلا صعوداً».

قلتُ، لما جاء دوري: «اسمي هازل، في السادسة عشرة. مصابة بسرطان في الغدة الدرقية وقد انتشر في رئتي. أنا بخير».

مرّت الساعة بسرعة: روى المجتمعون صراعاتهم مع المرض والمعارك التي ربحوها ضمن حرب خاسرة حتماً، وعبّروا عن تعلّقهم

(١) مرض خبيث في العظم. (المترجم)

بالأمل وأثنوا على عائلاتهم كما وجهوا إليها النقد. وأجمعوا على أن أصدقاءهم لم يستوعبوا الأمر. وذُرفت الدموع. وتبادلوا المواساة. لا أنا ولا أغسطس واترز تحدّثنا من جديد إلى أن قال باتريك، «قد تود يا أغسطس أن تشارك المجموعة مخاوفك».

«مخاوفي؟».

«نعم».

«أخشى أن أصبح نَسْياً منسياً»، قال من دون أن يتوقف ولو لحظة. «أخشاه كما يخشى الأعمى الظلمة».

«هذا مبكر جداً»، قال إسحق مطلقاً ابتسامة.

«هل كان كلامي عديم الحس؟» سأل أغسطس. «يمكنني إلى حد بعيد أن أتعامى عن مشاعر الآخرين».

أخذ إسحق يضحك، لكن باتريك رفع إصبعه موبّخاً وقال: «أرجوك يا أغسطس. دعنا نعدْ إليك وإلى كفاحك. قلت إنك تخشى أن تصبح نسياً منسيّاً؟».

أجاب أغسطس «أجل».

بدا باتريك تائهاً. «أيرغب أحدكم في الحديث عن ذلك؟».

لم أرتدْ أي مدرسة مناسبة في ثلاثة أعوام. وأبواي هما أفضل أصدقائي، أما صديقي الأفضل الثالث فهو مؤلّف لا يعرف أني موجودة. وأنا خجولة إلى حد بعيد، ولست من النوع الذي يرفع يده.

ومع ذلك، قرّرت هذه المرة أن أتكلم. رفعت يدي قليلاً وقال باتريك على الفور، وقد بدا عليه السرور: «هازل!» وأنا متأكدة من أنه افترض أنني أخذت أنفتح على الآخرين. وأُصبح جزءاً من المجموعة.

نظرت إلى أغسطس واترز الذي بادلني النظرات، والذي يمكن أن ترى من خلال عينيه لشدة زرقتهما. قلت: «سيأتي وقت نصبح فيه كلنا أمواتاً. سيأتي زمن لن تبقى فيه كائنات بشرية تتذكَّر وجود أيّ كان، أو أن أجناسنا قامت بأي شيء على الإطلاق. لن يبقى أحد ليتذكر أرسطو أو كليوباترا، فضلاً عنك أنت. وسيُنسى كل ما صنعناه وبنيناه وكتبناه وفكرنا فيه واكتشفناه، وهذا كله ـ وأومأت إلى الجميع   سيكون عديم النفع. قد يأتي هذا الزمن في وقت قريب، وقد يبعد عنا ملايين السنين، ولن نبقى إلى الأبد حتى لو نجونا من انهيار شمسنا. فقد مرّ الزمن الذي اختبرت فيه الكائناتُ الحيةُ الوعي، وسيأتي زمن بعده. وإذا أقلقتك حتمية أن تصبح نَسْياً منسيّاً فأنا أشجعك على تجاهل الأمر. واللَّه أعلم بأن ذلك ما يفعله كل شخص آخر».

تعلّمت ذلك من صديقي المفضل الثالث الذي ذكرته سابقاً، بيتر فان هوتن، المؤلف المتنسّك صاحب كتاب «محنة عظيمة»، الكتاب القريب مني قرب الكتاب المقدس. فبيتر فان هوتن هو الشخص الوحيد الذي صادفته، وبدا لي أنه يدرك كيف يُحتضر المرء أولا وهو على قيد الحياة ثانياً.

أعقبت انتهائي فترة طويلة من الصمت وأنا أنظر إلى الابتسامة العريضة على وجه أغسطس. وهي ليست تلك الابتسامة الملتوية الخفيفة لفتى يحاول أن يكون مثيراً وهو يحدق إليّ، بل ابتسامته الحقيقية الأكبر من وجهه. «اللعنة»، قال أغسطس بهدوء، «كم أنت مختلفة عن غيرك؟».

ولم يتفوّه أيّ منا بشيء طوال ما تبقى من اجتماع مجموعة الدعم. وفي النهاية أمسك بعضنا بأيدي بعضنا الآخر وترأس باتريك صلاتنا: «أيها الرب يسوع، إننا مجتمعون هنا في قلبك، بالمعنى الحقيقي للكلمة، في قلبك، بوصفنا مصابين بالسرطان. أنت، وأنت وحدك تعرفنا كما نعرف أنفسنا. أرشدنا إلى الحياة والنور في أوقات محنتنا. نصلّي لعينيْ إسحق، ولدم مايكل وجايمي، ولعظام أغسطس، ولرئتي هازل، ولحلق جايمس. نصلّي لكي تشفينا ولنتمكّن من الشعور بمحبتك وسلامك اللذين يفوقان كل تصوّر. ونتذكر في قلوبنا من رحلوا إلى منزلك: ماريا وكايد وجوزف وهالي وأبيغيل وأنجلينا وتايلور وغابريال و...» وتطول اللائحة. ففي العالم كثير من الموتى.

وفيما واصل باتريك الكلام بصوت ممل قارئاً اللائحة المكتوبة على ورقة لأنها أطول من أن تُحفظ غيباً، أبقيت عينيَّ مغمضتين حتى النهاية، عندما توقف الجميع عن الإصغاء، محاوِلةً التفكير من خلال الصلاة ولكن، متخيّلة، على الأغلب، اليوم الذي سيجد فيه اسمي طريقه إلى تلك اللائحة.

ولما انتهى باتريك ردّدنا معاً تلك اللّازمة الغبية ـ نعيش حياتنا الفضلى اليوم ـ وانتهى الأمر. دفع أغسطس واترز بنفسه عن كرسيه ومشى صوبي مشيتَه الملتوية مثل ابتسامته. وقف منتصباً لكنه حافظ على مسافة بيننا بحيث لم أضطر إلى مدّ عنقي لأنظر في عينيه. سألني: «ما اسمك؟».

«هازل».

«كلا، اسمك الكامل».

«هازل غريس لانكستر».

وهمّ بقول شيء آخر عندما مشى إسحق صوبنا. «تمهّلي»، قال أغسطس رافعاً إصبعه، واستدار صوب إسحق. «الأمر في الواقع أسوأ مما قلت إنه سيكون».

«قلت لك إنه كئيب».

«ولماذا تزعج نفسك به؟».

«لا أدري. فهو أمر يساعدنا نوعاً ما».

مال أغسطس، بحيث اعتقد أنني لا أستطيع ان أسمعه. «أهي تواظب على المجيء؟» ولم أتمكن من سماع تعليق إسحق، لكن أغسطس أجاب: «أنا سأقول ذلك». وأمسك بكتفي إسحق ثم خطا نصف خطوة بعيداً منه. «أخبر هازل عن العيادة».

أسند إسحق يده إلى طاولة الحلوى وركّز عينيه الضخمتين عليّ. «حسناً، ذهبتُ في هذا الصباح إلى العيادة، وأخبرت جرّاحي بأنني أفضل أن أصبح أطرش على أن أفقد البصر. قال «إن الأمر لا يتم بهذا الشكل». فأجبته بما معناه «نعم، أعرف أن الأمر لا يتم بهذا الشكل؛ ولو خُيِّرت، وأنا أعرف أنني لا أملك هذا الخيار، لفضّلت أن أصبح أطرش على أن أفقد البصر». قال: «حسناً، الخبر الجيّد هو أنك لن تفقد السمع». قلتُ: «شكراً لأنك شرحت لي أن السرطان في عينيّ لن يتسبب لي بالطرش. وأنا محظوظ بأن مثقفاً عظيماً مثلك يتنازل ويُجري لي العملية».

«يبدو أنه من أصحاب الحظوة»، قلت. «سأحاول أن أصاب بسرطان في العين لأتمكن من التعرّف إلى هذا الشخص».

«أتمنى أن تُوفَّقي في ذلك. حسناً، يجب أن أذهب، فمونيكا تنتظرني. يجب أن أنظر إليها كثيراً طالما كان ذلك بإمكاني».

هل نلعب غداً لعبة «مكافحة التمرّد؟» سأل أغسطس.

«بالتأكيد». واستدار إسحق وركض يصعد الدّرج قفزاً كل درجتين معاً.

واستدار أغسطس واترز صوبي وقال: «بالمعنى الحقيقي».

وسألته: «بالمعنى الحقيقي؟».

قال: «نحن، في قلب يسوع بالمعنى الحقيقي. اعتقدت أننا في قبو الكنيسة، لكننا، بالمعنى الحقيقي في قلب يسوع».

قلت: «على أحدهم أن يخبر يسوع بذلك. أعني أنه من الخطر تخزين أولاد مصابين بالسرطان في قلبك».

«سأخبره ذلك بنفسي»، قال أغسطس. «إلا أنه من سوء الحظ أنني عالق في قلبه ولن يتمكّن بالتالي من سماعي». ضحكتُ. وهزّ برأسه مكتفياً بالنظر إلي.

«ماذا؟» سألته.

قال: «لا شيء».

«لماذا تنظر إليّ هكذا؟».

ابتسم أغسطس نصف ابتسامة. «لأنك جميلة. وأنا أستمتع بالنظر إلى الأناس الجملاء، وقررت منذ فترة ألّا أحرم نفسي أبسط ملذات الوجود». وتبع ذلك صمت وجيز مربك. ثم قال أغسطس: «أقصد،

بالنظر خاصة إلى ما أشرت إليه بهذا القدر من الروعة، بأن هذا كله سيكون نسياً منسيّاً».

وبصوت يشبه السعال الملتبس سخرت مما قاله أو تنهدت أو زفرت ثم قلت: «أنا لست جميلة».

«أنت أشبه بنتالي بورتمان أسطورية، أشبه بنتالي بورتمان في فيلم «ڤي فور ڤنديتا» (V for Vendetta)».

قلت: «لم أشاهده قط»

سأل: «حقاً؟ يدور الفيلم حول فتاة رائعة الجمال وذات شعر قصير. وهي تكره السلطة، ولا تملك من أمرها إلا أن تغرم برجل تعرف أنه مثير للمشاكل. إنها سيرة حياتك، على حدّ ما أعلمه حتى الآن.

كان كل مقطع صوتي من مقاطعه يغازلني. وهو بصراحة قد أثارني نوعاً ما. لم أعرف أنه يمكن للفتية أن يثيروني كما يحدث ذلك في الحياة الواقعية.

مرت بنا فتاة أصغر سنّاً. سألها: «كيف حالك يا أليسا؟» ابتسمت وتمتمت: «هاي، أغسطس». وقال شارحاً «هذه الفتاة من أناس الميموريال[1] إلى أين تذهبين؟».

«إلى مستشفى الأطفال»، قلت، وصوتي أكثر خفوتاً مما توقعته. هزّ برأسه. بدا أنّ المحادثة انتهت. «حسناً»، قلتُ وأنا أومئ برأسي على نحو ملتبس صوب الدرج الذي يقودنا إلى خارج القلب الحقيقي ليسوع. أملت عربتي على دولابيها وشرعت في السير. مشى، وهو يعرج بالقرب مني. سألته: «أراك، ربما في المرة المقبلة؟».

---

(١) الميموريال هو مستشفى الأبحاث الكبير.

قال: «يجب أن تشاهديه. أعني في فور قنديتا».

«حسناً سأشاهده».

«لا ستشاهدينه معي في منزلي، الآن».

توقفت عن السير. «أنا بالكاد أعرفك يا أغسطس واترز. قد تكون قاتلاً يستخدم الفأس في جرائمه».

هزّ برأسه. «صحيح، يا هازل غريس». سار وتجاوزني. كانت كتفاه تملآن قميصه البولو، المحوك وظهره منتصب، فيما خطواته تميل قليلاً إلى اليمين وتحقّقت من أنه يسير بساقٍ اصطناعية بثبات وثقة فسرطان العظم يذهب أحياناً بطرف من أطرافك للتحقق منك فإذا أعجبته، يذهب بما تبقى.

تبعتُه إلى أعلى الدرج، وقد تأخّرت عنه وأنا أشقّ طريقي صعوداً ببطء، لأن الدّرج ليس حقل تجربة لاختبار رئتي.

أصبحنا خارج قلب يسوع، في باحة وقوف السيارات. وكان الهواء الربيعي مثاليًّا ببرودته المنعشة وضوء العصر يبهر العين بلونه السّماوي.

لم تصل أمي بعد، وهذا نادر لأنها تنتظرني دائماً. ألقيت نظرة من حولي وشاهدت فتاة سمراء طويلة القامة ناهدة، وقد سمّرت إسحق على جدار الكنيسة الحجري وهي تقبّله بشيء من الحدّة. كانا على مقربة مني بحيث تمكّنت من سماع الأصوات الغريبة لفميهما معاً وأمكنني سماعه يقول «دوماً»، فتقول «دوماً».

وفجأة، وقف أغسطس بالقرب مني وقال بما يشبه الهمس: «إنهما مؤمنان كبيران بالتعبير العلني عن المشاعر».

«وما أمر هذه الـ(دوماً)؟»، وقد اشتدت الأصوات الشبيهة بالانتهام.

«دوماً هي كلمة خاصة بهما. وتعني أن أحدهما سيحب الآخر دوماً وما إلى ذلك. وأقدّر، بتحفظ، أن كلًّا منهما قد بعث إلى الآخر في العام الفائت برسائل نصية تحتوي على أربعة ملايين كلمة دوماً».

انطلقت سيارتان أخريان تُقلّان مايكل وأليسا. ولم يعد هناك سوانا أنا وأغسطس، نراقب إسحق ومونيكا اللذين واصلا ما يقومان به مواصلة حثيثة وكأنهما ليسا في مكان للعبادة. امتدت يده إلى ثديها من فوق قميصها وقَبَضَتْ عليه. كانت راحة يده جامدة فيما أصابعه تتحرك من حوله، فسألت نفسي عن الشعور إن كان الشعور جميلاً. لم يبدُ كذلك. لكنني قررت أن أغفر لإسحق على أساس أنه سيُصاب بالعمى، ولأن على الحواس أن تقبل على المتع ما دام هناك رغبة

قلت بصوت خفيض: «تخيّل أنك تقود سيارتك للمرة الأخيرة إلى المستشفى. المرة الأخيرة التي تقود فيها سيارة».

فقال أغسطس من دون أن ينظر إلي: «إنك بهذا تفسدين المشاعر التي يبعثها في هذا الموقف، يا هازل غريس. فأنا أحاول مراقبة سلوك الشباب وهم في حالة حب بأوجهه الكثيرة الرائعة الخرقاء».

قلت: «أعتقد أنه يؤلم ثديها».

«نعم، يصعب التأكد ممّا إذا كان يحاول إثارتها أو يجري فحصاً للثدي». ثم مدّ أغسطس واترز «يده إلى جيبه وأخرج، من بين كل الأمور، علبة سجائر. فتحها ودسّ سيجارة بين شفتيه.

«هل أنت جاد؟» سألته. «أتعتقد أن ذلك رائع [illegible] إلهي [illegible] أفسدت الأمر برمّته».

«أي أمر؟» سأل وقد استدار صوبي. وتدلّت السيجارة عبر المشتعلة من زاوية فمه غير المبتسمة.

«الأمر برمّته. يحدق إليّ فتى لا يفتقر إلى الجاذب أو إلى الذكاء وليس من النوع المنفر ويشير إلى الاستخدام غير الصحيح لعبارة بالمعنى الحقيقي، ويشبّهني بإحدى الممثلات، ويسألني أن أشاهد فيلماً في منزله. إلا أن هناك دائماً عيباً ما بالتأكيد. وعيبك ـ آه يا إلهي ـ هو أنك، على الرغم من إصابتك بسرطان فظيع، تدفع المال لشركة لتنال، بالمقابل المزيد من السرطان الذي يُحتمل أن تصاب به. دعني أؤكد لك أن عدم القدرة على التنفّس أمر فظيع، ومخيّب للأمل تماماً».

«عيب؟» سأل والسيجارة لا تزال في فمه. وقد شد ذلك فكّه. وخط فكّه السفليّ رائع، لسوء الحظ.

أجبت، وأنا أشيح بوجهي عنه: «عيب قاتل». سرت نحو المنعطف تاركة أغسطس واترز خلفي، وسمعت عندها صوت سيارة في الشارع. إنها أمي. ويبدو أنها تنتظر أن أتّخذ أصدقاء أو ما إلى ذلك.

شعرت بهذا المزيج من خيبة الأمل والغضب يموج في داخلي. لم أعرف حقاً حتى ماهية هذا الشعور، بل عرفت فقط أن هناك كثيراً منه، وأردت أن أصفع أغسطس واترز، وأن أبدل برئتيّ رئتين غير فاشلتين. وقفت بحذائي المطاطي من نوع «تشاك تايلور» عند حافة المنعطف بالذات، ومعي مستوعب الأكسجين بكل ما يقيّد حركتي، عندما شعرت ـ ووالدتي توقف السيارة ـ بيد تمسك بيدي.

انتزعت يدي لكنني استدرت صوبه.

«إنها لا تقتلكِ إذا لم تشعليها»، قال مع وصول والدتي إلى المنعطف. «ولم يسبق لي قط أن أشعلت واحدة. الأمر لا يعدو كونه أسلوباً في التصرّف.. كما ترين: تضعين الشيء القاتل بين أسنانك تماماً، لكنك لا تمنحينه القوة للقيام بعملية القتل».

«إنه أسلوب في التصرف»، قلت مرتابة. أخذت أمي للتو تبطىء سرعة المحرّك.

قال: «إنه أسلوب في التصرّف».

قلت: «إنك تختار أسلوب تصرّفك على أساس ما يوحي به...».

«آه، نعم» وابتسم. تلك الابتسامة العريضة البلهاء الحقيقية. «أنا من كبار المؤمنين بالأسلوب في التصرّف، يا هازل غريس».

استدرت صوب السيارة. نقرت على النافذة، فأنزلتها أمي. قلت: «أنا ذاهبة لحضور فيلم مع أغسطس واترز، سجّلي لي من فضلك الحلقات التالية من ماراتون أميريكاز نكست توب موديل».

الفصل الثاني

اد أغسطس واترز السيارة بطريقة مريعة، وحصل كل شيء بخضة هائلة ند التوقف أو عند الانطلاق. طرت في اتجاه حزام الأمان في سيارته لتويوتا ذات الدفع الرباعي في كل مرة استخدم فيها الكابح، وانقصف نقي إلى الخلف في كل مرة ضغط فيها على دواسة البنزين. ربما صابني التوتر وأنا جالسة في سيارة فتى غريب في الطريق إلى منزله، ي حين أدرك تمام الإدراك، أن وضعي الصحي لا يسمح بمقاومة غرائه. لكن قيادته بلغت درجة مدهشة من السوء لم أتمكن معها من لتفكير في أي شيء آخر.

ربما اجتزنا ميلاً واحداً في صمت مربك قبل أن يقول أغسطس، «فشلت ثلاث مرات في امتحان القيادة».

«لا يبدو عليك ذلك».

ضحك وهو يهز برأسه. «لا أستطيع التحكم بالقيادة برجلي لاصطناعية القديمة، ولا أستطيع ذلك أيضاً بقدمي اليسرى. يقول

أطبائي إن معظم مبتوري الأطراف يمكنهم القيادة بلا مشكلة، لكن آه، ليس أنا. ومضيت، على أي حال، إلى امتحاني الرابع في القيادة وقد بدا أن الأمور لن تجري على ما يرام». تحول ضوء الإشارة على بعد نحو نصف ميل منا إلى الأحمر. ضغط أغسطس بشدة على الكابح رامياً بي بقوة في الطوق المثلث لحزام الأمان. «عفواً. أقسم باللّه إنني أحاول أن أكون لطيفاً. جيّد، وعلى أي حال اعتقدت في نهاية الامتحان اعتقاداً تاماً أنني فشلت من جديد، لكن الفاحص قال ما معناه: قيادتك مزعجة، لكنها غير خطرة تقنياً».

قلت: «لست متأكدة من أنني أوافقه الرأي. وأشك أن في الأمر امتيازاً خاصاً بمرضى السرطان». وهذه الامتيازات هي أمور صغيرة يحصل عليها الأولاد المصابون بالسرطان ولا يحصل عليها الأولاد العاديون: من كرات سلة موقعة من الأبطال الرياضيين، والتغاضي عن الفروض المتأخرة، وإجازات سَوْق غير مُستَحقّة، الخ.

«نعم»، قال. وتحوّل الضوء إلى الأخضر. تهيأت. وضغط أغسطس بقوة على دواسة البنزين.

أشرت إليه بالقول: «تعلم أن هناك أدوات تحكّم يدوية للذين لا يستطيعون استخدام أرجلهم».

«نعم»، قال. «ربما يوماً ما». وتنهد بطريقة جعلتني أسأل نفسي إن كان واثقاً من أن هذا اليوم سيأتي. عرفت أن الغَرَن العظمي قابل جداً للعلاج، لكن من يدري.

هناك عدد من السبل التي تمكّن الشخص من أن يحدّد تحديدا تقريبياً حظوظ بقائه على قيد الحياة من دون طرح السؤال بالفعل.

واستخدمتُ السؤال الكلاسيكي: «إذاً أنت في المدرسة؟» فعند حدّ ما، يخرجك أهلك، في العادة، من المدرسة إذا توقعوا موتك.

«نعم»، قال. «أنا في مدرسة نورث سنترال. لكنني متأخر سنة: فأنا في الصف الثانوي الثاني. وأنت؟».

فكَرت في الكذب. فما من أحد في النهاية يحب الجثث. لكنني قلت الحقيقة في النهاية. «أخرجني أهلي من المدرسة منذ ثلاثة أعوام».

«ثلاثة أعوام؟» سأل دَهِشاً.

أخبرت أغسطس بالمراحل العامة لمعجزتي: تشخيصي في المرحلة الرابعة من سرطان الغدّة الدرقية وأنا في الثالثة عشرة. (لم أخبره أن التشخيص جاء بعد ثلاثة أشهر من عادتي الشهرية الأولى. فأبدو كمن يتلقى التهاني بأنها أصبحت امرأة وبأن عليها الآن أن تموت! وهو، كما قيل لنا، غير قابل للشفاء.

خضعتُ لعملية جراحية تدعى «التسليخ الجذري للعنق»، وهي مبهجة بالقدر الذي يوحي به اسمها، ثم إلى علاج بالأشعة، ثم جرّبوا بعض العلاج الكيميائي لأورام رئتيّ. تقلّصت الأورام، ثم اتسعت. وقد أصبحت عندها في الرابعة عشرة. بدأ الماء يملأ رئتي. أخذت ملامح الموت تبدو عليّ إلى حد بعيد، فانتفخت يداي وقدماي؛ تفسخت بشرتي، وأصيبت شفتاي بزرقة دائمة. جاؤوا بذلك الدواء الذي يجعلك لا تصاب بالذعر الكلي من عدم قدرتك على التنفّس، وقد انساب الكثير منه إلى جسمي عبر القسطرة الوريدية المركزية ذات المجرى الخارجي، إضافة إلى أكثر من دزينة أخرى من الأدوية. وعلى الرغم

من ذلك لا يشعرك تناول العقاقير بالبهجة، وبخاصة عندما يحصل ذلك على امتداد أشهر عدة. انتهى بي الأمر في وحدة العناية الفائقة مصابة بالتهاب رئوي، وركعت أمي بجانب سريري وقالت: «أمستعدة أنت يا حبيبتي؟» فقلت لها إنني مستعدة، واكتفى والدي بالقول إنه يحبني بهذا الصوت الذي وصل تهدّجه إلى أقصى حدّ، وواصلتُ القول له إنني أحبه أيضاً، وقد أمسك بعضنا بأيدي بعض.

لم أتمكّن من التقاط أنفاسي وأخذت حالة رئتيّ تتدهور. فكانتا تلهثان، وتدفعانني خارج السرير في محاولة لاتخاذ وضعية يمكن أن تمدّهما بالهواء، وقد أربكني يأسهما واستأت من أنهما لا يطلقان سراحي، وأذكر أمي وهي تقول لي إنني سأكون بخير ولا بأس علي فيما يحاول والدي جاهداً ألا ينشج لأنه عندما يفعل، وهو ما يحصل في انتظام، يبدو الأمر أشبه بالهزة الأرضية. وأذكر أنني رغبت في ألّا أكون صاحية.

تصوّر الجميع ب أمري قد انتهى، لكن طبيبة السرطان «ماريا تمكنت من إخراج بعض السوائل من رئتيّ. وبُعَيد ذلك بدأ يسري مفعول المضادات الحيوية التي أعطوني إياها لعلاج الالتهاب الرئوي.

استيقظت، وسرعان ما أُخضعت لواحدة من تلك الاختبارات التي تشتهر في عالم السرطان بأنها بلا جدوى وبأن نسبة الناس الذين لم ينفعهم بلغت سبعين بالمئة. والدواء المستخدم هو «فالانكسيفور» ذلك الجُزيء الذي يلتصق بالخلايا السرطانية لإبطاء نموها. وهو ينجح في حوالى سبعين بالمئة من الناس. لكنه نفعني، وتقلّصت الأورام، وبقيت متقلّصة. يحيا الـ«فالانكسيفور!» وبالكاد نمـ

الخلايا السرطانية في الأشهر الثمانية عشر الماضية، ما تركني برئتين معتلّتين، لكن يُحتمل أن تتمكنّا من الكفاح لأجلٍ غير مُسمّى بمساعدة من رذاذ الأكسجين ومن جرعة يومية من الـ «فالأنكسيفور».

لم تؤدِّ معجزة سرطاني، باعتراف الجميع، إلا إلى قليل من كسب الوقت. (ولم أعرف، بعدُ، حجم هذا القليل). لكنني رسمت، وأنا أخبر أغسطس، أكثر الصور وردية عن المعجزة.

قال: «هكذا باتَ عليك الآن العودة إلى المدرسة».

قلت: «لا يمكنني ذلك في الواقع، لأنني حصلت بالفعل على شهادة التطوير التعليمي العام، لذا فأنا أحضر الصفوف في معهد «أم. سي» الجامعي».

«تلميذة معهد»، قال وهو يهزّ برأسه. «هذا ما يفسّر هالة العلم الرفيعة»، وتكلّف الابتسام. دفعت بزنده مازحة، وأمكنني الشعور بالعضل تحت الجلد تماماً، مشدوداً بكامله ومدهشاً.

انعطفت السيارة وقد أصدرت اطاراتها صريراً، باتجاه حيّ فرعي ذي جدران من الجصّ ترتفع ثماني أقدام. كان منزله هو الأول إلى اليسار، وهو مؤلف من طبقتين على طراز العمارة الاستعمارية. ارتجّت بنا السيارة حتى توقّفت في مدخل البيت.

تبعته إلى الداخل فلفتتني لوحة خشبية عند بهو المدخل حُفرت عليها كلمات بأحرف متصلة تقول: «البيت حيث القلب». وتبين أن المنزل كلّه مكلّل بمثل هذه التأمّلات. وكتب على صورة فوق رف المعاطف: «يصعب العثور على الأصدقاء الصالحين، كما يصعب نسيانهم». وعلى وسادة مشغولة بالإبرة في غرفة الجلوس المفروشة بالأثاث القديم: كُتِب:

«الحب الحقيقي يولد من الأوقات الصعبة». شاهدني أغسطس أقرأها وقال شارحاً: «أهلي يسمونها تشجيعات، وهي موجودة في كل مكان».

ناداه والده وأمه باسم غاس. كانا في المطبخ يصنعان فطائر الانتشيلادا (وقد كُتب بأحرف نافرة على قطعة من الزجاج الملوّن عند المجلى: «العائلة إلى الأبد»). انكبّت أمه على وضع الدجاج في أرغفة التورتيا التي يقوم والده بلفّها ووضعها في إناء زجاجي. لم يُفاجآ جداً بوصولي، وهذا منطقي: فواقع أن أغسطس أشعرني بأنني مميزة لا يشير بالضرورة إلى أنني مميزة. ربما يُحضر إلى المنزل كل ليلة فتاة مختلفة عن تلك التي أحضرها في الليلة السابقة ليريها فيلما ويلامسها

«هذه هازل غريس».

قلت: «هازل فقط».

«كيف الحال يا هازل»، سأل والد غاس. وهو رجل طويل القامة - يكاد يضاهي غاس طولاً - وهزيل هزالاً غير مألوف في من هم في سن الأهل.

أجبت: «بخير».

«كيف جرى لقاء مجموعة دعم إسحق؟».

«كان مدهشا»، قال غاس.

«يا لك من «دبي داونر[1]»، قالت أمه. «هل استمتعتِ به يا هازل؟»

تمهّلت في الإجابة محاولةً أن أعرف ما إذا كان عليّ أن أزن كلامي إرضاءً لأغسطس أو لأهله. وانتهيت إلى القول: «معظم الناس لطفاء فعلاً».

---

(١) شخص يأتي بالأنباء السيئة والمشاعر السلبية (المترجم)

قال والده، «هذا بالضبط ما وجدناه في العائلات في مستشفى ميموريال، ونحن في خضم علاج غاس. كانوا كلهم لطفاء جداً وأقوياء أيضاً. يجمعك الرب بأفضل الناس في أحلك أيام حياتك».

«أعطني بسرعة وسادة زينة وبعض الخيوط لأن هذا يجب أن يكون واحداً من شعارات التشجيع»، قال أغسطس. فبدا والده منزعجاً قليلاً. إلا أن غاس أحاط عنق والده بذراعه الطويلة وقال: «أنا أمزح يا أبي. فأنا أحب التشجيعات الغريبة. أحبها فعلاً، لكنني لا أستطيع أن أعترف بذلك لأنني مراهق». ورماه والده بنظرة مزوّرة.

سألتني أمه، وهي امرأة قصيرة القامة، سمراء وتشبه الفأرة «آمل أن تنضمي إلينا على العشاء».

«أعتقد. يجب أن أعود إلى المنزل عند العاشرة. كما أنني لا آكل اللحم».

قالت: «ما من مشكلة، سنطهو طعاماً نباتياً».

وسأل غاس: «هل الحيوانات كثيرة اللطافة؟».

قلت «أريد أن أقلّل من عدد حالات الموت التي أتحمّل مسؤوليتها».

فتح غاس فمه للرد، لكنه ضبط نفسه.

فكسرت والدته الصمت: «أعتقد أن هذا رائع».

حدّثاني بعض الوقت عن أن آل واترز يشتهرون بصنع فطائر الانتشيلادا التي يجب عدم تفويت فرصة تذوّقها، وقالا إن الساعة العاشرة هي الساعة التي يجب أن يعود فيها غاس إلى المنزل، وإنهما

لا يثقان أصلاً بأي شخص يحدّد موعداً آخر لعودة أولاده، وسألاني إن كنت أرتاد المدرسة ـ فتدخّل أغسطس قائلاً: «إنها طالبة في المعهد» ـ وأخبراني أن الطقس رائع حقّاً خاصة في آذار/مارس وكيف يتجدد كل شيء في الربيع، ولم يسألاني ولو مرة واحدة عن الأكسجين أو عن تشخيصي، وهو أمر غريب ورائع، إلى أن قال أغسطس: «سأشاهد أنا وهازل فيلم V for Vendetta لتتمكن من رؤية شبيهتها السينمائية ناتالي بورتمان تؤدي دور البطولة في أحداث الفيلم الذي أنتج في أواسط العقد الأول من الألفية الثانية».

قال والده بسرور: «شاهداه على تلفاز غرفة الجلوس».

«أعتقد أننا سنشاهده في القبو».

ضحك والده. «بل ستشاهدانه في غرفة الجلوس».

«لكنني أريد أن أري هازل غريس القبو»، قال أغسطس.

«هازل فقط»، قلت.

«إذاً أرِ هازل القبو»، قال والده، «ثم اصعدا وشاهدا فيلمكما في غرفة الجلوس».

نفخ أغسطس خدّيه، توازن جسديا، وفتل وركيه قاذفاً برجله الاصطناعية إلى الأمام، وهمهم: «حسناً».

تبعته نزولاً على الدرج المغطّى بالسجاد إلى غرفة نوم ضخمة في القبو. وعلى مرمى نظري، أحاط رف أنحاء الغرفة كلها واكتظ بتذكارات كرة السلة: عشرات الجوائز مع رجال من البلاستيك المذهّب يقفزون ليسدّدوا رميات متوسطة، المدى أو يتوجهون بالكرة نحو الهدف، أو يقومون برمي الكرة نحو سلّة غير مرئية. وهناك أيضاً عدد كبير من الكرات الموقّعة والأحذية الرياضية.

وشرح قائلاً: «اعتدت لعب كرة السلة».

«لا بد أنك كنت تتمتَّع بقدر كبير من المهارة».

«لم أكن سيئاً. إلا أن كل الكرات والأحذية هي امتيازات خاصة لمرضى السرطان».

مشى صوب التلفاز حيث تم ترتيب كومة ضخمة من أقراص الفيديو المدمجة والألعاب في ما يشبه الهرم. انحنى حتى خصره ونتش فيلم «ڤي فور ڤنديتا». وقال: «كنت أشبه ما يكون بالفتى الإندياني النموذجي الأبيض (نسبة إلى ولاية إنديانا الأميركية). انصرفت بكليتيّ إلى إحياء الفن الضائع للقفز والرمي من مسافات متوسطة. ولكن، ذات يوم، كنت أسدّد رميات حرّة واقفاً عند خطّ الجزاء في ملعب مدرسة «نورث سنترال». بكرات موضوعة في حاملة خاصة بها. وبالتزامن مع ذلك لم أستطع فهم سبب رميي شيئاً كروياً عبر شيء حلقي رميا منهجيّاً. وجدت الأمر أسخف ما يمكن أن أقوم به.

«شرعت أفكّر في الأولاد الصغار الذين يُدخلون خابوراً أسطوانياً في ثقب مستدير، وكيف أنهم يكرّرون الأمر، المرة تلو المرة، على مدى أشهر حين يعرفون كيفية القيام بذلك، وكيف أن كرة السلة هي في الأساس نسخة أكثر رياضية بقليل من التمرين نفسه. وعلى أي حال، داومت، ولأطول فترة، على تسديد الرميات الحرة. وقد حققت ثمانين إصابة على التوالي، وهي أفضل مرة لي على الإطلاق، لكنني واصلت الرمي. شعرت أكثر وأكثر بأني طفل في الثانية من عمره. وفجأة، ولسبب ما، شرعت أفكّر في العدائين القافزين فوق الحواجز. هل أنتِ بخير؟».

جلست عند زاوية سريره غير المرتّب لم أقصد بذلك أن أوحي إليه بأفكار إباحية وما إلى ذلك. كل ما في الأمر أني شعرت بشيء من التعب لاضطراري إلى الوقوف كثيراً. فلقد وقفت في غرفة الجلوس. ثم هبطت الدَّرج، وتلاه المزيد من الوقوف. وهذا كان أكثر ما أستطيع تحمله ولم أُرِدْ أن يبلغ الأمر حدّ الإغماء إذ كنت أتّصف ببعض صفات السيدة الفيكتورية(*) نوعاً ما. في هذا المجال.. قلت: أنا بخير. وأنا أستمع إليك. قلتَ: العداؤون القافزون للحواجز؟

«نعم، العداؤون. لا أدري لماذا، ولكنني شرعت أفكّر فيهم وهم يركضون في سباق الحواجز، ويقفزون فوق هذه الأشياء الاعتباطية بالكامل التي وُضعت في مسارهم. وسألت نفسي كما ترين، هل فكّر المشاركون في سباقات الحواجز أن الأمر سيجري على نحوٍ أسرع لو أننا تخلّصنا من الحواجز»؟

سألته: «هل حدث ذلك قبل تشخيصك؟».

«أجل، في الحقيقة، حدث أمر آخر أيضاً. ابتسم ابتسامة خفيفة وقال: «صادف أن اليوم الذي تزاحمت فيه أسئلتي حول معنى وجود الأشياء وأنا أسدّد رميات حرّة هو اليوم الأخير الذي تكون لي فيه رجلان اثنتان وكانت عطلة الأسبوع فاصلاً بين الموعد الذي عينه الأطباء لبتر رجلي وإجراء العملية.

هززت برأسي. أحببت أغسطس واترز. لقد أحببته فعلاً، فعلاً.

(*) كانت السيدة الفيكتورية ترتدي من الألبسة ما يسبب لها الضيق لذلك كانت تصاب سريعاً بالإعياء أو الإغماء أو التعب. إضافة إلى أن المعروف عنها أنها كانت تظهر بمظهر المرأة المتحفظة والحساسة والهشة التي لا تحتمل المواقف الصّادمة.

فعلاً. أحببت الطريقة التي أنهى فيها قصته بذكر شخص آخر غيره. أحببت صوته. أحببت أنه سدّد رميات حرّة والأسئلة حول طبيعة وجود الأشياء تتزاحم في داخله. أحببت أنه أستاذ مختص ومثبّت في قسم الابتسامات القليلة الالتواء ويتبوّأ عن جدارة منصبه في قسم الصوت الذي يشعرني بالإثارة كما لم أشعر بها من قبل.

وأحببت أن له اسمين لطالما أحببت من يمتلكون اسمين. لأن ذلك يتيح لك أن تقرّر الاسم الذي تناديهم به: غاس أو أغسطس.

أما أنا فلا أُنادي إلا باسم «هازل». «هازل» الأحادية.

سألته: «ألديك أشقاء وشقيقات؟».

أجاب، «هاه؟» وقد بدا شارد الذهن قليلاً.

«ذكرت أمراً عن مراقبة أولاد يلعبون».

«آه، نعم، لا. لدي أولاد أختيّ غير الشقيقتين. لكنهما أكبر سنّاً منّي. إنهما... بابا كم تبلغ جولي ومارثا من العمر؟».

«ثمانية وعشرون عاماً!».

«إنهما في الثامنة والعشرين، وتقيمان في شيكاغو. وكلتاهما متزوجة من محام متأنّق جداً، أو مصرفيّ. لا يمكنني أن أتذكّر. وأنتِ هل لديك إخوة وأخوات؟».

هززت برأسي بالنفي. وسألني: «ما قصتك إذاً؟» وقد جلس بقربي على مسافة آمنة.

«سبق لي أن أخبرتك قصتي. تم تشخيصي عندما...

«لا ليس قصة سرطانك. بل قصتك أنت. اهتماماتك، هواياتك، أهواؤك، شهواتك الغريبة، إلى آخره».

«هممم»، قلتُ.

«لا تخبريني بأنك واحدة من أولئك الناس الذين يتلبّسون حالة مرضهم. أعرف كثيراً من هؤلاء الناس. إنه لأمر محبط. كما لو أن السرطان ينمّي هذه الحال، أليس كذلك؟ حال السيطرة على الناس. لكن، من المؤكد أنك لم تسمحي له بالنجاح في ذلك قبل الأوان».

خطر لي أنني ربما فعلت. بذلت أقصى جهد لأعرف كيف أظهر جذابة في عيني أغسطس واترز ونوع اهتماماتي، وخطر لي في ما أعقب ذلك من صمت أنني لست مثيرة جداً للاهتمام. «أنا لست فوق العادة».

«أرفض ذلك من الأساس. فكّري في أمر تحبينه. الأمر الأول الذي يخطر ببالك».

«هممم. المطالعة؟».

«ماذا تطالعين؟».

«كل شيء، من قصص الحب الرهيبة مثلاً إلى القصص الخيالية الهابطة إلى الشعر. أي شيء».

«وهل تكتبين الشعر أيضاً؟».

«لا. لا أكتب».

«هاكِ!» كاد أغسطس يصيح. «هازل غريس، أنت المراهقة الوحيدة في أميركا التي تفضّل قراءة الشعر على كتابته. ينمّ هذا عن الكثير فيك. أنت تقرأين كثيراً من الكتب العظيمة، أليس كذلك؟».

«أعتقد؟».

«ما المفضّل لديك؟».

«همم»، قلت.

كتابي المفضل أكثر من غيره بكثير، هو «محنة عظيمة»، لكنني لا أحب إخبار الناس عنه. تقرأ أحياناً كتاباً فيملأك بهذه الحميّة الإنجيلية الشاذة وتقتنع كلياً بأن العالم الممزّق لن يعاود أبداً لمّ شتاته إلا حين يقرأ جميع البشر الأحياء الكتاب. وثمّة كتب مثل «محنة عظيمة» (An Imperial Affliction) لا يسعك إخبار الناس عنها. إنها كتب خاصة ونادرة وملك لك بحيث يصبح الإعلان عن حبك لها أشبه بالخيانة.

وليس الكتاب على قدر كبير من الجودة أو ما شابه؛ بل بدا أن المؤلف، بيتر فان هوتن، يفهمني فهما يبعث الدهشة في النفس ويستحيل أن يفهمني مؤلف كما فهمني هو. «محنة عظيمة» هو كتابي، كما أن جسدي هو جسدي، وأفكاري هي أفكاري.

وعلى الرغم من ذلك أخبرت أغسطس. وقلت: «ربما كان كتابي المفضل هو محنة عظيمة».

سأل: «هل يحتوي على أموات أحياء؟».

قلت: «كلا».

«على جنود من فرق العاصفة؟».

هززت برأسي بالنفي. «ليس ذلك النوع من الكتب».

ابتسم. وقال واعداً: «سأقرأ هذا الكتاب الرهيب، الذي يحمل عنواناً مملاً، ولا يحتوي على جنود من فرق العاصفة». وشعرتُ، على الفور، بأنه لم يجدر بي إخباره عنه. استدار أغسطس صوب كومة من

الكتب تحت طاولة سريره. أمسك بكتاب ورقي الغلاف وبقلم. وقال وهو «يخربش» إهداءً على صفحة العنوان، «كل ما أطلبه بالمقابل هو أن تقرأي لعبة الفيديو المفضلة لديّ وقد حُوّلَتْ إلى رواية». رفع الكتاب واسمه «ثمن انبلاج الفجر» (The Price of Dawn). ضحكتُ وأخذته. ارتبكت يدانا نوعاً ما عند التقائهما وأنا أستلم الكتاب منه وأمسك من بعدها بيدي. «باردة»، قال وهو يضغط بإصبعه على معصمي الشاحب.

قلت: «ليست باردة بقدر ما تفتقر إلى الأكسجين».

قال: «أحب، عندما تكلمينني طبياً». ووقف وسحبني معه، ولم يفلتني إلا عند بلوغنا الدرج.

***

شاهدنا الفيلم وقد باعدت بيننا مسافة قصيرة على الأريكة. قمت تماماً بما تفعله فتيات الصفوف المتوسطة، فوضعت يدي عند منتصف المسافة التي تفصل بيننا تقريباً ليعرف أني لا أمانع أن يمسك بها، لكنه لم يحاول. بعد مضي ساعة من الفيلم جاء والدا أغسطس وقدما لنا الانتشيلادا التي تناولناها على الأريكة وكانت لذيذة جداً.

تدور أحداث الفيلم حول هذا البطل الذي مات ميتةً بطوليةً في سبيل ناتالي بورتمان التي لا علاقة لها، ولجمالها الرائع وإثارتها الكبيرة ولو من بعيد بوجهي المتورّم من تأثير الستيرويد.

قال، فيما تُعرض قائمة الممثلين: «رائع جداً، هاه؟».

قلت موافقة: «رائع جداً»، على الرغم من أنه ليس كذلك بالفعل. فهو نوع من أفلام الصبية. ولا أعلم لماذا يتوقع الصبية منا أن نحب

أفلامهم. فنحن لا نتوقع منهم أن يحبوا الأفلام المخصّصة للبنات. قلت: «يجب أن أعود إلى المنزل. أنا ذاهبة غداً إلى المدرسة».

جلست على الأريكة برهةً فيما كان أغسطس يبحث عن مفاتيحه. جلست والدته بجواري وقالت: «أحب هذه، ألا تحبينها أنت؟» أعتقد أنني كنت أنظر إلى صورة «التشجيع» الموجودة فوق التلفاز، وهي رسم لملاك مع عبارة «كيف يمكننا، لولا الألم، معرفة الفرح؟».

(هذه حجّة قديمة في «موضوع الألم»، ويمكن، على مدى قرون، سبر أغوار غبائه وسذاجته، إلا أنه يكفي القول إن وجود القرنبيط لا يؤثر، بأي شكل من الأشكال، على طعم الشوكولا). «نعم»، قلت. «فكرة جميلة».

قدتُ سيارة أغسطس إلى المنزل وهو جالس على المقعد المجاور. استمعنا إلى أغنيتين يحبهما لفرقة تُدعى «ذي هكتيك غلو» (The Hectic Glow)، وهما أغنيتان جميلتان. ولأنني لم أكن أعرفهما بالفعل فإنني لم أجدهما جميلتين بقدر ما وجدهما هو. واصلت استراق النظر إلى ساقه، أو بالأحرى إلى حيث كانت، محاولةً أن أتخيّل كيف هو شكل الساق الاصطناعية. لم أرد أن تلفت اهتمامي، لكنني تخيّلتها إلى حدّ ما. وربما لفت أكسجيني اهتمامه هو الآخر. فالسقم ينفّر. وقد عرفت ذلك منذ زمن بعيد، وأعتقد أن أغسطس عرف ذلك أيضاً.

أطفأ أغسطس الراديو وأنا أركن السيارة جانباً خارج منزلي. أصبح الجو مشحوناً. فهو يفكر ربما في تقبيلي، وأنا أفكّر قطعاً في تقبيله، سائلة نفسي إذا كنت أريد القيام بذلك. فقد سبق لي أن قبّلت فتيةً، لكن مرّ وقت طويل على ذلك؛ منذ ما قبل المعجزة.

أوقفت السيارة ونظرت إليه. إنه جميل حقاً. أعرف أنه لا يُفترض بالصبية أن يكونوا كذلك، إلا أنه جميل.

«هازل غريس»، قال، وبدا اسمي بصوته جديداً وأفضل. «إنه لمن دواعي سروري أن أتعرّف إليك».

قلت: «كذلك الأمر بالنسبة إلي يا سيّد واترز». شعرت بالخجل وأنا أنظر إليه. لم أجد مثيلاً لزرقة عينيه المترقرقتين كالماء.

سأل: «أيمكنني لقاؤك مرّة أخرى؟» وحمل صوته توتّراً محبّباً.

ابتسمت وقلت: «بالتأكيد».

سأل: «غداً؟».

أشرت عليه: «صبراً، أيها المرح. أنت لا تريد أن تبدو توّاقاً جداً».

أجاب: «صحيح، ولهذا قلت غداً. فأنا أريد أن ألقاك مجدداً الليلة. لكنني على استعداد للانتظار الليل كله ومعظم يوم غد». رميته بنظرة مزورّة، فأضاف: «أنا جاد».

قلت: «أنت لا تعرفني». أخذت الكتاب من اللوحة الوسطى. «ما رأيك أن أتصل بك عندما أنتهي من قراءته؟».

قال: «لكنك لا تعرفين رقم هاتفي».

«أرتاب بقوة في أنك دوّنته في الكتاب»

افترت أساريره عن تلك الابتسامة الغبية. «وتقولين إن أحدنا لا يعرف الآخر».

الفصل الثالث

بقيت تلك الليلة مستيقظة حتى وقت متأخر جداً أقرأ «ثمن انبلاج الفجر». (تنبيه مفسد للرواية: ثمن انبلاج الفجر هو الدم). وهو ليس مثل كتاب «محنة عظيمة»، لكن بطل الرواية، الرقيب الأول ماكس مايهم، محبّب بشكل ملتبس على الرّغم من أنه يقتل، بحسب إحصائي، ما لا يقل عن ١١٨ شخصاً في ٢٨٤ صفحة.

وهكذا استيقظت متأخرة في الصباح التالي وهو يوم خميس. قضت سياسة أمي بعدم إيقاظي لأن أحد متطلبات وظيفة المريض المحترف هو الإكثار من النوم، وقد أصابني في البداية نوع من الإرباك عندما انتفضت مستيقظة ويداها على كتفيّ.

قالت: «الساعة تقارب العاشرة».

قلت: «النوم يكافح السرطان. وقد سهرت حتى وقت متأخر وأنا أقرأ».

«لا بد من أنه كتاب رائع»، قالت وهي تركع بالقرب من السرير وتفكّ مكثّف الأكسجين الكبير المستطيل الذي أدعوه فيليب لأنه يبدو شبيهاً تماماً بالفيليب.

وصلتني أمي بالخزان المحمول لتذكّرني بعد ذلك بحصّتي الدراسيّة. وقالت فجأةً: «هل ذلك الفتى هو الذي أعطاك إياه؟».

«هل تعنين القوباء بكلمة «إياه»؟

«أنت لا تُطاقين»، قالت أمي. «الكتاب، يا هازل. أعني الكتاب»

«نعم هو الذي أعطاني الكتاب».

«يمكنني القول إنك معجبة به»، قالت وقد رفعت حاجبيها كما لو أن ملاحظة ذلك تتطلب نوعاً من حسّ الأمومة الغريزي الفريد. وحين هززت كتفيّ أضافت: «قلت لكِ إن مجموعة الدعم تستحق الجهد».

«هل انتظرتِ طوال الوقت في الخارج؟».

«نعم. شغلت نفسي ببعض الأوراق. في أي حال، حان الوقت لتواجهي نهارك أيتها الشابة».

«أمي. النوم. السرطان. المقاومة».

بدا الفرح واضحاً في صوتها، «أعرف يا حبيبتي، لكن عليك حضور الحصّة. كما أن اليوم هو...

«الخميس؟».

«إنه يوم الخميس التاسع والعشرون من آذار/مارس!». صرخت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة معتوهة.

ورددت صارخة «أنت مُثارة فعلاً لمعرفتك التاريخ!».

«هازل، إنه عيد ميلادك بصف السنوي الثالث والثلاثون!».

«أووووه»، قلت. فوالدتي مفرطة حقاً في ايلاء الاحتفال بالمناسبات أهمية قصوى. إنه يوم الشجرة! فلنعانق الشجر ونأكل الكعك! جلب كولومبوس الجدري إلى السكان الأصليين؛ يجب أن نستذكر المناسبة بالخروج للنزهة! إلخ. وقلت: «إذاً مبارَك عليّ عيد الميلاد النصفي الثالث والثلاثون».

«ما الذي تنوين فعله في يومك المميّز جداً؟».

«العودة إلى المنزل من الصف وتحطيم الرقم القياسي في عدد حلقات «توب شيف» (Top Chef) التي أشاهدها بشكل متواصل؟».

مدت والدتي يدها إلى هذا الرف الموجود فوق سريري وأمسكت بـ «بْلُوِي» (أي الأزرق)، الدبدوب المحشو الأزرق الذي أملكه مذ كان عمري سنة واحدة تقريباً ـ في زمن كان من المقبول فيه اجتماعياً تسمية الأصدقاء نسبة إلى لونهم.

«ألا تريدين الذهاب لمشاهدة فيلم ما، مع كيتلين أو مات (وهما صديقاي) أو أحد ما؟».

وجدتها فكرة جيدة، وقلت «طبعاً. سأبعث برسالة نصية إلى كيتلين وأرى هل تذهب بعد المدرسة إلى المجمع التجاري أو أي مكان آخر».

ابتسمت أمي، وضمّت الدبدوب إلى بطنها. وسألت: «ألا يزال الذهاب إلى المجمع التجاري ممتعاً؟».

أجبتُ: «أفتخرُ إلى حد بعيد بعدم معرفة ما هو ممتع».

***

بعثت برسالة نصيّة إلى كيتلين. استحممت وارتديت ملابسي ثم

أوصلتني أمي بالسيارة إلى المدرسة. كانت حصة الأدب الأميركي محاضرة عن فريديريك دوغلاس في قاعة شبه فارغة، ووجدت صعوبة شديدة في البقاء مستيقظة. ردّت كيتلين على رسالتي النصّية بعد مرور أربعين دقيقة على الحصّة التي تستغرق تسعين دقيقة:

أروع من رائع. عيد ميلاد نصف سنوي سعيد. «كاسلتون» الساعة الثالثة والدقيقة الثانية والثلاثون.

تعيش كيتلين هذا النوع من الحياة الاجتماعية الزاخرة بالمناسبات والمواعيد التي لا بد من جَدولتها بالدقيقة. أجبت:

جيد. سأكون في باحة الطعام».

أوصلتني أمي بالسيارة من المدرسة مباشرة إلى المكتبة حيث اشتريت كلاً من «بزوغات فجر منتصف الليل» (Midnight Dawns) و«رثاء لمايهم» (Requiem for Mayhem)، وهما السلسلتان الأوليان لـ «ثمن انبلاج الفجر»، ثم انتقلت إلى باحة الطعام الضخمة واشتريت «دايت كولا». كانت الساعة الثالثة والدقيقة الحادية والعشرون.

راقبت، وأنا أقرأ، هؤلاء الأطفال يلعبون بسفينة القراصنة في الملعب الداخلي، وكان هناك نفق، ما انفكّ هذان الولدان يزحفان عبره مراراً وتكراراً من دون أن يبدو عليهما التعب، ما جعلني أتذكّر أغسطس واترز والرميات الحرّة المسدّدة والأفكار المتعلقة بطبيعة وجود الأشياء تتزاحم في داخله.

وكانت أمي أيضاً في باحة الطعام تجلس وحيدةً في زاوية، اعتقدت أنني لا أستطيع رؤيتها فيها، وهي تتناول ساندويش لحم بالجبن وتتصفّح بعض الأوراق. ربما كانت أموراً طبية، فمراجعة الأوراق عمل لا ينتهي.

عند الساعة الثالثة والثانية والثلاثين تماماً، شاهدت كيتلين تعبر «مطعما صينيّاً» بخطى واثقة. رأتني في اللحظة التي رفعت فيها يدي، وافتر ثغرها عن أسنانها البيضاء المقوّمة حديثاً، وتوجّهت صوبي.

كانت ترتدي معطفاً أسود بلون الفحم يصل إلى ركبتيها ويناسبها تماماً، ونظارة شمسية، غطّت وجهها، رفعتها إلى أعلى رأسها وانحنت لتعانقني.

«دارلينغ (عزيزتي)» قالت بلكنة إنكليزية ملتبسة. «كيف حالك؟». ولم يجد الناس في اللكنة غرابة أو تصنّعاً. فكيتلين أشبه بسيدة مجتمع بريطانية في الخامسة والعشرين، على درجة عالية جداً من الرقي، في جسم فتاة في السادسة عشرة في إنديانا بوليس. وهو أمر يتقبّله الجميع.

«أنا بخير. كيف حالك؟».

«لم أعد أعرف. أهذه دايت؟». هززت برأسي وناولتها إياها، فشربت بالقشة. «وددت لو أنك كنت في المدرسة هذه الأيام. إذ أصبح بعض الصبية جذابين بكل ما في الكلمة من معنى».

سألتها: «آه، صحيح؟ مثل من؟». وشرعت في تعداد أسماء خمسة فتية ارتدنا معهم المدرسة الابتدائية والتكميلية، لكنني لم أستطع تخيّل أي منهم.

قالت: «أواعد ديريك ولينغتون منذ فترة، لكنني لا أعتقد أن ذلك سيستمر. يا له من ولد. لكن يكفي حديثاً عني. ما الجديد في عالم هازل؟».

قلت: «لا شيء، حقاً».

«هل الصحة بخير؟».

«على حالها، كما أظن».

«فالانكسيفور!»، قالت متحمسة وهي تبتسم. «هكذا تستطيعين العيش إلى الأبد، أليس كذلك؟».

قلت: «ربما ليس إلى الأبد».

قالت: «لكن أساساً. وغير ذلك، ما الجديد؟».

فكّرت في إخبارها أنني أنا أيضاً أواعد فتى، أو أنني شاهدت على الأقل فيلماً معه، لأنني عرفت أنه سيفاجئها ويدهشها أن تكسب فتاة غير مرتبة مثلي، وخرقاء، وغير مكتملة النمو، ولو برهةً وجيزة، محبة فتى. إلا أنني لم أمتلك حقاً الكثير لأتباهى به، فاكتفيت بهز كتفيّ.

«ما ذلك بحق السماء؟»، سألت كيتلين وهي تومئ إلى الكتاب.

«آه، رواية خرافة علمية. بدأت نوعاً ما في الاستمتاع بها. وهي متسلسلة».

«أشعر بالقلق. هل نمضي للتسوّق؟».

ذهبنا إلى متجر الأحذية. واستمرت كيتلين، ونحن نتسوق، تختار لي تلك الأحذية المسطّحة والمفتوحة عند الأصابع وتقول «ستبدو فاتنة وأنتِ تنتعلينها». ما ذكّرني بأن كيتلين لم ترد أبداً أحذية مفتوحة عند الأصابع بسبب مقدار الكره الذي تكنّه لقدميها، ولشعورها بأن إصبعها الثانية في كلّ من قدميها أطول من اللازم، كما لو أن الإصبع الثانية تشكّل مرآة للروح. عندما أشرت إلى زوج من الصنادل التي تتناسب مع لون بشرتها قالت: «نعم، لكن...» وتعني كلمة «لكن» لكنه سيكشف

للناس عن أصبعيَ البشعتين. قلت: «من بين من عرفتهم أنت الشخص الوحيد المصاب بالتشوّه الجسدي في موضع محدد هو أصابع القدم».

قالت: «وما ذلك؟».

«الأمر يشبه الوقوف أمام المرآة ورؤية الشيء على غير ما هو عليه في الحقيقة».

«أوه، أوه»، قالت. «هل تعجبك هذه؟»، وتناولتْ حذاء «ماري جاينز» الظريف الشكل ولكن غير اللافت للأنظار، وهززت برأسي. قاسته وجرّبته وأخذت تسير جيئة وذهاباً على طول الممشى، وهي تنظر إلى قدميها عبر المرايا المحنية على درجة تبلغ مستوى الركبتين. ثم تناولت حذاء مثيراً بكعب عالٍ جدّاً وأربطة وقالت: «أمن الممكن حتى السير به؟ أعني أنني سأموت وحسب». وتوقفت فجأة عن المتابعة ونظرت إليّ كأنها تقول: أنا آسفة، كأن الإشارة إلى الموت أمام المحتضر جريمة. وتابعت كيتلين: «عليك أن تجرّبيه»، وهي تحاول إخفاء الحرج.

وطمأنتها بأنني «سأموت عاجلاً».

وانتهيت بانتقاء خفين لمجرّد شراء شيء ما، وجلستُ على أحد المقاعد المقابلة لصف الأحذية وراقبتُ كيتلين تدور حول الممرات وتتبضع بتلك الحدّة والتركيز اللذين يرتبطان في العادة بلاعبي الشطرنج المحترفين. أردت ان آخذ «بزوغات فجر منتصف الليل» وأقرأ فيه لفترة لكنني عرفت أن في ذلك وقاحة فاكتفيت بمراقبة كيتلين. أخذت تستدير من وقت إلى آخر عائدة إليّ وهي تحمل حذاء مقفلاً عند الأصابع وتقول: «هذا؟» وأحاول ان أعلق تعليقا ذكيا حول الحذاء،

إلى أن اشترت أخيراً ثلاثة أحذية وأنا اشتريت خفين ثم قالت ونحن خارجتان، «أنتروبولوجي؟»[1].

قلت: «يجب أن أتوجّه إلى المنزل. فأنا تعبة قليلاً».

«طبعاً، بالتأكيد»، قالت. «يجب أن نلتقي أكثر، يا عزيزتي». ووضعت يديها على كتفي وقبّلت خدّي وانطلقت وردفاها النحيلان يهتزّان.

لم أذهب إلى المنزل، فقد سبق أن طلبتُ من أمي أن تقلّني عند السادسة، وتصوّرت أنها إما في المجمع التجاري وإما في الموقف، إلا أنني أردت الساعتين المتبقيتين لنفسي.

أحبُّ أمي، لكن قربها المستمر مني يجعلني أشعر بتوتّر غريب. كما أنني أحب كيتلين أيضاً. أحبها فعلاً. إلا أن الأعوام الثلاثة التي أبعدتني عن لقاء أقراني في المدرسة لقاءً دائماً وعلى مدى دوام كامل، أشعرتني بوجود مسافة بيننا يستحيل ردمها. أعتقد أن أصدقاء الدراسة أرادوا مساعدتي في اجتياز محنة سرطاني لكنهم اكتشفوا في النهاية أنهم لا يستطيعون. والسبب الوحيد هو أنه لا شيء اسمه اجتياز.

وهكذا اعتذرت لاعتبارات الألم والتعب كما فعلت ذلك غالباً على مر السنين لدى لقائي كيتلين أو أياً من أصدقائي الآخرين. والحقيقة هي أن الأمر يشعرني دائماً بالألم. من المؤلم دوماً ألا أتنفّس كشخص عادي، وأن أداوم على حض رئتي على أن تعملا بشكل طبيعي وأجبر

(١) متجر بيع هذه الماركة من الثياب واللوازم النسائية والأدوات المنزلية والديكور. (المترجم)

نفسي على القبول بأن لا حلّ لوجع نقص الأكسجين الذي ينشب مخالبه فيّ فأتأكّد من الداخل إلى الخارج. وأنا بالتالي لم أكذب تحديداً، بل اخترت واحدة من الحقائق.

وجدت مقعداً محاطاً بمتجر للهدايا الإيرلندية، الـ«فاونتن بن إمبوريوم» (Fountain Pen Emporium)، وبدكان لبيع قبعات «البايسبول» (Baseball) - وهي زاوية في المجمع التجاري لن تشتري منها كيتلين أبداً، وشرعت في قراءة «بزوغات فجر منتصف الليل».

تضمَّن الكتاب الكثير من سرد أحداث الموت بنسبة حادثة موت واحدة في كل جملة، انكببت على قراءته من دون حتى أن أرفع نظري عنه. أعجبني الرقيب الأول ماكس مايهم على الرغم من أنه لم يمتلك الكثير من صفات الشخصية التقنية، إلا أنني أحببت بشكل خاص مغامراته التي تجري دائماً. هناك دوماً المزيد من الأشرار الذين يتوجّب قتلهم والمزيد من الأخيار الذين يجب إنقاذهم. وتندلع الحروب الجديدة حتى قبل أن يتم الانتصار في الحروب القديمة. لم أقرأ سلسلة حقيقية كهذه منذ أن كنت صغيرة، ومن المثير أن أعيش من جديد في خيال لا نهاية له.

أخذت الأمور، قبل عشرين صفحة من نهاية «بزوغات فجر منتصف الليل»، تسوء إلى حد كبير بالنسبة إلى مايهم عندما أُطلقت النار عليه سبع عشرة مرّة وهو يحاول أن ينقذ من العدو رهينة (أميركية شقراء). إلا أنني، بوصفي قارئة، لم أيأس. سيستمر المجهود الحربي من دونه. كان يمكن ويجب أن تكون هناك مسلسلات أخرى من بطولة جماعته: الجندي الأول ماني لوكو والجندي جاسبر جاكس والباقين.

ما كدت أبلغ النهاية حتى ظهرت أمامي هذه الفتاة الصغيرة ذات الضفائر المشبّكة وقالت: «ما هذا الذي في أنفك؟».

وقلت، «هِمْ، إنه يُدعى الكانيولا وهذان الأنبوبان يمدّانني بالأكسجين ويساعدانني على التنفس». وانقضت أمها وقالت باستنكار «جاكي»، لكنني قلت «لا، لا، لا بأس»، لأنه لا بأس فعلاً. وعندها سألتْ جاكي: «هل سيساعدانني أنا أيضاً على التنفس؟».

قلت: «لا أدري. فلنحاول». وانتزعتهما وتركت جاكي تدس الكانيولا في فتحتي أنفها وتتنفس.

«إنها تدغدغ»، قالت.

«أعرف».

«أعتقد أنني أتنفّس بشكل أفضل».

«حقاً؟».

«نعم».

«حسناً»، قلتُ، «أتمنى لو كان بإمكاني أن أعطيك هذه الكانيولا لكنني أحتاج نوعاً ما إلى العون الذي تقدّمه». وقد شعرتُ بالضيق فعلاً. وركّزتُ على تنفسي فيما كانت جاكي تعيد الأنبوبين. مسحتهما سريعاً بتي-شيرتي وربطتهما من وراء أذنيّ وأعدت القطعتين إلى مكانهما.

قالتْ: «شكراً لأنك سمحت لي بالتجربة».

«لا مشكلة في ذلك».

«جاكي»، قالت أمها من جديد. وهذه المرة تركْتُها تذهب.

عدت إلى الكتاب. إلى حيث أسف الرقيب الأول ماكس مايهم لأنه لا يستطيع أن يهب بلاده إلّا حياةً واحدة. ومع ذلك واصلتُ التفكير في تلك الفتاة الصغيرة وكم أنني أحببتها.

أعتقد أن الأمر الآخر المتعلّق بكيتلين هو أن الحديث معها لن يبدو من جديد طبيعياً أبداً. وأي محاولات لادعاء التفاعلات الاجتماعية الطبيعية محبطة وحسب، لأنه من الواضح وضوح الشمس أن كل من سأتحدث إليه من حولي، حتى نهاية حياتي، سيشعر بالحرج وبالخجل إلا الأولاد ربما مثل جاكي، الذين لا يعرفون أكثر من ذلك.

وأنا، على أي حال، أحببت فعلاً أن أبقى وحيدة مع الرقيب الأول ماكس مايهم، وااو، هيّا، فهو لن ينجو من جروح الرصاصات السبع عشرة هذه، أليس كذلك؟

(تنبيه مفسد للرواية: ماكس مايهم سيعيش).

الفصل الرابع

أويت إلى فراشي باكراً تلك الليلة، وارتديت سروالاً صبيانياً وتي - شيرت قبل أن أندس تحت أغطية السرير ذي الحجم المتوسط الذي تعلوه وسادة، وهو واحد من أمكنتي المفضّلة في العالم. وشرعت عندها، للمرة المليون، أقرأ «محنة عظيمة».

يدور الكتاب حول تلك الفتاة، آنّا (التي تروي القصة)، وأمها ذات العين الواحدة، وهي بستانية محترفة مهووسة بالخزامى، وقد عاشتا الحياة الطبيعية لأبناء الطبقة المتوسطة الدنيا في مدينة في وسط كاليفورنيا، إلى أن أصيبت آنّا بسرطان الدم النادر هذا.

لكنه ليس كتاباً متعلّقاً بالسرطان لأن الكتب المتعلقة بالسرطان سيئة. ففي هذا النوع من الكتب يشرع الشخص المصاب بالسرطان، في تأسيس جمعية خيرية تجمع الأموال لمحاربة هذا المرض، أليس كذلك؟ ويذكّر هذا الالتزام بالجمعية الخيرية، الشخصَ المصابَ بالسرطان بالطيبة الأساسية للإنسانية ويجعله يشعر بأنه محبوب ومدعوم

لأنه سيخلّف إرثاً من معالجة السرطان. لكن آنّا، في «محنة عظيمة» تقرر أن كونها إنساناً مصاباً بالسرطان يشرع في تأسيس جمعية خيرية تُعنى بالشؤون السرطانية، هو أمر نرجسي نوعاً ما، ولذلك تشرع في تأسيس جمعية خيرية تسمّى «مؤسسة آنا للأشخاص المصابين بالسرطان الذين يريدون علاج الكوليرا».

كما تتمتع آنّا في شأن ذلك كلّه بصدق لا يتمتع به الآخرون فعلاً: فهي تشير إلى نفسها في الكتاب كلّه بوصفها التأثير الجانبي، وهذا صحيح تماماً. فالأولاد المصابون بالسرطان هم، في الأساس، تأثيرات جانبية للطفرة (mutation) المستمرّة التي تجعل من تنوّع الحياة على الأرض أمراً ممكناً. ومع تقدّم الرواية تصبح أكثر اعتلالاً فتتسابق الأدوية والمرض على قتلها، وتقع أمها في غرام تاجر خزامى هولندي تدعوه آنّا «رجل الخزامى الهولندي». ويمتلك هذا الرجل كثيراً من المال وأفكاراً غريبة جداً حول كيفية علاج السرطان، لكن آنّا تعتقد أنه ربّما كان نصّاباً ويُحتمل حتى أنه ليس هولندياً. وفيما الرجل، الذي قد يكون هولندياً، ووالدتها على وشك الزواج وآنّا على وشك البدء بنظام العلاج المجنون هذا الذي يتضمن عشب القمح وجرعات ضئيلة من الزرنيخ، ينتهي الكتاب تماماً في وسط الجملة [بقطع الكلام دون اكتمال المعنى].

أعرف أنه قرار أدبي جدّاً وسوى ذلك، وربما كان جزءاً من السبب الذي جعلني أحب الكتاب كثيراً. لكنّ هناك أمراً يوصي بقصة تنتهي. وإذا لم يمكن إنهاؤها يجب على الأقل أن تستمر بشكل دائم على غرار مغامرات مفرزة الرقيب الأول ماكس مايهم.

أفهم أن القصة انتهت لأن آنّا ماتت أو زادت اعتلالاً لدرجة أنها

عجزت عن الكتابة، وأنه يُفترض بهذه الجملة الناقصة أن تعكس كيف تنتهي الحياة فعلاً. إلا أن هناك شخصيات أخرى غير آنّا في الرواية، ويبدو من غير المنصف ألا أعرف أبداً ماذا حلّ بهم. وقد كتبتُ، بواسطة هذا الناشر، عشرات الرسائل إلى بيتر فان هوتن، أطلب في كل منها بعض الأجوبة عمّا حدث بعد نهاية الرواية: هل رجل الخزامى الهولندي نصّاب، وهل انتهى الأمر بوالدة آنّا بالزواج منه، وماذا حلّ بـ «هامستر» آنّا الغبي (الذي تكرهه أمها)، وهل تخرّج أصدقاء آنّا في الثانوية، وكل تلك الأمور. لكنه لم يُجب عن أي من رسائلي.

«محنة عظيمة» هو الكتاب الوحيد الذي وضعه بيتر فان هوتن، وكل ما يعرفه أي شخص عنه هو أنه انتقل بعد نشر الكتاب من الولايات المتحدة إلى هولندا ليصبح نوعاً ما من المتوحّدين. أتصوّر أنه يعمل على تتمةٍ للرواية مسرحها هولندا، وربما انتهى الأمر بوالدة آنّا وبرجل الخزامى الهولندي إلى الانتقال إلى هناك ومحاولة البدء بحياة جديدة. لكن عشرة أعوام مرّت على إصدار «محنة عظيمة» ولم ينشر فان هوتن حتى مدوّنة إلكترونية واحدة. ولا يمكنني الانتظار إلى ما لا نهاية.

أعدت القراءة في تلك الليلة لكنّ ذهني استمرّ مشتّتاً وأنا أتخيّل أغسطس واترز يقرأ الكلمات نفسها. وتساءلت هل سيحبها أم سيرفضها لأنه سيعتبرها مدّعية. ثم تذكّرت وعدي له بالاتصال به بعد الانتهاء من قراءة «ثمن انبلاج الفجر»، ووجدتُ رقمه على صفحة غلاف الكتاب فبعثت إليه برسالة نصّية:

مراجعة ثمن انبلاج الفجر: كثير جدّاً من الجثث. لا يتضمّن ما يكفي من النعوت. كيف وجدتَ «محنة عظيمة»؟

ردّ بعد دقيقة:

أذكر أنّك وعدتِ بالاتصال عندما تنتهين من الكتاب، وليس بإرسال رسالة نصية.

وهكذا اتصلت.

«هازل غريس»، قال وهو يفتح الخط.

«هل قرأته إذاً؟».

«الحقيقة أنني لم أنهِهِ بعد. فهو مؤلف من ستمئة وإحدى وخمسين صفحة ولمّا يمضِ عليّ سوى أربع وعشرين ساعة».

«أين أصبحت؟».

«في الصفحة الأربعمئة والثالثة والخمسين».

«ثم؟».

«سأحتفظ بحكمي إلى أن أنتهي. لكني سأقول إنني أشعر ببعض الارتباك لأنني أعطيتك «ثمن انبلاج الفجر».

«لا عليك. فأنا الآن في صدد قراءة رثاء لمايهم».

«إنها إضافة متألقة إلى السلسلة. حسناً إذاً، هل فتى الخزامى نصاب؟ إنه يولّد فيّ انطباعاً سيئاً».

قلت: «لن أفسد القصة».

«سأقتلع عينيه إذا تبيّن أنه ليس سيّداً نبيلاً تماماً».

«أنت إذاً غارق في الكتاب».

«سأحتفظ بحكمي! متى يمكنني أن ألتقيك؟».

«بالتأكيد ليس قبل أن تنهي محنة عظيمة». وقد استمتعت بالتظاهر بالخجل.

«من الأفضل لي إذاً أن أقفل الخط وأشرع في القراءة».

«من الأفضل»، قلت. وأقفل الخط من دون أي كلمة أخرى.

المغازلة أمر جديد عليّ، لكنني أحببتها.

كانت المحاضرة، في اليوم التالي في المعهد، عن الشعر الأميركي في القرن العشرين. وألقت تلك السيدة العجوز محاضرة تمكّنت فيها من التحدّث، على مدى تسعين دقيقة، عن سيلفيا بلاث من دون أن تستشهد ولو مرة بكلمة واحدة لها.

خرجت من الصف وكانت والدتي توقف السيارة ومحرّكها دائر عند المنعطف قبالة المبنى.

«هل بقيت طوال الوقت تنتظرين هنا؟». سألتها وهي تهرع لمساعدتي في رفع عربتي والخزان إلى السيارة.

«لا، فقد جلبت الثياب من المصبغة، وذهبت إلى مكتب البر

«وبعدها؟».

قالت: «لديّ كتاب أقرأه».

«وأنا التي يجب أن تحيا حياة طبيعية». ابتسمتُ وحاولت ردّ الابتسامة بابتسامة واهية نوعاً ما. وقلتُ بعد برهة، «أتودّين الذ إلى السينما؟».

«طبعاً هل هناك ما تودّين مشاهدته؟».

«دعينا نقرر عندما نذهب ونرى ما الذي سيُعرض تالياً». أقفلَتْ بابي وسارت حول السيارة إلى جهة السائق. توجهنا إلى مسرح كاسلتون وشاهدنا فيلماً ثلاثي الأبعاد عن اليرابيع[١] وهو في الحقيقة مسلّ إلى حد ما.

خرجت من السينما لأجد أربع رسائل نصّية من أغسطس.

قولي لي إن الصفحات العشرين الأخيرة من نسختي ناقصة.

هازل غريس، أخبريني أنني لم أبلغ نهاية هذا الكتاب.

آه، يا إلهي. هل تزوّجا أم لا؟ آه يا إلهي. ما هذا؟

أعتقد أن آنا ماتت وهكذا تنتهي القصة؟ شيء مؤلم. اتصلي بي متى استطعت. آمل أن كل شيء بخير.

وهكذا ما إن بلغت المنزل حتى خرجت إلى الفناء الخلفي وجلست على هذا الكرسي المشبّك الصدئ واتصلت به. الجو غائم وهو يوم نموذجي من أيام إنديانا: إنه الطقس الذي يحتجزك. تحتل أرجوحة طفولتي الحيز الأكبر من فنائنا الخلفي الصغير وقد بدت مشبعة بالرطوبة وبائسة.

فتح أغسطس الخط عند الرنّة الثالثة، وقال: «هازل غريس».

«أهلاً بك إذاً إلى العذاب :نجميل لـ«محنة عظيمة» وتوقفتُ عندما سمعت نشيجاً عنيفاً في الطرف الآخر من الخط. سألته: «هل أنت بخير؟».

---

(١) نوع من الثدييات الفأرية. (المترجم)

«أنا عظيم»، أجاب أغسطس. «لكنني مع إسحق الذي يبدو في رحلة عدم التعويض[1]». تناهى إليّ المزيد من العويل، أشبه بصرخات موت التي يطلقها حيوان جريح. نقل غاس انتباهه إلى إسحق. «يا ، يا فتى. هل يحوّل فريق دعم هازل الأمر إلى الأحسن أم إلى الأسوأ؟ إسحق. ركِّز. عليّ... وقال لي غاس بعد دقيقة، «أيمكنك افاتنا إلى منزلي في عشرين دقيقة؟».

«بالتأكيد»، قلتُ وأقفلت الخط.

لو أمكنني القيادة في خط مستقيم لاحتاج الأمر إلى خمس دقائق للوصول من منزلي إلى منزل أغسطس، غير أنه لا يمكن القيادة في خط مستقيم لوجود منتزه الـ «هوليداي بارك» بيننا وبينه.

أحببت فعلاً الـ «هوليداي بارك» على الرغم من أنه عائق جغرافي. اعتدت، وأنا فتاة صغيرة، أن أخوض في نهر «وايت ريفر» بصحبة والدي، وهناك دوماً تلك اللحظة الرائعة التي يرميني فيها في الهواء بعيداً منه وأمد ذراعيّ وأنا أطير، وهو يمدّ ذراعيه، وعندها نرى، كلانا، أن أذرعنا لن تلتقي، وأن لا أحد سيمسك بي، ويُثير الأمر فينا، نوعاً من الشعور التام بالرعب. ثم يصطدم الماء بساقيّ الراكلتين، وأخرج من ثم، سليمة للتنفس، ويعيدني التيار إليه وأقول: مرّة أخرى، يا بابا، مرة أخرى.

أوقفت السيارة في المدخل بجانب تويوتا سوداء قديمة من نوع

---

(1) هنا بمعنى اضطراب نفسي شديد بنتيجة عدم القدرة على المحافظة على الطرق الدفاعية النفسية. (المترجم)

«سيدان» تصوّرتُ أنها سيارة إسحق. توجهت صوب الباب وأنا أ الخزان من خلفي. قرعت وفتح لي والد غاس.

«إنها هازل وحسب»، قال. «أنا سعيد برؤيتك».

«هل قال أغسطس إني أستطيع المجيء؟».

«نعم، إنه وإسحق في القبو». وتصاعد عندئذ عويل من تحت «لا بد أن هذا إسحق»، قال والد غاس وهزّ رأسه ببطء. «ذهب سيندي في جولة بالسيارة. الصوت.. قال وهو ينسحب: «أعتقد على أي حال، أنهما يحتاجان إليك في الأسفل». وسألني «أيمكنني حمل خزانك؟».

«لا، أنا بخير. شكراً مع ذلك يا سيد واترز».

«مارك»، قال.

انتابني نوع من الفزع من النزول إلى الأسفل. فالاستماع إلى الناس يعولون بشكل بائس ليس من تساليّ المفضّلة. لكنني مضيت.

«هازل غريس»، قال أغسطس وهو يسمع وقع قدميّ. «إسحق، إن هازل غريس من مجموعة الدعم، وهي تنزل إلى هنا. تذكير بسيط يا هازل: إسحق في وسط حالة ذهانية».

جلس أغسطس وإسحق على الأرض في كرسيين مخصّصين لألعاب الفيديو، بَدَوَا شخصين كسولين وهما يحدّقان إلى تلفاز ضخم. وقد انقسمت الشاشة بين ناحية إسحق إلى اليسار وناحية أغسطس إلى اليمين. وهناك جنود يتقاتلون في مدينة حديثة دمّرها القصف. وتعرّفت إلى المكان من «ثمن انبلاج الفجر». لم أرَ وأنا اقترب ما هو غير معهود. مجرّد فتيين، يجلسان في وهج ضوء التلفاز الضخم، يدّعيان قتل الناس.

لم أشاهد وجه إسحق إلا عندما أصبحت في موازاتهما. انهمرت الدموع على وجنتيه المحمرّتين سيلاً لا يتوقف، ووجهه قناع مشدود من الألم. حدّق إلى الشاشة حتى إنه لم يسترق النظر إليّ، وولول وهو يضرب في الوقت نفسه على جهاز التحكّم. وسألني أغسطس، «كيف حالكِ يا هازل؟».

«أنا بخير»، قلت. «إسحق؟»، وما من جواب. ولا حتى أدنى إشارة إلى أنه مدرك لوجودي. فقط الدموع التي تنهمر على وجهه نزولاً إلى الـ «تي-شيرت» السوداء.

أشاح أغسطس بنظره برهةً وجيزة جداً عن الشاشة وقال: «تبدين أنيقة». كنت أرتدي فستاناً أمتلكه منذ الأزل، يصل إلى ما تحت الركبة تماماً.

تعتقد الفتيات أنه مسموح لهن فقط أن يرتدين الفساتين في المناسبات الرسمية، لكنني أحب المرأة التي تقول: أنا ماضية لرؤية فتى يعاني من انهيار عصبي، فتى يربطه بحاسة الرؤية نفسها خيط واهٍ. اللعنة على المرض، سأرتدي فستاناً من أجله.

قلت: «ومع ذلك لن يعيرني إسحق أي نظرة. أفترض أنه مغرم إلى حد فائق بمونيكا»، وهو ما أدى إلى نشيج كارثي.

«إنه موضوع حساس إلى حدّ ما»، قال أغسطس شارحاً. «لا أدري يا إسحق ما يتعلق بك، لكن يتملكني شعور غامض بأنه يتم تطويقنا». ثم عاد إليّ: «لم يعد هناك من أساس للعلاقة بين إسحق ومونيكا، لكنه لا يريد التحدث في الأمر. يريد فقط أن يبكي ويلعب: محاربة التمرّد ٢: ثمن انبلاج الفجر».

قلت: «هذا عادل بما فيه الكفاية».

«أشعر يا إسحق بقلق متزايد من موقعنا. توجّه، إذا وافقت، إلى محطة الطاقة تلك وسأوفّر لك التغطية». ركض إسحق صوب مبنى عادي فيما أطلق أغسطس نيران رشاشه بعنف في سلسلة من الرشقات السريعة وهو يركض وراءه.

«على أي حال»، قال لي أغسطس، «الحديث معه لن يضرّ، إذا كان لديك أي كلمات حكيمة من النصح الأنثوي».

«أعتقد أن ردّه ربما كان مناسباً»، قلت ذلك فيما قتلت رشقة من نيران إسحق عدوّاً مدّ رأسه من وراء الغطاء المحروق لشاحنة بيك-أب.

هزّ أغسطس برأسه للشاشة، وقال: «يتطلّب الألم أن يُشعر به»، وهي جملة من «محنة عظيمة». ووجّه السؤال لإسحق: «أواثق أنت من أنّ لا أحد وراءنا؟». وشرع الرصاص الخطاط، بعد لحظات من ذلك، يئزّ فوق رأسيهما. «آه، اللعنة يا إسحق»، قال أغسطس، «لا أقصد انتقادك في لحظة ضعفك العظمى، لكنك سمحت بأن يتم تطويقنا، ولم يعد هناك الآن ما يحول بين الإرهابيين والمدرسة». ركضت الشخصية التي يلعب اسحق دورها صوب النار بشكل متعرّج داخل زقاق ضيق.

«يمكنكما عبور الجسر وإعادة التطويق»، قلت. وهو تكتيك عرفته بفضل «ثمن انبلاج الفجر».

تنهّد أغسطس. «بات الجسر، وللأسف، تحت سيطرة المتمردين، بسبب الاستراتيجية المشكوك فيها التي وضعها مرافقي البائس».

«أنا؟»، قال إسحق بصوت لاهث. «أنا؟! أنت من اقترح أن نتمركز في محطة الطاقة اللعينة».

أشاح غاس بوجهه عن الشاشة برهةً، وافترّ ثغره عن ابتسامة ملتوية لإسحق، وقال: «عرفت أن في وسعك النطق يا صديقي. فلنمضِ الآن لإنقاذ بعض التلامذة الوهميين».

ركضا معاً عبر الزقاق وهما يطلقان النار ويختبئان في الأوقات المناسبة إلى أن بلغا مقر المدرسة هذا، المؤلف من طبقة واحدة وغرفة واحدة. جلسا القرفصاء وراء جدار في الجانب الآخر من الشارع واصطادا الأعداء الواحد تلو الآخر.

سألتُ، «لماذا يريدون الدخول إلى المدرسة؟».

أجاب أغسطس، «يريدون أخذ الأولاد رهائن». وتكوّر كتفاه حول جهاز التحكّم، وهو يضرب الأزرار وساعداه مشدودان وقد برزت أوعيته الدموية. ومال إسحق صوب الشاشة وجهاز التحكّم يرقص بين يديه بأصابعهما النحيلة. «نلْ منه، نلْ منه، نلْ منه»، قال أغسطس. تواصلت موجات الإرهابيين وقاما بحصدهم جميعهم برمايتهما الدقيقة بشكل مدهش، كما توجّب أن تكون حتى لا يصيب الرصاص المدرسة.

«قنبلة يدوية! قنبلة يدوية!» صاح أغسطس فيما تقنطر شيء عبر الشاشة وارتدّ عند مدخل المدرسة ثم تدحرج حتى الباب.

أسقط إسحق جهاز تحكّمه بخيبة أمل. «إذا لم يتمكن أبناء الزنى من أخذ رهائن يعمدون إلى قتلهم ويدّعون أننا فعلنا ذلك».

«وفر لي التغطية!» قال أغسطس وهو يقفز من وراء الجدار ويركض مسرعاً صوب المدرسة. تلمّس إسحق جهاز التحكم ثم شرع في إطلاق النار، فيما الرصاص ينهمر على أغسطس الذي أصيب مرة، ثم مرتين، لكنه واصل الركض وهو يصيح: «لا يمكنكم قتل ماكس مايهم!» وفي فورة

أخيرة من الضغط على تركِيبة الأزرار انقض على القنبلة التي انفجرت تحته. وانفجر جسمه المفكك كفوّارة المياه وتلوّنت الشاشة بالأحمر. قال صوت أجشّ: «فشلت المهمّة»، لكن، بدا أن أغسطس يعتقد العكس، وهو يبتسم لمنظر بقاياه على الشاشة. مد يده إلى جيبه وسحب سيجارة أقحمها بين أسنانه. وقال: «أنقذت الأولاد».

«مؤقّتاً»، قلت معلّقة.

«كل إنقاذ مؤقّت»، ردّ أغسطس. «أكسبتهم دقيقة. وربما هي الدقيقة التي تشتري لهم ساعة، وهي الساعة التي تشتري لهم سنة. لن يعمد أحد إلى شراء ذلك إلى الأبد، يا هازل غريس، لكن حياتي اشترت لهم دقيقة. وهذا أمر ذو بال».

«واو، حسناً»، الأمر مجرّد لعبة (بيكسل)».

هزّ كتفيه كما لو أنه يعتقد أن اللعبة حقيقية فعلاً. عاد اسحق إلى العويل صرخ أغسطس في وجهه قائلاً: «هل نقوم بالمهمة من جديد أيها العريف؟».

هزّ إسحق رأسه علامة بالنفي. وانحنى فوق أغسطس لينظر إليّ وقال عبر أوتاره الصوتية المشدودة بإحكام «لم ترد القيام بالأمر بعد ذلك».

قلتُ: «لم ترد التخلّي عن فتى ضرير». هزّ برأسه موافقاً، ودموعه ليست دموعاً بقدرِ ما هي أشبه ببندول الإيقاع الهادئ: منتظم، ولانهائي.

أخبرني: «قالت إنها لن تستطيع التعامل مع الأمر. أنا على وشك خسارة نظري وهي لا تستطيع التعامل مع الأمر».

أخذت أفكّر في كلمة «تعامل» وكل الأمور التي لا يمكن الاحتفاظ بها في تعاملنا معها. قلت: «أنا آسفة».

مسح بكمّه وجهه المشبّع بالدموع. وبدت عينا إسحق، من وراء نظارته، على درجة كبيرة من الضخامة حتى كاد يختفي كل شيء آخر في وجهه ولا يبقى سوى هاتين العينين ـ واحدة حقيقية والأخرى زجاجية ـ المفصولتين الطافيتين تحدّقان إليّ. «هذا غير مقبول»، قال لي. «غير مقبول تماماً».

قلت: «في الحقيقة، ولنكن منصفين، أقصد أنها ربما لا تستطيع التعامل مع الأمر. وأنت كذلك لا تستطيع، لكن ليس عليها أن تتعامل معه. أما أنت فعليك ذلك».

«بقيت اليوم أقول لها: دوماً، دوماً، دوماً، دوماً. واستمرت في مناقشتي من دون أن تردّدها عليّ. بدا الأمر كأن رحيلي قد قُضي، أتفهمين؟ (دوماً) كانت وعداً! كيف يمكن للمرء أن ينكث بوعده؟».

قلت: «أحياناً لا يفهم الناس الوعود التي يطلقونها حين يطلقونها».

رمقني إسحق بنظرة حادة. «صحيح، طبعاً. لكن المرء يفي بوعده مهما كان الحال. هذا هو الحب. الحب هو الحفاظ على الوعد مهما كان الحال. ألا تؤمنين بالحب الحقيقي؟».

لم أجب. لأنه ليس لديّ جواب. لكنني فكّرت في أن هذا تعريف جيّد جدا له إذا كان الحب الحقيقي موجوداً.

«الحقيقة أنني أؤمن بالحب الحقيقي»، قال إسحق. «وأنا أحبها. وهي قد وعدت. وعدتني دوماً». وقف وخطا خطوة باتجاهي. دفعت

بنفسي واقفة ظناً مني أنه يريد عناقاً أو ما شابه، غير أنه استدار وحسب، كما لو أنه لم يتذكّر لماذا وقف في المقام الأول، ثم شاهدت وأغسطس هذا الحنق يستقر على وجهه.

«إسحق»، قال غاس.

«ماذا؟».

«تبدو نوعاً ما اعذرني على ما يحمله كلامي من ازدواجية في المعنى هناك أمر مقلق نوعاً ما في عينيك».

وفجأة شرع إسحق يرفس بقوة شديدة كرسي لعبه الذي طار مقلوباً صوب سرير غاس. «ها نحن نبدأ»، قال أغسطس. وطارد إسحق الكرسي ورفسه من جديد. «نعم»، قال أغسطس. «نل منه. اركل الكرسي بكل ما أوتيت من قوة!» وركل إسحق الكرسي من جديد إلى أن ارتدّ عن سرير غاس، ثم أمسك واحدة من الوسادات وأخذ يضربها بعنف على الجدار بين السرير ورف الجوائز من فوقه.

نظر إليّ أغسطس والسيجارة لا تزال في فمه وابتسم نصف ابتسامة. «لا أستطيع الكف عن التفكير في ذلك الكتاب».

«أعرف، أليس كذلك؟».

«ألا يخبر أبداً ما حلّ بالشخصيات الأخرى؟».

قلت له: «كلّا». واستمر إسحق في خنق الجدار بالوسادة. «انتقل إلى أمستردام، وهو ما يدفعني إلى الاعتقاد بأنه ربما يكتب تكملة من بطولة رجل الخزامى الهولندي، لكنه لم ينشر أي شيء. لم تُجر معه أي مقابلة. ولا يبدو أنه يستخدم الانترنت. بعثت إليه بمجموعة من الرسائل أسأله فيها عمّا حلّ بكل واحد لكنه لم يجب. وبالتالي

نعم». توقّفت عن الكلام لأن أغسطس لم يكن يبدو مصغياً إلي، بل كان يسترق النظر بدلاً من ذلك إلى إسحق.

«تمهّلي»، تمتم لي. وتوجّه إلى إسحق وأمسكه من كتفيه. «يا صديقي، الوسادات لا تتحطم. حاول بشيء ينكسر».

تناول إسحق واحدة من جوائز كرة السلة من الرف فوق السرير وأمسكها من فوق رأسه كما لو أنه ينتظر الإذن. «نعم»، قال أغسطس. «نعم!» وتحطّمت الجائزة على الأرض وتكسّرت ذراع لاعب كرة السلة البلاستيكي وتشظّت ويده لا تزال تمسك بالكرة. وداس إسحق بشدة على الجائزة. «نعم!» قال أغسطس. «نلْ منها!».

ثُم نظر إلي وقال: «كنت أبحث عن طريقة أخبر فيها والدي بأنني أكن نوعاً من الكره لكرة السلة، وأعتقد أنني وجدتها». وسقطت الجوائز الواحدة تلو الأخرى وداس عليها إسحق بقوة وهو يصيح، فيما وقفتُ، وأغسطس، على بعد خطوات نشهد فورة الجنون. غطّت أجسام لاعبي كرة السلة البلاستيكية المسكينة المشوّهة أرضية السجادة: هنا كرة لا تزال تمسك بها يد منفصلة عن جسمها؛ وهناك ساقان من دون جذع في وضعية القفز نصف قفزة واستمر إسحق في مهاجمة الجوائز قافزاً عليها بكلتا قدميه صائحاً مقطوع الأنفاس متعرّقاً، إلى أن انهار في النهاية فوق بقايا الجوائز المحزّزة.

خطا أغسطس صوبه ونظر إليه من فوق، وسأله: «أتشعر بحال أفضل؟».

«كلا»، تمتم إسحق وصدره يعلو ويهبط.

«هذا ما يعنيه الألم»، قال أغسطس ثم عاود النظر إلي. «إنه يتطلّب أن يُشعر به».

✦ الفصل الخامس

مرّ أسبوع ولم أعاود الاتصال بأغسطس. فَقَدْ هاتَفْتُه «ليلة الجوائز المحطَّمة»، وبالتالي حان دوره، بحسب التقليد، ليتّصل بي، لكنه لم يفعل. وليس الأمر أنني قضيت النهار بطوله أمسك بالهاتف في يدي المتعرّقة أحدّق إليه، وأنا أرتدي «فستاني الأصفر الخاص» وأنتظر بصبر أن يكون سيدي النبيل على قدر النبل الذي يحمله لقبه فيتصل بي. بل تابعت حياتي: تناولت القهوة بعد ظهر أحد الأيام مع كيتلين وصديقها (اللطيف، ولكنه بصراحة، ليس أغسطس)؛ وتناولت نصيبي اليومي من الفالانكسيفور؛ وحضرت دروسي في المعهد في ثلاث فترات صباحية؛ وكنت، كل مساء أجلس إلى مائدة العشاء مع أمي وأبي.

تناولنا مساء الأحد البيتزا بالفلفل الأخضر والقرنبيط الأخضر. جلسنا حول طاولتنا المستديرة الصغيرة عندما شرع هاتفي يغنّي، لكن، لم يُسمح لي بالتحدّث إلى المتّصل لأن نظامنا الصارم يحظر الاتصالات الهاتفية خلال العشاء.

هكذا أكلتُ قليلاً فيما تحدثت أمي وأبي عن الهرة الأرضية التي وقعت للتو في بابوا غينيا الجديدة. لقد التقيا في فيلق السلام في بابوا غينيا الجديدة، وبالتالي، كلما جرى أمر هناك، وإن كان رهيباً. ينقلبان وعلى نحو مفاجىء، من كائنين ساكنين جسيمين إلى شخصين شابين ومثاليّين ومكتفيين ذاتياً وصُلبين، وهي الهيئة التي كانا عليها فيما مضى. وقد بلغ استمتاعهما بذلك حدّ أنهما لم يرمقاني بنظرة خاطفة، وأنا آكل بأسرع مما سبق لي أن فعلت، ناقلةً الطعام من صحني إلى فمي بسرعة وشراسة أدّتا إلى قطع نفسي، ما جعلني أقلق من أن تسبح رئتاي مجدَّداً في بركة من السوائل الآخذة في الارتفاع. أبعدت الفكرة بأفضل ما كان بإمكاني. من المقرر أن أخضع بعد أسبوعين لتصوير مقطعي بالإصدار البوزيتروني (PET scan)، وسأعرف في وقت قريب إنْ كنت أعاني من سوء. ولا يربح المرء شيئاً من القلق بين هذه اللحظة وتلك اللحظة.

ومع ذلك، استمرّ القلق يساورني. أحببت كوني إنساناً حسّاساً، وأردت إبقاء الأمر على هذا النحو. فالقلق أيضاً تأثير جانبي للاحتضار.

انتهيت أخيراً وقلت: «هل يمكنني الاستئذان؟» وبالكاد أوقفا محادثتهما عن مواطن القوة والضعف في البنى التحتية الغينية. أمسكت هاتفي من محفظتي الموجودة على منضدة المطبخ، وتفقّدت ما وردني حديثاً من اتصالات. أغسطس واترز.

خرجت من الباب الخلفي إلى الشفق. تمكّنت من رؤية أرجوحة طفولتي وفكّرت في المضي إليها والترجّح وأنا أتحدث إليه، لكنها بدت بعيدة جداً، وقد أتعبني تناول الطعام.

بدلاً من ذلك، استلقيت على العشب عند حافة الباحة، ورفعت نظري إلى كوكبة «الجوزاء» وهي كوكبة النجوم التي أعرفها، واتصلت به.

«هازل غريس»، قال.

«هاي. كيف حالك؟».

«عظيم. أردت الاتصال بك كل دقيقة تقريباً، لكنني انتظرت إلى أن أتمكّن من تشكيل فكرة مترابطة في ما يتعلّق بـ «محنة عظيمة». (قال «في ما يتعلّق». يا له من فتى).

«ثم؟»، قلت.

«أعتقد، كما لو أنه.. بقيت، وأنا اقرأه، أشعر كما لو أنه... كما لو أنه».

«كما لو أنه؟»، سألت وأنا أغيظه.

«كما لو أنه هدية؟»، قال بشكل سؤال. «كما لو أنك أعطيتني شيئاً مهمّاً».

«أوه»، قلت بهدوء.

«ذلك سيّئ. أنا آسف».

«لا»، قلت له. «لا لا تعتذر».

«لكن لا نهاية له».

«صحيح»، قلت.

«هذا تعذيب. فهمته تماماً، فهمت أنها ماتت، أو ما شابه».

«صحيح، أفترض ذلك»، قلت.

«حسناً، هذا عادل بما فيه الكفاية. لكن هناك ذلك العقد غير المكتوب بين المؤلف والقارئ، وأعتقد أن عدم إنهاء الكتاب ينتهك ذلك العقد».

«لا أدري»، قلت وأنا أشعر بحاجة إلى الدفاع عن بيتر فان هوتن. «ذلك، بطريقة ما، جزء مما أحبه في الكتاب. فهو يصف الموت بصدق. تموت في منتصف حياتك، في منتصف الجملة. لكنني أودّ.. يا إلهي كم أودّ، أود فعلاً أن أعرف ما الذي حلّ بكل شخص آخر ذلك ما طلبته منه في رسائلي. لكنه لا يجيب أبداً».

«تماماً. هل قلت إنه منعزل؟».

«صحيح».

«ويستحيل تقفّي أثره».

«صحيح».

«ولا يمكن الوصول إليه بتاتاً».

«مؤسف أن الأمر على هذا النحو».

«عزيزي السيد واترز»، أجاب. «أكتب لأشكرك على مراسلتك الإلكترونية التي تلقيتها في السادس من نيسان/أبريل عبر الآنسة فليغنثارت من الولايات المتحدة، إذا كانت الجغرافيا ما تزال تعتبر موجودة في ظل حقبتنا الرقمية المعاصرة المنتصرة».

«أغسطس، ما هذا بحق الجحيم؟».

«لديه مساعدة»، قال أغسطس. «ليدوفيه فليغنثارت. عثرت عليها، وبعثت إليها برسالة إلكترونية. أعطته الرسالة، وأجاب عبر حسابها الإلكتروني».

«حسناً. حسناً. واصل القراءة».

«كتبتُ ردّي بالحبر على الورق بحسب التقليد المجيد لأسلافنا، وحوّلته الآنسة فليغنثارت من ثم إلى سلسلة أرقام ١ وصفر ليسافر عبر الشبكة العنكبوتية التي لا طعم لها، والتي أوقعت أخيراً أجناسنا في شباكها. وأعتذر بالتالي عن أي شيء قد ينتج عن ذلك من خطأ أو سهو.

«نظراً إلى عربدة وسائل التسلية التي في متناول شبان وشابات جيلك، فإنني ممتن لأي شخص في أي مكان يخصّص الساعات الضرورية لقراءة كتابي الصغير. إلا أنني، يا سيدي، مدين بنوع خاص لكل من كلماتك اللطيفة في شأن «محنة عظيمة» ولتخصيصك الوقت لتقول إن الكتاب، وأنا هنا أستشهد بك مباشرة، «عنى الكثير» لك.

«إلا أن هذا التعليق دفعني إلى التساؤل: ما الذي تقصده بـ«عنى؟» هل إن الصدمة العابرة للمعنى التي يسببها لنا الفن قيّمة آخذين بعين الاعتبار أن نهاية صراعنا ستكون عبثية؟ أم إنّ القيمة الوحيدة تتمثل في قضاء الوقت بأكبر قدر من الراحة؟ ما الذي على الرواية أن تحاكيه، يا أغسطس؟ أهي جهاز إنذار يرنّ؟ أم دعوة إلى السلاح؟ أم حقنة مورفين؟ وبالطبع، كما في كل التساؤلات المتعلقة بالكون، فإن خط البحث هذا يحيلنا حتماً إلى السؤال عما يعنيه أن نكون إنسانيين، وهل إن هناك جدوى في ذلك كله على حد تعبير أولاد سن السادسة عشرة، مثقلين بالقلق، ترذلهم أنت، بلا شك.

أخشى، يا صديقي، أنْ لا جدوى، وأن مصادفتك المزيد من كتاباتي، لن تلقى منها إلا تشجيعاً ضعيفاً لكن، ولأجب عن سؤالك: لا، لم أكتب شيئاً آخر، ولن أفعل. لا أشعر أن الاستمرار في مشاركة

لقراء أفكاري سيعود بالنفع عليهم أو عليّ. أشكرك مرّة أخرى على رسالتك الإلكترونية الكريمة.

«لك خالص الشكر،
بيتر فان هوتن
عبر ليدوفيه فليغنثارت».

«واو»، قلت. «هل ذلك من تلفيقك؟».

«هازل غريس، أيمكنني، بقدراتي الذهنية الضئيلة، تلفيق رسالة من بيتر فان هوتن تتضمن جملاً مثل حقبتنا الرقمية المنتصرة المعاصرة؟».

ووافقته: «لا تستطيع. أيمكنني، أيمكنني الحصول على عنوان البريد الإلكتروني؟».

«بالتأكيد»، قال أغسطس كما لو أن ذلك أفضل هدية على الإطلاق.

أمضيت الساعتين التاليتين أكتب رسالة إلكترونية إلى بيتر فان هوتن. وبدت أنها تسوء أكثر فأكثر في كل مرّة أعيد فيها كتابتها، لكنني لم أتمكن من منع نفسي.

عزيزي السيد بيتر فان هوتن
(بواسطة ليدوفيه فليغنثارت)،

اسمي هازل غريس لانكستر. صديقي أغسطس واترز، الذي قرأ «محنة عظيمة» بتوصية مني، تلقّى للتو رسالة إلكترونية منك على هذا العنوان. آمل في أنك لا تمانع أن يشاركني أغسطس تلك الرسالة الإلكترونية.

أفهم، يا سيّد فان هوتن، من رسالتك إلى أغسطس أنك

لا تخطَط لنشر أي كتب أخرى. وهو ما يصيبني بنوع من خيبة الأمل، لكنه يريحني أيضاً: لن يتوجّب علي أن أقلق أبداً من السؤال: هل إن كتابك المقبل سيكون بمستوى الأصلي من حيث روعة كماله؟ ويمكنني أن أقول لك، بما أنه قد مضى عليّ ثلاثة أعوام ولا أزال حيّة من المرحلة الرابعة من السرطان، فإنك فهمت كل شيء كما يجب في «محنة عظيمة». أو أقله فهمتني كما يجب. فلكتابك طريقة في إخباري عما أشعر به حتى قبل أن أشعر به، وقد أعدت قراءته عشرات المرات.

بيد أنني أسأل نفسي إن كنت لا تمانع في الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتعلق بما حصل بعد انتهاء الرواية. أفهم أن الكتاب انتهى لأن آنّا ماتت أو أنها بلغت من المرض حداً حال بينها وبين الاستمرار في الكتابة، لكنني أودّ فعلاً أن أعرف ما الذي حلّ بوالدة آنّا ـ هل تزوجت من رجل الخزامى الهولندي؟ هل رُزِقت بطفل آخر؟ وهل بقيت مقيمة في ٩١٧ و. تامبل؟ إلخ. وأيضاً هل إن رجل الخزامى الهولندي دجّال أم إنه يحبّهما فعلاً؟ ما الذي حصل لأصدقاء آنّا ـ وبخاصة كلير وجايك؟ هل بقيا معاً؟ وأخيراً ـ أدرك أن هذا هو نوع السؤال العميق والمدروس الذي لطالما أملتَ في أن يطرحه قرّاؤك: ما مصير الهامستر سيزيفوس؟ انتابتني هذه الأسئلة سنوات، ولا أدري كم تبقى لي من الوقت للحصول على الأجوبة عنها.

أعرف أنها ليست أسئلة أدبية مهمة، وأن كتابك مُشبع بالأسئلة الأدبية المهمة، إلا أنني أودّ فعلاً أن أعرف وحسب.

وأود بالطبع، إذا قررتَ يوماً أن تكتب شيئاً آخر، أن أقرأه حتى لو لم ترد نشره. وأنا بصراحة على استعداد لقراءة لائحة مشترياتك من البقالة.

بكل ما أكنّه لك من الإعجاب الكبير،

هازل غريس لانكستر

(العمر ١٦ سنة)

أرسلتها وعاودت الاتصال بأغسطس، وبقينا حتى ساعة متأخرة نتحدث عن «محنة عظيمة». قرأت له قصيدة إيميلي ديكنسون التي استخدمها فان هوتن في عنوان الكتاب، فقال إن صوتي مناسب للقراءة وإنني لم أتوقف كثيراً لدى الانتقال من سطر إلى سطر. ثم أخبرني أن الكتاب السادس من «ثمن انبلاج الفجر»، وهو بعنوان «الدم يوافق» (The Blood Approves)، يبدأ باستشهاد من قصيدة ما. استغرقه الأمر دقيقة للعثور على الكتاب، ليقرأ لي الاستشهاد في النهاية. «لنقل إن حياتك انهارت. وإن القبلة الرائعة الأخيرة التي تلقيتها كانت منذ سنوات بعيدة».

«لا بأس»، قلت. «في ذلك بعض الادّعاء. وأعتقد أن ماكس مايهم سيعتبره «هراء مخنّثاً»».

«صحيح، وهو يصر على أسنانه من دون شك. يا إلهي، إن مايْهِمْ يكثر في هذه الكتب من الصَّرّ على أسنانه. من المؤكد أنه إذا نجا من كل معاركه فسيُصاب بخلل وظيفي في المفصل الصدغي الفكّي». وبعد برهة سأل غاس: «متى قُبّلت آخر قبلة رائعة؟».

فكّرت في الأمر قبلاتي ـ قبل تشخيصي ـ كانت كلها مسبّبة للضّيق ورطبة، وكانت دائماً عند حد ما تشبه قبلات أطفال يدّعون أنهم كبار. وقد مضى على ذلك وقت طويل. قلت في النهاية: «سنوات مضت. وأنت؟».

«تبادلت بعض القُبل الرائعة مع صديقتي السابقة، كارولين ماذرز».

«منذ سنوات؟».

«كانت قبلتي الأخيرة منذ أقل من سنة تماماً».

«ماذا جرى؟».

«أثناء القبلة؟».

«لا، بينك وبين كارولين».

«أوه»، قال. وتابع بعد ثانية، «لم تعد كارولين تعاني من وجودها بوصفها شخصاً حيّاً».

قلت: «أوه».

قال: «بلى».

قلت: «آسفة». فقد عرفت كثيراً من الأناس الموتى. لكنني لم أواعد أحدهم. ولا يمكنني في الحقيقة تخيّل الأمر.

«ليس هذا خطأك يا هازل غريس. فنحن مجرّد تأثيرات جانبية، أليس كذلك؟».

قلت مستشهدة بـ «محنة عظيمة»: «إوز بحري على سفينة حاويات الوعي».

قال: «حسناً، يجب أن أخلد إلى الفراش فالساعة تقارب الواحدة».

قلت: «حسناً»

وقال: «حسناً».

فهقهت وقلت: «حسناً». ثم صمت الخط لكنه لم ينقطع. كدت أشعر بأنه معي هنا في غرفتي، لكن الأمركان بطريقة ما أفضل، كما لو أنني لست في غرفتي وهو ليس في غرفته، بل كنّا معاً في مجال ثالث غير مرئي ودقيق لا يمكن زيارته إلا عبر الهاتف.

«حسناً»، قال بعد فترة أبدية. «ربما تصبح كلمة (حسناً) هي كلمة «دوما» الخاصة بنا».

قلت: «حسناً».

وكان أغسطس هو الذي أقفل الخط في النهاية.

أجاب بيتر فان هوتن على رسالة أغسطس الإلكترونية بعد أربع ساعات من إرسالها، وها قد مضى يومان وفان هوتن لم يجبني. أكّد لي أغسطس أن رسالتي أفضل وتتطلب ردّاً مدروساً أكثر، وأن فان هوتن منشغل بكتابة الردود على أسئلتي، وأن النثر اللامع يتطلب وقتاً. إلا أن القلق ظل يلازمني.

تلقيت يوم الأربعاء خلال درس مبادئ الشعر الأميركي للتلاميذ الأغبياء، رسالة نصية من أغسطس:

خرج إسحق من العملية التي تمت على خير. وأُعلن رسمياً عدم وجود آثار للسرطان.

وأتبع ذلك نتيجة أخرى وصلت بعد ثوان قليلة من صدور النتيجة الأولى:

أقصد أنه أعمى. وهذا مؤسف.

وافقت أمي بعد ظهر ذلك اليوم على إعارتي السيارة لأتمكن من التوجه بها إلى مستشفى الـ «ميموريال» لأتفقّد إسحق.

قصدت غرفته في الطابق الخامس، وقرعت الباب على الرغم من أنه كان مفتوحاً. سمعت صوت امرأة يقول: «تفضل». وهي ممرضة تتفحّصُ الضمادات الموضوعة على عيني إسحق. قلتُ، «مرحى، إسحق».

قال: «مون؟».

«آه، لا عفواً. أنا هازل. هازل مجموعة الدعم. هازل ليلة تحطيم الجوائز».

«أوه»، قال. «نعم، يقول الناس إن أحاسيسي الأخرى ستتحسّن تعويضاً عن فقدان بصري، لكن من الواضح أنها لم تتحسّن بعد. مرحى يا هازل مجموعة الدعم. تعالي إليّ لأتمكن من تفحّص وجهك بيدي وأنظر في روحك بعمقٍ لن يتمكن من بلوغه أي إنسان مُبْصر».

«إنه يمزح»، قالت الممرضة.

قلت: «نعم، أدركت ذلك».

خطوت بضع خطوات صوب السرير. سحبتُ كرسيّاً وجلست وأمسكت بيده.

«هاي»، قلت.

وردّ: «هاي». ثم عمّ الصمت فترةً.

سألته: «كيف تشعر؟».

«حسناً»، قال. «لا أعرف».

وسألته: «ما الذي لا تعرفه؟». ونظرت إلى يده لأنني لم أشأ النظر إلى وجهه المعصوب العينين بالضمادات. عضّ إسحق على أظفاره وتمكّنت من رؤية بعض الدم عند زاويتين من زوايا الجلد الذي يغطي منبت الظفر.

«لم تأتِ حتى للزيارة. أقصد أننا بقينا معاً أربعة عشر شهراً، وهذا زمن طويل. يا إلهي، هذا يؤذي المشاعر». ترك إسحق يدي بحثاً عن مضخة الألم التي يضغط عليها لمدّ نفسه بموجة من المسكّنات.

خطت الممرضة إلى الوراء بعدما انتهت من تغيير الضمادات. «لم يمضِ إلا يوم يا إسحق»، قالت بنبرة متعالية ملتبسة. «يجب أن تمنح نفسكَ الوقت للشفاء. وأربعة عشر شهراً ليست بذلك الوقت الطويل، في حساب الأشياء. فأنت ما زلت على خط البداية وحسب، يا صديقي. سترى». قالت ذلك ثم غادرت.

«هل ذهبتْ؟».

هززتُ برأسي، ثم أدركت أنه لا يستطيع أن يرى إيماءتي، فقلت: «نعم».

«سأرى؟ حقاً؟ هل قالت ذلك جادّةً؟».

قلت: «لنذكر ميزات الممرضة الجيدة: هيّا».

قال إسحق: «١ لا تتلاعب بالكلام المتعلق بإعاقتك».

قلت: «٢ تسحب الدم من المحاولة الأولى».

«الأمر هائل، جدياً. أعني أهذه ذراعي اللعينة أم لوحة لرمي الأسهم؟ ٣. الميزة الثالثة لا تتكلم بصوت متعالٍ».

«كيف حالك يا حبيبي؟»، سألت وأنا أرخّم صوتي. «سأغرز الإبرة الآن. قد تشعر بوجع خفيف».

أجاب: «هل إن صغيري (الطبّوش) الرقيق مريض؟». ثم تابع بعد لحظة: «معظمهن يجدن عملهنّ. اللعنة، أريد الخروج من هذا المكان».

«تعني بـ (هذا المكان) المستشفى؟».

«ذلك أيضاً»، قال وزمّ فمه، فتمكّنت من رؤية الألم. «أنا، صدقاً، أفكّر بمونيكا أكثر بكثير من عيني. أفي هذا جنون؟ ذلك جنون».

وافقته: «في ذلك بعض الجنون».

«لكنني أؤمن بالحب الحقيقي، أتعرفين؟ لا أعتقد أنه يمكن للجميع الاحتفاظ بأعينهم أو ألا يمرضوا أو سوى ذلك، لكن، على كل واحد أن يحظى بالحب الحقيقي الذي يجب، على الأقل، أن يستمر، ما استمرّت حياتك»

قلت: «نعم»

«أحياناً أتمنى لو أن الأمر كلّه لم يحدثْ. مسألة السرطان كلها». أخذ يتباطأ في كلامه وقد بدأ الدواء يعطي مفعوله.

قلت: «أنا آسفة».

«جاء غاس إلى هنا في وقت سابق. كان هنا عندما استيقظت. تغيّب عن المدرسة وأتى وأدار رأسه إلى الجانب قليلاً. وقال بهدوء: «الأمر أفضل».

سألته: «الألم؟». فهزّ برأسه قليلاً.

«جيد». قلت. وبعُهر سألته: «كنت تقوى شيئاً عن غاس لكنه غفا.

نزلت إلى متجر الهدايا الصغير الخالي من النوافذ وسألت المتطوعة الهرمة الجالسة وراء الصندوق عن نوع الأزهار ذات الرائحة الأقوى.

قالت: «كلّها متشابهة، لأنها تُرش بالرائحة الممتازة».

«حقّاً؟».

«نعم، يبخونها بها وحسب».

فتحتُ المبرّد إلى يسارها واستنشقت دزينة من الورود، ثم انحنيت فوق بعض القرنفل. وشممت الرائحة نفسها وقد عبق بها المكان. ولمّا كان القرنفل أرخص ثمناً، أمسكت بدزينة من أزهاره الصفراء، ودفعت ثمنها أربعة عشر دولاراً. عدت إلى الغرفة حيث وجدتُ والدته وهي تمسك بيده. هي فتيّة وجميلة حقّاً.

سألتني: «أصديقة أنت؟». وهو ما وجدتُه واحداً من الأسئلة المفتوحة عن غير قصد، والتي لا يمكن الإجابة عنها.

«نعم»، قلت. «أنا من مجموعة الدعم. وهذه له».

أخذتها ووضعتها في حضنها. ثم سألتني: «أتعرفين مونيكا؟»

هززت برأسي بالنفي.

قالت: «الحقيقة، أنّه نائم».

«نعم، تحدّثت إليه قبل قليل لدى تبديل الضمادات».

قالت: «كرهت تركه عند ذلك، لكن توجب عليّ أن أُقلّ غراهام من المدرسة».

قلت لها: «إنه بخير» فهزت رأسها. وأضفتُ: «يجب أن أدعه ...». هزت رأسها من جديد. وغادرتْ.

...تيقظت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وقمت في البداية بتفقد ...دي الإلكتروني.

وأخيراً أتاني الجواب من العنوان التالي:

lidewij.vliegenthart@gmail.com

عزيزتي الآنسة لانكستر،

أخشى أن تكون ثقتك في غير مكانها، والثقة، بالعادة، في غير مكانها. لا أستطيع الإجابة عن أسئلتك، أقله كتابة، لأن كتابة مثل هذه الأجوبة ستشكل تتمة لـ «محنة عظيمة» قد تعمدين إلى نشرها أو إلى مشاركة غيرك فيها على الشبكة التي حلّت محل عقول أبناء جيلك. وهناك الهاتف، لكنك قد تسجّلين المحادثة. وأنا لا أثق بك، يا عزيزتي هازل، ولن يمكنني الرد أبداً على مثل هذه الأسئلة إلا شخصياً، لكنك هناك وأنا هنا.

أمّا وقد تمت ملاحظة ما سبق، فيجب أن أعترف أن تسلّمي غير المتوقع لمراسلتك عبر الآنسة فليغنثارت قد أسعدني: يا له من أمر رائع أن أعرف أنني صنعت شيئاً مفيداً لك، حتى لو أن هذا الكتاب يبدو بعيداً جداً عني بحيث أشعر أن رجلاً آخر تماماً هو الذي وضعه. (كان مؤلف تلك الرواية نحيلاً جداً وضعيفاً جداً وبالمقارنة مع ما هو عليه الآن كان متفائلاً جداً!).

بيد أنني أرجوك، في حال جئت إلى أمستردام، أن تزوريني بالشكل الذي يريحك. فأنا بالعادة ألازم المنزل. حتى إني سأسمح لك بإلقاء نظرة على لائحتي الخاصة بمشتريات البقالة.

لك خالص الشكر،

بيتر فان هوتن

بواسطة ليدوفيه فليغنثارت

«ماذا؟». صرخت بصوت مرتفع. «يا للروعة!».

هرعت أمي إليّ. «ما الخطب؟».

وأكّدت لها: «لا شيء».

ركعت أمي، وهي لا تزال متوتّرة، للتحقّق من «فيليب» والتأكد من أنه يكثّف الأكسجين كما يجب. تخيّلتُ نفسي أجلس في مقهى مشبع بالشمس مع بيتر فان هوتن، وهو يستند بمرفقيه إلى الطاولة يتحدث بصوت لطيف حتى لا يسمع أحد غيري حقيقة ما حدث للشخصيات التي قضيت أعواماً أفكر بها. قال إنه لا يستطيع أن يخبرني إلا شخصياً، ثم دعاني إلى أمستردام، وقد شرحت هذا لأمي وقلت من بعدها: «يجب أن أذهب».

«هازل، أحبّك، وتعرفين أنني أفعل أي شيء من أجلك، لكننا لا نملك المال اللازم لرحلة خارج البلاد إضافة إلى كلفة نقل المعدات إلى هناك، يا حبيبتي ليس الأمر مجرّد...

قاطعتها قائلة: «نعم». وأدركتُ كم أنني سخيفة لمجرّد التفكير في الأمر، فأضفت «لا تقلقي في هذا الشأن». لكنها بدت قلقة.

وسألتني: «الأمر مهم حقّاً لك، أليس كذلك؟». وجلسْت وإحدى يديها على ربلة ساقي.

قلت: «إنه لمن الرائع جداً أن أكون الشخص الوحيد، الذي يعرف ما يجري إضافة إليه».

«سيكون ذلك رائعاً»، قالت. «سأتحدّث إلى والدك».

قلت: «لا، لا تفعلي. أقول جدّياً: أرجوكما ألّا تنفقا أي مال على الأمر. سأفكّر في شيء ما».

تبادر لي أنني السبب في عدم حيازة أهلي المال. فقد استنزفت مدخرات العائلة بالمدفوعات الإضافية على الفالانكسيفور، ولا تستطيع والدتي العمل لأنها تعمل بدوام كامل في وظيفة الاعتناء بي. ولم أشأ أن أضيف إلى ديونهما المزيد.

أبلغت أمي أنني أريد الاتصال بأغسطس لأخرجها من الغرفة، لأنني لم أستطع التعامل مع تعابير وجهها التي تقول: لا أستطيع تحقيق أحلام ابنتي.

وبأسلوب أغسطس واترز قرأت له الرسالة من دون أن أقول: مرحباً.

قال: «واو».

«أعلم، أليس كذلك؟ كيف سأتدبّر الذهاب إلى أمستردام؟».

«ألديك أمنية؟». سأل مشيراً إلى هذه المنظمة، «مؤسسة الجنية» (Genie Foundation)، التي تأخذ على عاتقها منح الأولاد المرضى أمنية واحدة.

«لا»، قلت. «لقد طلبت الأمنية قبل المعجزة».

«ماذا طلبت؟».

تنهّدت بصوت مرتفع، وقلت: «كنت في الثالثة عشرة».

«لا تقولي لي ديزني»، قال.

ولم أقل شيئاً.

«لم تذهبي إلى عالم ديزني».

لم أقل شيئاً.

صاح: «هازل غريس! لم تطلبي أمنيتك الوحيدة وأنت تحتضرين للذهاب مع أهلك إلى عالم ديزني».

وتمتمتُ: «وأيضاً إلى مركز إيبكوت».

«آه، يا إلهي»، قال أغسطس. «لا أستطيع أن أصدّق بأنني أهيم بفتاة تتمنى هذه الأمنيات المبتذلة».

كرّرت القول: «كنت في الثالثة عشرة»، مع أنني أخذت بالتأكيد أفكّر فقط في كلمة أهيم، أهيم، أهيم، شعرت بالإطراء لكنني غيّرت الموضوع على الفور. «ألا يفترض بك أن تكون في المدرسة؟».

«تغيّبت لملازمة إسحق، لكنه نائم ولذا أنا في الردهة أدرس الرياضيات».

سألتُ: «كيف حاله؟».

لا أستطيع أن أقول إنه غير جاهز لمواجهة جسامة إعاقته أو إن ما يشغل اهتمامه أكبر من أي شيء آخر هو تخلّي مونيكا عنه لكنه لن يتحدث عن أي شيء آخر.

«نعم»، قلت. «كم سيبقى في المستشفى؟».

«بضعة أيام. ثم يتوجّه فترة من الوقت إلى مركز لإعادة التأهيل. لكن عليه أن يبيت في بيته، على ما أعتقد».

قلت: «هذا سيئ».

«ها هي أمه. يجب أن أذهب».

«حسناً»، قلتُ.

أجاب: «حسناً». وأمكنني سماعه وهو يبتسم ابتسامته الملتوية.

ذهبت أنا وأهلي يوم السبت جنوباً إلى سوق المزارعين في برود ريبل. كان الطقس مشمساً، وهذا نادر في إنديانا في شهر نيسان/أبريل، وقد ارتدى جميع من في السوق ثياباً ذات أكمام قصيرة على الرغم من أن الحرارة لا تبرّر ذلك تماماً. ونحن، أبناء إنديانا، نبالغ في التفاؤل في الصيف. جلست وأمي إحدانا إلى جانب الأخرى، على مقعد قبالة صانع صابون الماعز، وهو رجل في بدلة العمل اضطر إلى أن يشرح لكل شخص يمر في المكان أن الماعز له، وأن صابون الماعز ليس كرائحة الماعز.

رنَ هاتفي. «من المتصل؟»، سألتني أمي قبل أن أتمكّن حتى من التحقّق.

قلت: «لا أدري»، مع أنه غاس.

سألني: «هل أنت في منزلك الآن؟».

قلت: «هممم، لا».

«ذلك كان سؤالاً خادعاً. وقد عرفتُ الجواب لأنني حالياً عند منزلك».

«أوه. حسناً. نحن في طريقنا».

«رائع. أراك قريباً».

جلس أغسطس واترز على الدرجة الأمامية ونحن ندخل إلى الممر، وقد أمسك بباقة من الخزامى البرتقالية الفاقعة اللون التي بدأت في التفتّح، وارتدى تحت سترته قميصاً صوفياً لفريق إنديانا بيسرز، وهو اختيار للثياب خارج تماماً عن المألوف على الرغم من أنه بدا بها جميلاً دفع جسده المنحني واقفاً، قدّم لي الخزامى وسأل «هل تريدين الذهاب في نزهة؟» أومأت برأسي موافقة وأنا آخذ الزهور.

سار أبي من ورائي وصافح غاس.

سأله: «أهذا قميص صوف ريك سميتس؟».

«بالتأكيد».

«يا إلهي، أحببتُ ذلك الشخص»، قال أبي وغرقا على الفور في حديث عن كرة السلة لم أستطع (ولم أرد) المشاركة فيه، وأخذت بالتالي أزهار الخزامى إلى الداخل.

«أتريدينني أن أضعها في مزهريّة؟» سألتني أمي وأنا أدخل، وقد علت وجهها ابتسامة عريضة.

قلت لها: «لا، لا بأس». ولو أنني وضعتها في مزهريّة في غرفة الجلوس فستصبح أزهار الجميع، وأردتها أن تكون أزهاري.

ذهبت إلى غرفتي لكنني لم أبدّل ملابسي. سرّحت شعري ونظفت أسناني ووضعت بعضاً من بريق الشفاه ورششت أقل ما يمكن من العطر. وواصلت النظر إلى الأزهار. فهي برتقالية بشكل حادّ، وهي من الحدة بحيث تكاد تفقد جمالها. لم أمتلك مزهريّة أو غيرها، فسحبت

فرشاة أسناني من حاملة الفراشي التي ملأتها إلى نصفها بالماء ووضعت الأزهار مكانها في الحمام.

حين عاودت الدخول إلى الغرفة، سمعت أصوات أناس يتحدثون، فجلست برهةً على حافة سريري واستمعت عبر باب غرفة نومي الأجوف:

أبي: «إذاً التقيت هازل في مجموعة الدعم».

أغسطس: «نعم، سيدي. لديك منزل رائع. أحب العمل الفني الذي حققته».

أمي: «أشكرك، يا أغسطس. أنت من مرضى السرطان السرطان الذين لا يزالون على قيد الحياة، اذاً؟».

أغسطس: «أنا كذلك. لم أبتر هذه الرفيقة لمجرّد اللذة الصرف على الرغم من أن ذلك يشكل استراتيجية ممتازة لفقدان الوزن. فالسيقان ثقيلة الوزن!».

أبي: «وكيف صحتك الآن؟».

أغسطس: «لا دليل على وجود السرطان منذ أربعة عشر شهراً».

أمي: «ذلك رائع. خيارات العلاج هذه الأيام مهمّة فعلاً».

أغسطس: «أعرف. أنا محظوظ».

أبي: «يجب أن تدرك، يا أغسطس، أن هازل لا تزال مريضة وستبقى كذلك بقية حياتها. هي تريد البقاء معك، لكن رئتيها...

وظهرتُ عند هذا الحدّ، الأمر الذي أسكته.

«إذاً، إلى أين أنتما ذاهبان؟»، سألتْ أمي. وقف أغسطس وانحنى صوبها وأجاب هامساً ثم وضع إصبعه على شفتيه. هس، إنه سرّ».

ابتسمت أمي وسألتني: «هل هاتفك معك؟»، فرفعته لأدلّ على وجوده معي، وأملتُ عربة الأكسجين على عجلتيها الأماميتين وشرعتُ في السير. أسرع أغسطس صوبي وقدّم لي ذراعه فأخذتها وقد التفت أصابعي حول عضلتيها.

إلا أنه، ولسوء الحظ، أصرّ على القيادة لتبقى المفاجأة مفاجأة. قلت ونحن نسير مرتاعين صوب وجهتنا: «كدت تسحر والدتي تماماً».

«نعم، ووالدك من أنصار سميتس، وهذا أمر مساعد. أتعتقدين أنهما أحباني؟».

«فعلاً، بالتأكيد. ومع ذلك، من يهتم؟ إنهما أهل وحسب».

«بل هما أهلك»، قال وهو يسترق النظر صوبي. «ثم إنني أُحبُّ أن أُحَبّ. هل هذا جنون؟».

«الحقيقة أنه ليس عليك أن تهرع لتمسك بالأبواب وتفتحها أو أن تخنقني بالإطراءات لكي أحبك». وضغط بعنف على المكابح فطرت إلى الأمام بقوة شديدة شعرت معها بأن تنفسي غريب وضيّق. فكّرت في التصوير المقطعي بالإصدار النيوتروني. لا تقلقي. لا فائدة من القلق. وشعرت مع ذلك بالقلق.

انطلقت بنا السيارة هادرة ونحن نبتعد عن إشارة التوقف قبل أن نستدير يساراً إلى الغراند فيو (المنظر العظيم). (أعتقد أن المنظر يطل على ملعب الغولف، لكن ليس فيه شيء عظيم). الشيء الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه في هذا الاتجاه هو المقبرة. مدّ أغسطس يده إلى اللوحة الوسطى وفتح علبة سجائر ملآنة وسحب واحدة منها.

سألته: «هل تعمد إلى رميها؟».

أجاب: «واحدة من مزايا عدم التدخين الكثيرة هي أن علب السجائر تحتفظين بها إلى الأبد. فهذه موجودة معي منذ نحو عام. وقد انقصف بعض منها قريباً من الفلاتر، لكنني أعتقد أن هذه العلبة ستبقى معي حتى عيد ميلادي الثامن عشر». أمسك بالفلتر بين أصابعه ثم وضعه في فمه. «حسناً إذاً»، قال. «حسناً، سمّي بعض الأمور التي لا ترينها أبداً في إنديانا بوليس».

قلت: «هممم. بالغون نحيلو البنية».

ضحك. «جيّد. استمرّي».

«هممم، شواطئ. مطاعم تمتلكها العائلات. معالم طبيعية».

«كلها أمثلة ممتازة على الأمور التي نفتقر إليها. وهناك أيضاً الثقافة».

«نعم، نحن مقصّرون في الثقافة»، قلت، وقد أدركت أخيراً الوجهة التي يأخذني إليها. «أنحن ذاهبان إلى المتحف؟».

«إذا جاز التعبير».

«أوه، هل إننا ذاهبان إلى ذلك المتنزّه أو إلى ما يشبهه؟».

بدا غاس منقبضاً نوعاً ما. «نعم نحن ذاهبان إلى ذلك المتنزّه أو ما يشبهه». قال. «لقد عرفت ما أقصد، أليس كذلك؟».

«إممم، ماذا عرفت؟».

«لا شيء».

يقع ذلك المتنزّه وراء المتحف حيث صنع الفنانون منحوتات كبيرة.

سمعت به لكنني لم أزره قط. اجتزنا المتحف وركنّا السيارة بالقرب من ملعب كرة السلة هذا، المليء بالقناطر الفولاذية الضخمة الزرقاء والحمراء التي تحاكي بشكلها مسار الكرة المرتدّة.

هبطنا في مكان يمكن أن يُنظر إليه في إنديانا بوليس على أنه تلّة وتوجّهنا إلى هذه الفسحة التي يتسلق فيها الأولاد المنحوتة الضخمة لهيكل عظمي فائق الحجم. وبلغ طول كل واحدة من العظام مستوى الخصر أما عظمة الفخذ فأطول مني. بدت شبيهة بهيكل عظمي رَسَمَهُ طفل ونتأ عالياً من الأرض.

آلمتني كتفي. خشيت أن يكون السرطان قد انتشر من رئتي. تخيّلت الورم وقد انتقل إلى عظامي أنا، يحفر ثقوباً في هيكلي العظمي، وانقليساً زلقاً ذا نوايا غادرة. وقال أغسطس «عظام مصنوعة بطريقة خارجة عن المألوف من إبداع جوب فان ليشوت».

«يبدو الاسم هولندياً».

«هو كذلك»، قال غاس. «وكذلك ريك سميتس. وكذلك الخزامى». توقف غاس في وسط الفسحة، والعظام في مواجهتنا تماماً، وأنزل حقيبة ظهره عن كتفه الأولى، ثم عن كتفه الثانية فتح السحاب جاعلاً من الحقيبة حراماً برتقالياً وأخرج ما يقرب من نصف لتر من عصير البرتقال وبعض السندويشات المغلّفة بالنايلون وقد أزيل ما يَبِسَ منها.

«ما قصة كل هذا البرتقالي؟». طرحت هذا السؤال وأنا عازمة على عدم الانقياد وراء أفكاري التي تصوّر لي أن ذلك كله سيؤدي بي إلى السفر إلى أمستردام.

«إنه بالطبع اللون الوطني لهولندا. ألا تتذكّرين وليام أمير أورانج وغيره؟».

«لم يرد في اختبار التطور التعليمي العام». وابتسمت في محاولة مني لاحتواء إثارتي.

سألني: «أتريدين ساندويشاً؟».

قلت: «دعني أخمّن».

«جبنة هولندية، وطماطم. لكن الطماطم من المكسيك. آسف».

«أنت دوماً مخيّب للأمل، يا أغسطس. ألم تتمكّن على الأقل من الحصول على طماطم برتقالية؟».

ضحك، وأكلنا ساندويشاتنا بصمت ونحن نراقب الأولاد يلعبون على المنحوتة. لم يكن بإمكاني أن أسأله عن الأمر، فجلست في المكان والجو الهولندي يحيط بي من كل جانب شاعرة بالارتباك والأمل.

في البعيد، حوّلت مجموعة من الأولاد، المتشربين أشعة الشمس النقية النادرة والثمينة في مدينتنا، الهيكل العظمي إلى ساحة للعب، وهم يقفزون جيئة وذهاباً بين العظام الاصطناعية.

قال أغسطس: «هناك أمران أحبهما في هذه المنحوتة». وقد أمسك السيجارة غير المشتعلة بين أصابعه ينفضها كما لو أنه يريد التخلص من الرماد، ثم أعادها إلى فمه. أولاً، إن العظام هي من التباعد بحيث إنك، لو كنت طفلة، لما استطعت مقاومة التّوق إلى القفز بينها، كأنْ تقفزي، مدفوعةً بهذا التوق، من القفص الصّدري إلى الجمجمة. مما يعني، ثانياً أن المنحوتة تدفع الأولاد بالجوهر، إلى اللعب على العظام. وفي هذا ايحاءات رمزية لا نهاية لها. يا هازل غريس.

«أنتَ تهوى الرموز»، قلت، أملاً مني في إعادة تحويل الحديث صوب الرموز الكثيرة لهولندا في نزهتنا.

«أنتِ محقة في ذلك. وربما تسألين نفسك لماذا تأكلين ساندويشاً من الجبنة الرديئة وتشربين عصير الليمون، ولماذا أرتدي قميصاً من الصوف لهولندي مارس الرياضة التي صرت أكرهها».

قلت: «خطر لي ذلك».

«هازل غريس، أنت، على غرار الكثيرين من الأولاد قبلك ـ وأقول هذا بمودة كبيرة ـ قد استعجلت في تحقيق أمنيتك، من دون اهتمام كبير بالعواقب. حدّق الموت إلى وجهك. وقادك خوفك منه الى اختيار أول أمنية تخطر ببالك.. وككثيرين غيرك، اخترت الأمنية التقليدية وهي الذهاب إلى مدينة الملاهي للتمتع بمسراتها الباهتة والزائفة.

«أمضيت في الواقع وقتاً رائعاً في تلك الرحلة. قابلت غوفي ومين...

قاطعني أغسطس: «أنا في وسط مناجاة للنفس! كتبت هذا وحفظته عن ظهر قلب، وإذا قاطعتني فسأفسد الأمر كلّياً. استمتعي بتناول ساندويشك وبالاستماع». (الساندويش جاف لا يؤكل، لكنني مع ذلك ابتسمت وتناولت قضمة). «حسناً، أين كنت؟».

«المسرات الزائفة».

أعاد السيجارة إلى علبتها. «صحيح، الملذات الباهتة والزائفة التي تؤثر عن مدينة الملاهي. لكن دعيني أسلّم بأن الأبطال الحقيقيين

لمصنع الأمنيات هم الشبان والشابات الذين ينتظرون، كما أن فلاديمير وأستراغون انتظرا غودو وكما تنتظر الفتاة المسيحية الصالحة الزواج. ينتظر هؤلاء الأبطال الشبان بصبر ومن دون شكوى أن تتحقق أمنيتهم الوحيدة الحقيقية. وهي، بالطبع، ربما لن تتحقق أبداً، لكن يمكنهم على الأقل أن يرقدوا مطمئنين في قبورهم، مدركين أنهم قاموا بدورهم الصغير في الحفاظ على سلامة الأمنية بما هي فكرة.

«لكنها، أيضاً، قد تتحقق: ربما تدركين أن أمنيتك الوحيدة الحقيقية هي في زيارة بيتر فان هوتن اللامع في منفاه الأمستردامي، وتسعدين فعلاً لأنك ادّخرت أمنيتك».

توقّف أغسطس عن الكلام ما يكفي من الوقت لأدرك أن مناجاة النفس انتهت. قلتُ: «لكنني لم أدّخر أمنيتي».

«آه»، قال. ثم، وبعد توقّف شعرت بأنه تمرّن عليه، أضاف: «لكنني ادّخرت أمنيتي».

«حقا؟». فوجئت بأن أغسطس يحقّ له التمني، بما أنه ما زال في مرحلة تحصيله المدرسي ومرضه في حال همود منذ سنة. على المرء أن يكون مريضاً جداً لتمنحه الجنيات أمنية.

قال شارحاً: «حصلت عليها في مقابل الساق». أشرق وجهه بكل ذلك النور؛ اضطر إلى أن ينظر إليّ نظرة شزراء ما جعل أنفه يتغضّن بشكل رائع. «وأنا، الآن، لن أعطيك أمنيتي أو أي شيء من هذا القبيل. لكنني مهتم أيضاً بلقاء بيتر فان هوتن، ولا معنى للقائي معه من دون الفتاة التي عرّفتني بكتابه».

«لا معنى له مطلقاً»، قلت.

«وهكذا تحدّثت إلى «الجنيات» وهن متّفقات معي كليّاً. قلنَ إن أمستردام رائعة في بداية أيار/مايو. واقترحن أن نغادر في الثالث من أيار/مايو ونعود في السابع منه».

«أغسطس، حقّاً؟».

مد يده ولمس خدّي واعتقدت لحظة أنه قد يقبّلني. توتّر جسمي وأعتقدُ أنه رأى ذلك لأنه سحب يده.

«أغسطس»، قلت. «حقاً، ليس عليك القيام بهذا».

«بالتأكيد يتوجّب عليّ»، قال. «فقد وجدت أمنيتي».

قلت له: «يا إلهي، أنت الأفضل».

أجاب: «أراهن على أنك تقولين ذلك لكل الفتية الذين يموّلون رحلاتك خارج البلاد».

✱ الفصل السادس

عدت إلى المنزل لأجد أمي تطوي غسيلي وهي تشاهد برنامجاً تلفزيونياً يُدعى «ذي فيو» (The View) (أي المنظر). أخبرتها أن سبب وجود الخزامى والفنان الهولندي وكل شيء هو أن أغسطس يستخدم أمنيته لأخذي إلى أمستردام. «ذلك كثير جداً»، قالت وهي تهزّ برأسها: «لا نستطيع قبول ذلك من شخص غريب».

«ليس بغريب. فهو ثاني أفضل صديق لي».

«بعد كيتلين؟».

«بعدك»، قلت. وهذا صحيح. نني قلته في الغالب لأنني أردت الذهاب إلى أمستردام.

وقالت بعد برهة: «سأسأل الدكتورة ماريا».

✱✱✱

قالت الدكتورة ماريا إنني لا أستطيع الذهاب إلى أمستردام من دون أن يرافقني شخص بالغ على معرفة وثيقة لحالتي، ما يعني بشكل أو بآخر،

أمي أو الدكتورة ماريا نفسها. (تصوّر والدي سرطاني على طريقتي: بالشكل الغامض والناقص الذي يتصوّر فيه الناس الدارات الكهربائية وحركات المد والجزر في المحيط. لكن والدتي تعرف بشأن السرطان التبايني في الغدة الدرقية لدى المراهقين أكثر من معظم المتخصّصين في الأورام).

قلت: «إذاً ستأتين. ستدفع «الجنيات» ثمن رحلتك. فالجنيات يملكن مالا وفيراً».

قالت: «لكن والدك سيفتقدنا. وهذا ليس منصفاً له، كما أنه لا يستطيع أخذ إجازة من العمل».

«أتمزحين؟ ألا تعتقدين أن والدي سيستمتع ببضعة أيام من مشاهدة البرامج التلفزيونية التي لا تتعلق بمن يطمحن إلى أن يصبحن عارضات أزياء، وطلب البيتزا كل مساء مستخدماً المناديل الورقية أطباقاً حتى لا يجلي الصحون؟».

ضحكت أمي وتحمّست وبدأت تطبع المهمات على هاتفها: عليها الاتصال بأهل غاس، والتحدث مع «الجنيات» عن حاجاتي الطبية وهل قمن بحجز الفندق؟ وما هو أفضل دليل؟ وأنه علينا القيام ببحثنا الخاص إذا كان سفرنا سيستغرق ثلاثة أيام فقط، وسوى ذلك. أما أنا فأُصبت بنوع من وجع الرأس وتناولت حبّتي «أدفيل» وقررت أخذ قيلولة.

لكن انتهى بي الأمر ممددةً على السرير ،أراجع النزهة كلّها مع أغسطس. لم أستطع الكفّ عن التفكير في تلك اللحظة الصغيرة التي توتّرتُ فيها عندما لامسني. إلا أن الحميمية الرقيقة بدت في غير محلّها

بطريقة أو بأخرى. وما دفعني إلى هذا التفكير هو أن الوضع كله كان معدّاً سلفاً: لا شك في أن أغسطس تصرّف بشكل رائع، لكنه بالغ في كلّ ما يتعلق بالنزهة، وصولاً إلى الساندويشات التي حمّلها دلالات رمزية، غير أن طعمها كان كريهاً، ومناجاة النفس التي حفظها عن ظهر قلب ولم يفسح مجالاً لتبادل الأحاديث. بدا المشهد موحياً بالرومانسية، ولكنه ليس كذلك بالفعل.

إلا أن الحقيقة هي أنني لم أرد قطّ أن يقبّلني، ليس بالشكل الذي تتوقعون أن تتم فيه مثل هذه الأمور. أقصد أنه كان رائعاً وكنت منجذبة إليه.. وفكرت فيه «بهذا الشكل» ـ على حدّ التعبير المأخوذ من المصطلحات الرائجة في المدرسة المتوسطة.. ولكن، أن يلمسني لمساً حقيقياً، فهذا كلّه خطأ.

ثم وجدت نفسي قلقة من أنه سيتوجب عليّ أن أغازله للذهاب إلى أمستردام، وهذا ليس بالأمر الذي يريد المرء التفكير فيه لأنه (أ) يجب أن لا يتعلّق الأمر حتى بـ «بالسؤال هل إني أريد تقبيله» و(ب) إن تقبيل شخص ما للحصول على سفر مجاني قريب، بشكل خطير، من ممارسة البغاء التام، ويجب أن أعترف، بأنني لم أفكّر قط في أن أول عمل جنسي حقيقي أقوم به سيكون بغائياً، على الرغم من عدم ايهام نفسي، بصفة خاصة بأنني شخص صالح.

إضافة إلى أنه لم يحاول تقبيلي، بل لامس وجنتي وحسب، وهذا ليس حتى بالأمر الجنسي. وهي ليست خطوة تهدف إلى الاستثارة، لكنها بالتأكيد خطوة مدروسة لأن أغسطس لا يتقن الارتجال. فما الذي حاول إذاً إبلاغه؟ ولماذا لم أرد قبوله؟

أدركت، عند حدّ ما، أنني أحلّل اللقاء على طريقة كيتلين، فقرّرت أن أبعث إليها برسالة نصيّة أطلب فيها بعض النصح. واتصلتْ على الفور.

قلت: «لدي مشكلة تتعلق بفتى».

أجابت كيتلين: «رائع». وأخبرتها كل شيء عن الأمر، بما في ذلك لمسة الوجه المربكة، ولم أستثنِ إلا أمستردام واسم أغسطس. وسألتني عندما انتهيت، «أمتأكدة أنتَ من أنه مثير؟».

قلت، «متأكدة جدّاً».

«أهو رياضي؟».

«نعم، تعوّد أن يلعب كرة السلة في نورث سنترال».

«واو. وكيف التقيته؟».

«في مجموعة الدعم الشنيعة».

«هاه»، قالت كيتلين. «من باب الفضول، هل ساقاه الاثنتان سليمتان؟».

لا، ليس تماماً، قلت وأنا أبتسم. لاعبو كرة السلة ذوو شهرة في إنديانا، ولا حدود لارتباطات كيتلين الاجتماعية على الرغم من أنها لم تقصد «نورث سنترال».

«أغسطس واترز»، قالت.

«هممم، ربما؟».

«آه، يا إلهي. سبق لي أن شاهدته في الحفلات. كم هناك من الأمور التي أود القيام بها مع هذا الفتى. أقصد، ليس الآن بما أنني أعرف أنك مهتمة به. لكن، آه يا إلهي المقدس الحنون، سأمتطي هذا المهر ذا الساق الواحدة في أنحاء الحظيرة كلّها»..

«كيتلين»، قلت.

«آسفة. أتعتقدين أنك يجب أن تضاجعيه وأنت فوقه؟».

«كيتلين»، قلت.

«ما الذي نتحدث عنه. صحيح، أنت وأغسطس واترز، ربما هل أنت مثلية الجنس؟».

«لا أعتقد ذلك؟ أقصد أنني معجبة به بشكل قاطع».

«هل يداه بشعتان؟ للأشخاص الجملاء أحياناً أيدٍ بشعة».

«كلا، يداه من النوع الرائع».

قالت: «هممم».

وقلت: «هممم».

قالت كيتلين بعد برهة: «أتذكرين ديريك؟ لقد قطع علاقته بي في الأسبوع الماضي لأنه قرر أننا غير متوافقين بالعمق. أساساً، وأن الأمر سيؤذيني أكثر في حال أبقينا علاقتنا. ووصف قطع العلاقة بأنه انفصال وقائي. ربما كان لديك هذا الهاجس بوجود عدم توافق بالأساس وأنك تستبقين الوقاية».

قلت: «هممم».

«أنا هنا أفكّر بصوت مرتفع وحسب».

«آسفة بشأن ديريك».

«أوه، لقد تجاوزت الأمر يا عزيزتي. تطلّب الأمر كيساً من حبوب النعناع الرقيقة، التي تبيعها فتيات الكشافة، وأربعين دقيقة، لأنهي علاقتي بذلك الصبي».

ضحكتُ. «شكراً يا كيتلين».

«أتوقع منك التفاصيل الداعرة في حال ارتبطتِ به».

«بالتأكيد»، قلت، وعندها أصدرت كيتلين صوت قبلة عبر الهاتف وقالت: «إلى اللقاء»، وأقفلتِ الخط.

***

أدركتُ، وأنا أستمع إلى كيتلين، أنني لم أكُن أهجس بأن أؤذيه مسبقاً، بل كنت أهجس بذلك لاحقاً.

تناولت حاسوبي المحمول وفتشت عن كارولين ماذرز. الشبه الخارجي لافت: الوجه المستدير المنتفخ نفسه، والأنف والشكل الجسماني العام نفسه تقريباً. لكن عينيها بنيتان داكنتان (عيناي خضراوان) وبشرتها أكثر اسمراراً: إيطالية أو شيء من هذا القبيل.

ترك لها آلاف الناس ـ الآلاف بالمعنى الحرفي للكلمة ـ رسائل تعزية. لفيف لا ينتهي من الناس الذين افتقدوها، وهم كثر جدّاً بحيث استغرقني الأمر ساعة من النقر لتجاوز تدوينات «آسف لموتك»، إلى «أصلّي من أجلك». توفِّيت منذ عام بسرطان في الدماغ. وتمكنت من التنقّل بين بعض صورها التي ظهر أغسطس، في بعضها القديم: يشير بإبهاميه المرفوعين إلى الندبة المتعرّجة عبر جمجمتها الصلعاء؛ وقد شبك يده بيدها في ملعب مستشفى ميموريال، وظهراهما إلى الكاميرا، يتبادلان القبل، فيما كارولين تمسك بالكاميرا بحيث لا يمكن رؤية إلا أنفيهما وأعينهما المغلقة.

صورها الأحدث كلها من فترة سابقة، وهي كانت لا تزال تتمتع بصحتها، وقد نقلها إلى الحاسوب أصدقاؤها بعد موتها: فتاة جميلة، ناهدة وذات ردفين عريضين بشعر طويل مستوٍ أسود حالك مُسْبَل على

وجهها. لم تشبه ذاتي السليمة كثيراً ذاتها السليمة. لكن أمكن لذاتينا المصابتين بالسّرطان أن تكونا شقيقتين. ولا عجب في أنه حدّق إليّ في المرة الأولى التي رآني فيها.

وواصلت النقر على هذه المدوّنة الوحيدة، التي كتبها أحد أصدقائها منذ شهرين، أي بعد تسعة أشهر على وفاتها. جميعنا مشتاقون إليك كثيراً. الأمر لا ينتهي وحسب. يبدو كأن معركتك أصابتنا جميعنا بجروح يا كارولين. أفتقدك. أحبّك.

بعد فترة، أعلنت أمي وأبي أن وقت العشاء قد حان. أطفأت الحاسوب ونهضت، لكنني لم أستطع نزع المدوّنة من ذهني، فهي لسبب من الأسباب، وتّرتني وقطعت شهيتي.

واصلت التفكير في كتفي، التي تؤلمني، وكذلك استمر وجع رأسي، لكن ربما لأنني أخذت أفكر في الفتاة التي توفيت بسرطان الدماغ. بقيتُ أقنع نفسي بتجزئة الأمور، وأن أكون هنا الآن إلى الطاولة المستديرة العريضة التي يمكن أن يجلس حولها ثلاثة أشخاص أو أكثر مع هذا القرنبيط الأخضر غير الناضج و«برغر» الفول الأسود الذي لن يتمكن كل كاتشب العالم من ترطيبه على نحوٍ كافٍ. وقلت لنفسي إن تخيّل النقيلة في نخاعي أو في كتفي لن يكون له تأثير على الواقع غير المنظور الذي يدور في داخلي، وإن مثل هذه الأفكار ليست بالتالي إلا لحظات مهدورة في حياة مكوّنة، تعريفاً من مجموعة محدودة من مثل هذه اللحظات. بل إنني حاولت أن أطلب من نفسي أن أعيش اليوم أفضل حياتي.

لم أستطع، وحتى وقت طويل، أن أفهم لماذا يزعجني إلى هذا

القدر أمر كتبه غريب على الإنترنت لغريبة أخرى (متوفاة) ويجعلني أخشى وجود أمر في دماغي، الذي آلمني فعلاً، على الرغم من أنني عرفت من سنوات الخبرة أن الألم أداة تشخيص فظّة وغير محدّدة.

لم تشهد بابوا غينيا الجديدة في ذلك اليوم هزة أرضية أو ما شابه. فركّز أهلي تركيزاً شديداً عليّ ولم أستطع أن أخفي بالتالي هذا الطوفان المفاجئ من القلق.

سألتني أمي وأنا أتناول الطعام: «هل كل شيء بخير؟».

قلت، «آـ ها». وقضمت البرغر قضمة، وابتلعتها. وحاولت أن أقول شيئاً يقوله شخص عادي لا يغرق دماغه في حالة من الذعر. «هل في البرغر قرنبيط أخضر؟».

«فيه القليل»، قال والدي. «إنه لأمر مثير جدّاً أن تذهبي ربما إلى أمستردام».

«نعم»، قلت. وحاولت ألا أفكّر في كلمة «مجروحة»، وهي بالطبع إحدى طرق التفكير في الأمر.

«هازل»، قالت أمي. «أين أنت الآن بالذات؟».

قلت: «أفكّر وحسب، على ما أعتقد».

«إنها متيّمة»، قال والدي وهو يبتسم.

«لست أرنباً، ولست مغرمة بغاس واترز أو غيره»، أجبت بطريقة دفاعية للغاية. أنا مجروحة. كما لو أن كارولين ماذرز قنبلة غرزت عند انفجارها شظية في كل من كان حولها.

سألني أبي إذا كان لديّ أي عمل للمدرسة. وقلت له: «لديّ فرض

في الجبر المتقدم جدا. وهو على درجة من التقدم لا تسمح لي بشرحه لشخص عادي».

«وكيف حال صديقك إسحق؟».

«إنه أعمى»، قلت.

«تتصرفين اليوم كثيراً تصرّف المراهقين»، قالت أمي وقد بدا أن الأمر ضايقها.

«أليس ذلك ما أردته يا أمي؟ أن أتصرف تصرّف المراهقين؟».

«حسناً، ليس بالضرورة هذا النوع من المراهقة، لكنني ووالدك متحمسان فعلاً لأنك أصبحت امرأة شابة تقيمين علاقات الصداقة وتواعدين الغير».

قلت: «لست أخرج في مواعيد. لا أريد أن أواعد أحداً. فهي فكرة رهيبة وهدر ضخم للوقت و...

«حبيبتي»، قالت أمي. «ما الأمر؟».

«أنا أشبه. أشبه. أنا أشبه بقنبلة يدوية يا أمي. أنا قنبلة يدوية ستنفجر في لحظة ما وأود أن أقلّل من حجم الإصابات، مفهوم؟».

أدار والدي قليلاً رأسه جانباً فكا ـبه جرواً تعرّض للتوبيخ.

كرّرت القول: «أنا قنبلة يدوية. أريد فقط أن أبقى بعيدة عن الناس وأقرأ الكتب وأفكّر وأكون معكما لأنه ليس في وسعي القيام بشيء حيال أذيتكما؛ أنتما ضالعان كثيراً في المسألة، أرجوكما إذاً أن تدعاني أفعل ذلك، مفهوم؟ لست مكتئبة. ولا أحتاج إلى مزيد من الخروج. ولا يمكنني أن أكون مراهقة عادية، لأنني قنبلة يدوية».

«هازل»، قال أبي، ثم اختنق صوته. بكى كثيراً.

«سأذهب إلى غرفتي وأقرأ بعض الوقت، أتوافقان؟ أنا بخير. حقاً بخير. أريد فقط أن أذهب وأقرأ بعض الوقت».

شرعت أحاول قراءة هذه الرواية التي كُلِّفت بها، لكننا ويا للمأساة نعيش في منزل جدرانه رقيقة بحيث كان بإمكاني سماع الكثير من المحادثة الهامسة التي أعقبت ذلك. مثل قول أبي: «الأمر يقتلني»، وقول أمي: «هذا بالضبط ما ليس ضرورياً أن تسمعه»، فيقول أبي: «أنا آسف، ولكن...» وترد أمي: «ألست ممتناً؟» ويقول: «يا إلهي، أنا ممتن فعلاً». حاولتُ الانكباب على الرواية لكنني لم أتمكّن من التوقف عن سماعهما.

وأنا أستمع إلى موسيقى فرقة أغسطس المفضلة، ذي هكتيك غلو، عدْتُ إلى صفحات تكريم كارولين ماذرز لأقرأ عن مدى قتالها البطولي وكم افتقدها من عرفها، وكيف أنها في مكان أفضل، وكيف ستحيا إلى الأبد في ذاكرتهم، وكيف أن جميع من عرفوها أحزنهم رحيلها.

ربما توقعت من نفسي أن أكره كارولين ماذرز لأنها كانت مع أغسطس، لكنني لم أفعل. لم أتمكن من رؤيتها بوضوح كبير وسط كل هذه التكريمات، لكن، لم يبدُ أن هناك الكثير لأكرهه. بدت، في الغالب مثلي، شخصاً يحترف المرض، ما جعلني أخشى أنني، عندما أموت لن يكون لديهم الكثير لقوله عني سوى أنني حاربت ببطولة، كما لو أن الأمر الوحيد الذي فعلته هو إصابتي بالسرطان.

على أي حال، شرعت في النهاية أقرأ الملاحظات الصغيرة

المتعلقة بكارولين ماذرز، وقد كتب أهلها معظمها، لأنني أعتقد أن سرطان دماغها هو من النوع الذي يقضي على هويتك قبل أن يقضي على حياتك.

وهكذا جاءت الملاحظات كلها على غرار، تستمر كارولين في الإصابة باضطرابات سلوكية. وهي تكافح كثيراً عجزها عن الكلام وهي غاضبة ومحبطة (وهذا بالطبع يحبطنا أيضاً، لكن سبل تعاملنا مع غضبنا تلقى قبولاً اجتماعياً أكبر مما تلقاه هي). مضى غاس يطلق على كارولين تسمية العملاق السّاحق التي تردّد صداها عند الأطباء. ليس في الأمر أي شيء سهل بالنسبة إلى أي واحد منا، لكن المرء لا يسعه إلا أن يضحك عندما يتاح له ذلك. نأمل في العودة إلى المنزل يوم الخميس. سنحيطكم علماً بذلك

وغني عن القول أنها لم تعد إلى المنزل يوم الخميس.

اذا، توتّرتُ بالطبع، عندما لامسني. فأن أكون معه يعني التسبّب بإيذائه حتماً. وذلك ما شعرت به عندما حاول مد يده إليّ شعرت بأنني كنت أعامله بعنف ذلك لأنني كنت كذلك.

قررت أن أبعث إليه برسالة نصّيّة. أردت تحاشي حوارٍ كامل حول الأمر.

مرحى، أنا بخير تماماً، لا أدري إذا كنت ستستوعب هذا، لكنني لا أستطيع أن أقبّلك أو ما إلى ذلك. ليس لأنك تريد ذلك بالضرورة، بل لأنني لا أستطيع.

جلّ ما أراه عندما أحاول النظر إليك بهذا الشكل هو ما الذي سأجعلك تمر به. ربما ليس لذلك أي معنى عندك.

عذراً على أي حال.

وأجاب بعد ذلك بدقائق قليلة.

حسناً.

كتبت أرد:

حسناً.

أجاب:

آه، يا إلهي كفّي عن مغازلتي.

واكتفيت بالقول:

حسناً.

رنّ هاتفي بعد ذلك بلحظات

كنت أمزح، يا هازل غريس. أفهم الأمر. (لكن، كلانا يعرف أن كلمة «حسناً» كلمة غزلية جداً. ولأقلها: إنها تنفجر شهوة.

أغراني كثيراً بأن أجيب «حسناً» من جديد، لكنني تصورته في مأتمي وهو ما ساعدني على الكتابة بشكل لائق.

آسفة.

***

حاولت النوم، وأنا لا أزال أضع سمّاعتي الأذن، لكن، بعد فترة، جاءت أمي وأبي وأمسكت أمي بـ«بْلُوي» من الرف واحتضنته، وجلس والدي على كرسي مكتبي وقال من دون بكاء، «لستِ قنبلة يدوية بالنسبة إلينا. والتفكير بأنك تحتضرين يصيبنا بالحزن، يا هازل، لكنك

لست قنبلة بدوية. أنت رائعة. لا يمكنك معرفة ذلك. يا حبيبتي لأنك لم ترزقي أبداً طفلة تصبح قارئة شابّة لامعة ذات اهتمام جانبي بالبرامج التلفزيونية الجيدة. لكن الفرح الذي تجلبينه لنا أكبر بكثير من الحزن الذي نشعر به حيال مرضك».

«حسناً»، قلت.

«حقاً»، قال أبي. «لن أتفوّه لك بهراء في هذا الشأن. ولو أنك تسببين المشاكل بأكثر مما تساوين لرميناك في الشارع».

«لسنا عاطفيين»، قالت أمي بوجه جامد». ولتركناك عند أبواب ميتم مع ملاحظة مشبّكة على بيجامتك».

ضحكتُ.

«ليس عليك الذهاب إلى مجموعة الدعم»، أضافت أمي. «ليس عليك فعل أي شيء، باستثناء الذهاب إلى المدرسة».

قلت: «أعتقد أن بإمكان «بلوي» أن ينام الليلة على الرف. دعيني أذكّرك بأن عمري تجاوز السادسة عشرة بنصف سنة».

«أبقيه معك الليلة».

فقلت: «.مي».

قالت: «إنه يشعر بالوحدة».

قلت. «آه، يا إلهي، أمي». لكنني أخذت «بلوي» الغبي واحتضنته وأنا أغفو.

كنت في الواقع لا أزال ألف «بلوي» بذراعي عندما استيقظت قيد الرابعة فجراً وأنا أشعر بألم مروّع ينخرني في المكان الذي لا يمكن بلوغه في وسط رأسي.

الفصل السابع

صرخت لأنبّه والديّ اللذين اندفعا إلى الغرفة، لكن لم يسعهما القيام بأي شيء للتخفيف من الألم الهائل المتفجّر داخل دماغي، وهو سلسلة لا نهاية لها من المفرقعات في جمجمتي اعتقدت معها أنني راحلة بالتأكيد. قلت لنفسي ـ كما سبق أن قلت لنفسي من قبل ـ إن الجسد ينطفئ ما إن يسوء الألم للغاية وأن الوعي مؤقت والأمر عابر. لكنني، شأني دائماً، لم أرحل بلا وداع. بل تُركت على الشاطئ، والأمواج تتكسّر عليّ، وأنا عاجزة عن الغرق.

قاد والدي السيارة وهو يتحدث عبر الهاتف مع المستشفى، فيما تمدّدتُ في المقعد الخلفي ورأسي في حضن أمي. ليس هناك ما يمكن فعله: فلقد فاقم الصراخ الألم. والواقع هو أن كل المحفزات تزيد الوضع سوءاً.

كان الحل الوحيد محاولة تفكيك العالم، وجعله أسود وصامتاً وغير مأهول، والرجوع به إلى اللحظة السابقة للانفجار الكبير، إلى البدء،

الذي كان الكلمة. والعيش وحدي مع الكلمة في ذلك المجال الفارغ غير المخلوق.

يتحدث الناس عن شجاعة مرضى السرطان، وأنا لا أنفي تلك الشجاعة. فقد تعرّضت، على مدى سنوات، للوخز والطعن والتسميم، وما زلت أمشي. لكن لا تخطئوا: فأنا، في تلك اللحظة، كنت سأفرح كثيراً بالموت.

استيقظت في غرفة العناية الفائقة. عرفت انني في غرفة العناية، لأنني لم أُوضع في غرفتي الخاصة، ولوجود الكثير من الزمير، ولأنني وحدي: لا يدعون عائلتك تبقى معك أربعاً وعشرين ساعة في اليوم طوال أيام الأسبوع السبعة في غرفة العناية الفائقة للأولاد بسبب خطر العدوى. سمعت صوت نواحٍ في الردهة. توفي ابن أحدهم. وأنا وحدي، فضغطت زر الجرسً الأحمر.

جاءت ممرضة بعد لحظات فقلت: «هاي».

قالت: «مرحباً يا هازل. أنا أليسون، ممرضتك».

قلت: «هاي أليسون، ممرضتي».

حينذاك أخذت أشعر مجدّداً بالتعب الشديد. لكنني استيقظت برهة عندما جاء والداي يبكيان ويقبلان وجهي تكراراً. مددت يدي إليهما وحاولت الشد، وعندما ضغطت شعرت بأن كل شيء فيّ يؤلمني. أبلغاني أنني غير مصابة بتورّم في الدماغ، لكن وجع رأسي ناتج عن النقص في الأكسجين الذي تسببت به رئتاي الغارقتان في السوائل. وقد تم بنجاح سحب لتر ونصف لتر من صدري، ولهذا قد أشعر ببعض

الانزعاج في جانبي حيث هناك أنبوب يخرج من صدري إلى مثانة بلاستيكية امتلأت إلى نصفها بالسائل الذي يشبه، من بين كل شيء في العالم، الجعة العنبرية المفضّلة لدى والدي. وأخبرتني أمي أنني سأعود إلى المنزل، سأعود حقّاً، وأنه يجب تصريف السوائل بين الحين والآخر والعودة إلى آلة ضغط المجرى الهوائي الإيجابي الثنائي المستوى (BiPAP)، تلك الآلة الليلية التي تدفع بالهواء إلى ومن رئتيّ التالفتين. كما قيل لي إنني خضعت لتصوير مقطعي بالإصدار النيوتروني في ليلتي الأولى في المستشفى، والأخبار جيدة: لا نمو في الورم. ما من أورام جديدة. ونتج الألم في كتفي عن النقص في الأكسجين، الألم الناتج عن عمل القلب المضني جداً.

قال والدي «إن الدكتورة ماريّا ذكرت هذا الصباح أنها لا تزال متفائلة». أحببت الدكتورة ماريّا، وهي لا تتفوّه بالحماقات، لذلك سررت بسماع ذلك.

«هذا مجرّد شيء عابر، يا هازل»، قالت أمي. «إنه شيء يمكننا التعايش معه».

أومأت برأسي موافقة، ثم حَملتْهما أليسون، ممرضتي، بتهذيب على الرحيل. سألتني إذا كنت أريد بعض رقاقات الثلج، ووافقتُ بإيماءة من رأسي، فجلست معي على السرير وأطعمتني إياها بالملعقة.

قالت أليسون: «غبتِ إذاً عن الوعي يومين. هممم، ما الذي فاتك أحد المشاهير تعاطى المخدرات. اختلف السياسيون. ارتدت نجمة أخرى شهيرة بيكيني كشف عورة جسدية. ربحت

إحدى الفرق مباراة رياضية وخسر فريق آخر». ابتسمتُ. فأضافت «لا يمكنك الاختفاء هكذا عن الجميع يا هارل، فسيفوتك الكثير».

«هل بإمكاني الحصول على المزيد؟» سألت وأنا أومئ في اتجاه كوب «الستايروفوم» الأبيض في يدها.

«لا يجوز أن أفعل ذلك»، قالت، «لكنني متمرّدة». وأعطتني ملعقة بلاستيكية أخرى من الثلج المجروش. تمتمتُ شكراً. تمجّد اللّه في الممرضات الطيبات. وسألتني، «أتشعرين بالتعب؟» فهززت برأسي. «نامي فترة»، قالت. «سأحاول التدخل ومنحك نحو ساعتين قبل أن يأتي أحد للتحقّق من الأمور الحيوية وما شابه». فكررتُ الشكر. يتفوّه المرء بكثير من الشكر في المستشفى. حاولت الاستقرار في السرير. وقالت: «ألن تسأليني عن صديقك؟».

قلت لها: «ليس لديّ صديق».

قالت: «الحقيقة، أن هناك فتى بالكاد غادر غرفة الانتظار منذ مجيئك إلى هنا».

«لم يرني في حالتي هذه، أليس كذلك؟».

«لا العائلة فقط رأتك».

أومأت برأسي وغرقت في سبات عميق.

استغرقني الأمر ستة أيام للعودة إلى المنزل، ستة أيام طويلة من التحديق إلى بلاط السقف العازل للصوت، ومشاهدة التلفاز، والنوم، والألم، وتمني مرور الوقت بسرعة. لم أشاهد أغسطس أو أي شخص آخر غير أهلي. بات شعري أشبه بعش العصفور؛ ومشيتي المتثاقلة

أشبه بمشية المصاب بالخَرَف. إلا أنني أخذت أشعر في كل يوم بأنني أفضل حالاً: كلما نمت وجدتني أعرف أكثر فأكثر حقيقة ما أنا عليه. النوم يحارب السرطان، هذا ما قاله الطبيب الدائم جيم للمرة الألف وهو يحوم حولي في صباح أحد الأيام محاطاً بشلّة من طلاب الطب.

قلت له: «إذاً أنا آلةُ محاربة السرطان».

«هذا ما أنت عليه يا هازل. استمري في الراحة وآمل أن نعيدك قريباً إلى المنزل».

أخبروني يوم الثلاثاء أنني سأعود إلى منزلي الأربعاء. وفي يوم الأربعاء أزال اثنان من طلاب الطب، الذين يخضعون للحد الأدنى من الإشراف، الأنبوب من صدري، فكنت كمن يتعرض للطعن وهم يسحبونه من صدري. ولم تتم العملية بشكل عام على خير فقرروا أن عليّ البقاء حتى يوم الخميس. أخذت أفكر في أنني موضوع تجربة وجودية لم يتمَ التوصّل إلى أيّ قرار بشأنها. عندما جاءت الدكتورة ماريّا صباح الجمعة وتفقّدت الأمور من حولي دقيقة، أخبرتني بأنني جاهزة للمغادرة.

وهكذا فتحت أمي حقيبتها الكبيرة الحجم لتكشف أنها جلبت معها ثياب عودتي إلى المنزل. جاءت ممرضة وسحبت إبرة المصل. شعرت بأن وثاقي قد حُلّ على الرغم من وجود مستوعب الاكسجين الذي علي أن أنقله أينما ذهبت. توجّهت إلى الحمام واغتسلت للمرة الأولى بعد أسبوع وارتديت ثيابي واستبد بي التعب الشديد لما خرجت بحيث اضطررت إلى التمدّد والتقاط أنفاسي. سألتني أمي: «أتريدين رؤية أغسطس؟».

«أعتقد»، قلت بعد دقيقة. وقفت وسرت بتثاقل إلى أحد الكراسي البلاستيكية المصفوفة بجانب الجدار، ودسست مستوعبي تحت الكرسي. وقد أرهقني ذلك.

جاء أبي بعد دقائق بصحبة أغسطس، وشعر الأخير مشعّث ومنسدل على جبهته. ولما رآني شعّ وجهه بابتسامة أغسطس واترز البلهاء، وما كان علي إلا ردّ الابتسامة بمثلها. جلس على كرسي الاستراحة الزرقاء ذات الجلد الاصطناعي بالقرب من كرسيّي. انحنى صوبي وهو عاجز على ما يبدو عن كبت الابتسامة.

تركتنا أمي وأبي وحدنا فشعرت بالإحراج. عملت جاهدة لملاقاة عينيه على الرغم من أنهما من ذلك النوع الجميل الذي يصعّب عليك النظر إليهما قال: «اشتقت إليكِ».

جاء صوتي أضعف مما أردته. «أشكرك لأنك لم تحاول رؤيتي وأنا أبدو في أفظع حالاتي».

«لا بدّ من القول إن مظهرك لا يزال سيئاً إلى حد كبير».

ضحكتُ. «اشتقت إليكَ أيضاً. أريدك ألّا ترى كل هذا، كما لا يهم، إذ لا يحصل المرء دوماً على ما يبتغيه».

«أصحيح ذلك؟»، سأل. «لطالما اعتقدت أن العالم مصنع لتحقيق الأمنيات».

قلت: «تبيّن أن الأمر ليس على هذا النحو كان جميلا للغاية حاول الإمساك بيدي لكنني هززت رأسي، «لا»، قلت بهدوء. «إذا أردنا أن نبقى معاً فليس من الضروري أن يكون الأمر على هذا النحو».

«حسناً»، قال. «الحقيقة أن لدي أخباراً جيدة وأخباراً سيئة على صعيد تحقيق الأمنيات».

«حسناً؟»، قلت.

«من الواضح أن الخبر السيّئ مفاده أننا لن نتمكن من الذهاب إلى أمستردام إلا بعد أن تتحسّني. لكن الجنيات سيستخدمن سحرهن الشهير عندما تتحسنين بما فيه الكفاية».

«وذلك هو الخبر الجيّد؟».

«لا، الخبر الجيد هو أنه، وفيما أنت نائمة، شاركنا بيتر فان هوتن بمزيد من أفكار دماغه اللامع».

مدّ يده من جديد صوب يدي، لكن ليدس فيها هذه المرة ورقة كتابة مثنية جيداً عند الترويسة التي جاء فيها: بيتر فان هوتن، روائي متقاعد.

لم أقرأها إلا عند بلوغي المنزل، وقد لازمت سريري الضخم والفارغ من دون الانقطاع عن المراقبة الطبية. استغرقني الأمر دهراً لفكّ رموز خط فان هوتن المائل والشائك.

عزيزي السيد واترز،

> تلقيت بريدك الإلكتروني المؤرخ في الرابع عشر من نيسان/ أبريل وتأثّرت تماماً بتعقيد مأساتك الشكسبيرية. فلكل واحد في هذه الرواية عيب قويّ: عيبها هي أنها على هذا القدر من الاعتلال؛ وأنت لأنك على هذا القدر من التحسّن. ولو كانت

هي أفضل أو كنت أنت أكثر اعتلالاً لما غضبت النجوم هذا الغضب الكبير، لكن من طبيعة النجوم أن تغضب. ولم يرتكب شكسبير قط خطأ أكبر من جعله كاسيوس يلاحظ أن «العيب، أيها العزيز بروتوس، ليس في نجومنا، بل في أنفسنا». ويسهل قول هذا عندما تكون نبيلاً رومانياً (أو شكسبير!)، لكن لا نقصَ أو عيب بين نجومنا.

وعلى الرغم من أن موضوعنا يتعلق بقصور العجوز ويل[١]، فإن ما كتبته عن هازل الشابة يذكّرني بسونيتة[٢] باردْ الخامسة والخمسين ومطلعها بالطبع كالآتي، «لن يدوم رخام الأمراء أو نُصُبُهم المذهَبة / أطول من هذه القصيدة القوية؛ / لكنك ستشع في هذا الأمر بنور أكثر سطوعاً / من الحجر المتسخ الذي لطّخه الزمن العاهر». (من خارج الموضوع، ولكن: كم إن الزمن عاهر. فهو يقضي على الجميع). وهذه قصيدة جيدة ولكنها خادعة: نحن نتذكر بالفعل قوافي شكسبير القوية، لكن ما الذي نذكره عن الشخص الذي تحيي ذكراه؟ لا شيء. الشي الوحيد الذي نتأكد منه إلى حد كبير هو أنه ذَكر؛ وكل ما تبقى تخمين. لم يخبرنا شكسبير إلا بالقليل القيّم عن الرجل الذي يدفنه في ناووسه اللغوي. (لاحظ أيضاً أننا عندما نتكلم في الأدب نفعل ذلك بالفعل المضارع. ونحن لسنا على هذه الدرجة من اللطافة عندما نتحدث عن الموتى). ولا يخلّد المرء من فقدهم بالكتابة عنهم. فاللغة تدفن ولا تحيي. (سأبوح لك بأمر ما بوحاً تامّاً:

(١) وليام شكسبير. (المترجم)

(٢) قصيدة من ١٤ بيتاً. (المترجم)

لست أول من أبدى هذه الملاحظة. راجع قصيدة ماكليس «لا رخام الأمراء ولا نُصُبُهُم المذهبة»، التي تحتوي على البيت البطولي «سأقول إنك ستموت ولن يذكرك أحد»).

أنا أستطرد، لكن ما هو ساخر: لا يمكن رؤية الميت إلا بأعين الذاكرة الرهيبة الخالية من الرموش. أما الأحياء، وشكراً للسماء، فيحتفظون بالقدرة على الإدهاش وتخييب الأمل. هازل خاصتك حيّة يا واترز، ولا يجب أن تفرض إرادتك على قرار الشخص الآخر، وبخاصة القرار الذي تم التوصل إليه عن دراسة. فهي ترغب في تجنيبك الألم، ويجب أن تتركها تفعل. قد لا تجد منطق هازل الشابة مقنعاً، لكنني جلت في وادي الدموع هذا أكثر منك. وهي، من حيث أنا موجود، ليست مختلة العقل.

مع محبتي الخالصة،

بيتر فان هوتن

الرسالة كتبها هو فعلاً. رطّبت إصبعي في فمي وضغطت الورقة فبان أثر الحبر قليلاً، وعرفت أنها حقيقية بالفعل.

«ماما»، قلت. لم أصح بصوت مرتفع، وليس عليّ ذلك. فهي دوماً في الانتظار. مدّت رأسها من وراء الباب.

«أأنتِ بخير يا حلوتي؟».

«أيمكننا الاتصال بالدكتورة ماريّا وسؤالها: هل يقتلني السفر خارج البلاد؟».

الفصل الثامن

[ت]ركنا بعد حوالى يومين في اجتماع كبير لفريق أطباء السرطان. [م]ن الحين والآخر تلتقي مجموعة من الأطباء والعاملين الاجتماعيين [و]المعالجين الفيزيائيين حول طاولة كبيرة في قاعة المحاضرات لمناقشة [وض]عي. (ليس وضع أغسطس واترز أو وضع أمستردام، بل وضع السرطان).

ترأست الدكتورة ماريّا الاجتماع. وعانقتني لدى وصولي، لأنها [م]ن النوع المعانِق.

شعرت، على ما أعتقد، أنني أفضل، على نحو خفيف. فالنوم [ط]وال الليل بوجود آلة التنفس جعل رئتيّ تشعران بأنهما شبه طبيعيتين، [ع]لى الرغم من أنني، مرة أخرى، لا أذكر فعلاً وضع الرئة الطبيعي.

وصل الجميع وأطفأوا، بحركة استعراضية أجهزة ندائهم وسواها بحيث ينصرفون بكليتهم إليّ، ثم قالت الدكتورة ماريّا: «الخبر الرائع إذاً هو أن الفالانكسيفور يستمر في السيطرة على نمو ورمك، لكن الواضح أننا لا نزال نشهد تراكماً خطيراً للسوائل. والسؤال الذي يفرض نفسه بالتالي هو كيف سنتصرّف؟».

ثم اكتفت بالنظر إليّ كما لو أنها تنتظر جواباً. قلت: «أشعر لست الشخص الأكثر أهلية في الغرفة للإجابة عن ذلك السؤال».

ابتسمت. «صحيح، إنما كنت أنتظر الدكتور سيمونز.

دكتور سيمونز، هو طبيب سرطان آخر.

«نعرف في الحقيقة من المرضى الآخرين أن معظم الأورام تطو في النهاية طريقة للنمو على الرغم من الفالانكسيفور، ولو كانت هذ الحالة موجودة لشاهدنا نمو الورم في صور السكانر، وهو ما لا نرا وبالتالي ليس هذا ما يهمنا حتى الآن».

«حتى الآن» فكّرت.

نقر الدكتور سيمونز بسبابته على الطاولة. «الفكرة هنا هي احتمال أن الفالانكسيفور يزيد الوذمة (الاستسقاء) سوءاً، لكننا سنواجه مشكله أكثر خطورة إذا أوقفنا استخدامه».

أضافت الدكتورة ماريّا: «نحن لا نفهم حقيقة التأثيرات الطويله الأمد للفالانكسيفور. قلة من الناس استخدمته طوال الفترة التي تستخدمينه أنت فيها».

«إذاً لن تفعلوا شيئاً».

«سنبقى على مسارنا»، قالت الدكتورة ماريّا. «لكننا نحتاج إلى القيام بمزيد لمنع هذه الوذمة من الاستفحال». شعرت بنوع من السقم كما لو أنني على وشك التقيّؤ. وقد كرهت اجتماعات السرطان بشكل عام، إلا أنني كرهت هذا الاجتماع بشكل خاص. «سرطانك ليس

على طريق الزوال، يا هازل. لكننا رأينا أشخاصاً حالتهم مماثلة لحالتك السرطانية يعيشون فترة طويلة. (لم أسأل ممّ يتشكّل الوقت الطويل. سبق أن ارتكبت هذا الخطأ من قبل). أعرف أنك لا تشعرين بهذا كونك خرجت حديثاً من غرفة العناية الفائقة، لكن هذا السائل هو، في الوقت الحاضر، تحت السيطرة».

سألتُ: «ألا يمكن أن أخضع لزرع رئة أو شيء من هذا القبيل؟».

تقلّصت شفتا الدكتورة ماريّا إلى داخل فمها «لا يمكن لسوء الحظ، اعتبارك مرشّحة قوية لعملية الزرع». فهمتُ أن لا فائدة في إهدار رئتين جيدتين على حالة ميؤوس منها. أومأت برأسي محاولة ألا أبدو كمن جرحه هذا التعليق. شرع والدي في البكاء، فلم أنظر إلى ناحيته. ولم يتفوه أحد آخر بأي شيء فترة طويلة، وبالتالي بات بكاؤه الصوت الوحيد في الغرفة.

كرهت أذيّته. وأنا في معظم الأحيان أنسى ذلك. إلا أن الحقيقة التي لا ترحم هي أن والديّ يفرحان بوجودي بينهما، غير أنني مصدر عذابهما من ألفه إلى يائه.

قبل المعجزة تماماً، وفيما أنا في غرفة العناية الفائقة وكأنني على شفير الموت، في حين أن أمي تخبرني بأنْ لا بأس في أن أطلق سراح نفسي ـ وقد حاولت إطلاق سراحها لكن رئتيّ استمرتا في طلب الهواء ـ تنهّدت والدتي وأسرّت إلى والدي بكلام تمنيت لو أنني لم أسمعه، وآمل في ألا تكتشف أبداً أنني سمعته. قالت: «لن أعود أمّاً بعد الآن». اعتصر ذلك معدتي بشكل سيّئ جداً.

لم أستطع التوقف عن التفكير في ذلك طوال اجتماع فريق السرطان. لم أتمكن من انتزاع ما سمعته من رأسي، وكيف بدت وهي تقول ذلك، كما لو أنها لن تكون بعد ذلك بخير أبداً، وربما كان الأمر كذلك.

على أي حال قررنا في النهاية إبقاء الأمور على حالها مع مزيد من استخراج السوائل. وسألتُ في النهاية: «إذاً، يمكنني السفر إلى أمستردام؟». ضحك الدكتور سيمونز، لكن الدكتورة ماريّا قالت، «ولمَ لا؟»، قال سيمونز بتشكّك، «لمَ لا؟». وأجابت الدكتورة ماريّا: «نعم، لا أرى المانع من ذلك. فالطائرات في النهاية مجهّزة بالأكسجين». سأل الدكتور سيمونز: «وهل سيشحنون آلة ضغط المجرى الهوائي؟» فقالت ماريا: «نعم، أو يعملون على أن تكون في انتظارها».

«أتريدين وضع مريضة تمثل حالتها واحدة من أبرز الحالات الواعدة بالخير للمرضى الباقين على قيد الحياة بفضل الفالانكسيفور، على متن رحلة تبعد ليس أقلّ من ثماني ساعات عن الأطباء الوحيدين الذين هم على دراية وثيقة بحالتها؟ إنها وصفة كارثية».

هزّت الدكتورة ماريّا كتفيها، واعترفت: «سيزيد ذلك من بعض المخاطر». ثم استدارت نحوي وقالت: «لكنها حياتك».

لكنها بالضبط ليست كذلك. اتفق والداي في طريق العودة بالسيارة إلى المنزل على أنني لن أذهب إلى أمستردام ما لم يحصل اتفاق طبي على أن الرحلة ستكون آمنة.

***

اتصل أغسطس تلك الليلة، بعد العشاء. كنت قد أصبحت في السرير ـ وقت ما بعد العشاء أصبح في الوقت الحاضر، موعد إيوائي إلى السرير ـ وقد استندت إلى عدد لا يُحصى من الوسادات وكان «بلوي» إلى جانبي وحاسوبي في حضني.

رفعت السماعة وأنا أقول: «أخبار سيئة»، فقال: «اللعنة، ماذا؟».

«لا يمكنني الذهاب إلى أمستردام. يعتقد أحد أطبائي أنها فكرة سيئة».

صمت برهةً، ثم قال: «يا إلهي، كان عليّ أن أدفع بنفسي تكاليف السفر كان علي أن آخذك مباشرة من مكان منحوتة العظام غير المألوفة إلى أمستردام».

قلت: «كنت سأصاب حينذاك بنوبة قاتلة من فقدان الأكسجين في أمستردام، ولشُحنت جثتي عائدة في عنبر الطائرة».

«صحيح، نعم»، قال. «لكن مبادرتي الرومانسية كانت ستؤدي بي تماماً قبل ذلك إلى مطارحتك الغرام».

ضحكت بشدّة، بما يكفي لأشعر بالمكان الذي سبق لأنبوب الصدر أن كان فيه.

«تضحكين لأنه صحيح»، قال.

ضحكت من جديد.

«صحيح، أليس ذلك؟».

«ربما لا»، قلت، لأضيف بعد لحظة، «على الرغم من أنك لن تعرف أبداً».

عن ببؤس وقال: «سأموت بكراً».

«ألا تزال بكراً؟» سألته وقد اعترتني الدهشة.

قال: «هازل غريس، هل معك قلم وورقة؟». قلت له «نعم». فقال: «حسناً، أرجو أن ترسمي دائرة». ورسمت. «والآن ارسمي دائرة أصغر في قلب الدائرة». فرسمت. «الدائرة الأوسع تضم ذوي البكارة. وتضم الدائرة الأصغر فتياناً في السابعة عشرة من ذوي الساق الواحدة».

ضحكت من جديد، وأخبرته أن معظم ارتباطاته الاجتماعية تتم في مستشفى الأولاد، وهو ما لا يشجع على الفسق. ثم تحدثنا عن تعليق بيتر فان هوتن اللامع حول دعارة الزمن. وعلى الرغم من أنني في سريري وهو في قبوه، شعرت فعلاً بما يشبه العودة إلى المجال الثالث غير المخلوق، وهو المكان الذي أحببت فعلاً زيارته معه.

أقفلت الخط. وجاءت أمي وأبي إلى غرفتي، واستلقى كل منهما على أحد جانبي السرير على الرغم من أنه ليس كبيراً كفاية ليتسع لنا نحن الثلاثة. شاهدنا «أميريكاز نيو توب موديل» على تلفازي الصغير. استُبعدت سيلينا، الفتاة التي لم أحبها، ولسبب ما أسعدني ذلك فعلاً. ثم ربطتني أمي بآلة التنفس وغطّتني جيّداً. وطبع والدي قبلة خفيفة جداً على جبهتي، أغمضتُ من بعدها عينيّ.

سيطرت الآلة أساساً على تنفّسي، وهذا مزعج للغاية. لكن الأمر الرائع في شأنها هو أنها تقرقر مع كل شهيق وتئز مع كل زفير. واصلت التفكير في أنها أشبه بتنّين يتنفس بالتزامن معي، كما لو أنني أمتلك جرو التنين هذا الذي يتدلّلِ بقربي ويهتم بي إلى درجة توقيت تنفّسه مع تنفسي. وغفوت وأنا أفكر في ذلك.

استيقظت متأخرة في اليوم التالي. شاهدت التلفاز وأنا في السرير وتفقّدت بريدي الإلكتروني، وشرعت بعد فترة في صوغ رسالة إلكترونية إلى بيتر فان هوتن أخبره فيها بأنني لا أستطيع المجيء إلى أمستردام، لكنني أقسم بحياة أمي بأنني لن أتقاسم أي معلومات في بشأن الشخصيات مع أحد، وبأنني لا أريد حتى أن يشاركني فيها أحد لأنني إنسانة أنانية جداً. ورجوته أن يخبرني هل إن رجل الخزامى الهولندي حقيقي، وهل تتزوجه والدة آنّا، وأن يخبرني أيضاً عن الهامستر سيزيفوس.

لكنني لم أرسلها. فهي مثيرة جداً للشفقة حتى بالنسبة إلي.

خرجت حوالى الثالثة إلى الفناء الخلفي، بعدما تصوّرت أن أغسطس قد عاد إلى المنزل بعد المدرسة، واتصلت به. جلست، والهاتف يرن، على العشب الذي زاد نموّه واكتسى بالهندباء البرية. لا تزال أرجوحتي تلك في مكانها. وقد نبت العشب من الفجوة الصغيرة التي أحدثتُها وأنا أدفع بنفسي إلى أعلى حين كنت طفلة. أذكر أن والدي جلب لوازمها إلى المنزل من متجر الألعاب «تويز آر اس» (Toys «R» Us) وركّبها بمساعدة أحد الجيران في الفناء الخلفي. وأصرّ أن يترجّح عليها أولاً لاختبارها، وكاد ذلك الشيء اللعين أن ينكسر.

السماء رمادية وملبّدة بالغيوم الماطرة لكنها لم تمطر بعد. أقفلت الخط لدى سماعي صوت المجيب الآلي ثم وضعت الهاتف بقربي على التراب وواصلت النظر إلى الأرجوحة وأنا أفكر بأنني على استعداد للتخلي عن كل الأيام المتبقية لي وأنا مريضة مقابل أيام قليلة

من الصحة. حاولت إقناع نفسي بأن الأمر كان ممكناً أن يكون أشد سوءاً، وبأن العالم ليس مصنعاً لتحقيق الأمنيات، وبأنني أعيش مع السرطان ولا أموت منه، وبأنه ليس عليّ أن أدعه يقتلني قبل أن يفعل ذلك. ثم أخذت أتمتم: غبية، غبية، غبية، غبية، غبية، غبية، وأكرّر ذلك من جديد إلى أن فرغ الصوت من معناه. وبقيت أردّد ذلك إلى أن عاود الاتصال.

«هاي»، قلت.

قال، «هازل غريس».

«هاي»، قلت من جديد.

«أتبكين يا هازل غريس؟».

«نوعاً ما».

سأل: «لماذا؟».

«لأنني أريد الذهاب إلى أمستردام وأريد أن تخبرني بما حدث بعد انتهاء الكتاب. أنا لا أريد حياتي المميزة، والسماء تصيبني بالاكتئاب، كما أن تلك الأرجوحة القديمة التي نصبها لي أبي وأنا طفلة موجودة هنا».

قال: «يجب أن أرى أرجوحة الدموع تلك على الفور. سأصل في غضون عشرين دقيقة».

بقيت في الفناء الخلفي لأن والدتي تستمر في خنقي وفي الشعور بالقلق عندما أبكي، وأنا في الغالب لا أبكي. أعرف أنها تريد الحديث ومناقشة ما إذا كان علي التفكير في تنظيم تناول أدويتي. والتفكير في الحديث كله جعلني أرغب في التقيّؤ.

ليس الأمر متعلقاً بذكرى شجية جداً وصافية هي ذكرى والد يتمتع بصحة جيدة يدفع بطفل معافى. والطفل يقول إلى أعلى، أعلى، أعلى. أو هو ليس ذكرى لحظة أخرى تتردّد أصداؤها الرمزيّة داخلي. فالأرجوحة تنتصب في المكان وحسب، مهجورة، والمقعدان يتدليان ساكنين وحزينين من العارضة الخشبية التي أضحى لونها رمادياً، وشكل المقعدين أشبه بالصورة التي يرسمها الطفل للابتسامة.

سمعت من خلفي البوابة الزجاجية تنزلق فاستدرت. إنه أغسطس، وقد جاء مرتدياً سروالا كاكياً وقميصاً قصير الكمين متصالب النقش مزرّراً. مسحت وجهي بكمّي وابتسمت. «هاي»، قلت.

وخلال لحظة كان جالساً بقربي، وكشّر وهو يجلس، من دون رشاقة. وقال في النهاية، «هاي». نظرت إليه، فإذا به يتطلع إلى ما ورائي، إلى الفناء الخلفي. «أرى ما تقصدينه»، قال وهو يحيط كتفي بذراعه. «إنها تجهيزات أرجوحة حزينة لعينة».

وضعت رأسي على كتفه. «شكراً لأنك عرضت المجيء إليّ».

قال: «تدركين أن محاولتك الإبقاء على مسافة بينك وبيني لن تقلّل من مودتي لك».

قلت: «أظن ذلك؟».

قال: «ستفشل كل جهودك لإنقاذي منك».

«لماذا؟ لماذا تُعجب بي حتى؟ ألم تختبر ذلك بما يكفي؟». سألته وأنا أفكّر بكارولين ماذرز.

لم يجب. أمسكت أصابعه القوية بذراعي اليسرى وقال: «يجب أن

نفعل شيئاً بشأن الأرجوحة هذه التي تصيب بالقشعريرة. أؤكد لك أنها تسعون بالمئة من المشكلة».

ما إن تعافيت حتى عدنا إلى الداخل وجلسنا على الأريكة، أحدنا بجانب الآخر، ونصف الحاسوب المحمول على ركبته (الاصطناعية) ونصفه الآخر على ركبتي. «إنه حار»، قلت وأنا أعني أسفل الحاسوب.

«هل هو الآن كذلك؟». وابتسم. فتح غاس صفحة ذلك الموقع المتعلق بالأشياء التي يريد الناس وهبها ويُدعى «فري نو كاتش» Free No Catch، وكتبنا الإعلان معاً.

سأل: «ما العنوان؟».

قلت: «تجهيزات أرجوحة لوضعها في منزل».

قال: «أرجوحة مستوحدة بشكل يائس تبحث عن بيت محب».

قلت: «أرجوحة مستوحدة، يُشتبه بغلمانيتها، تبحث عن مؤخرة أولاد».

ضحك وقال: «لهذا السبب».

«ماذا؟».

«لهذا أنا معجب بك. هل تدركين أن معرفة فتاة جذابة تبتكر عبارة وصفية تناسب كلمة «غلماني» أمر نادر الحدوث؟ أنتِ منصرفة إلى أن تكوني ما أنتِ عليه إلى حد أنك لا تملكين أدنى فكرة عمّا في شخصيتك من مزايا غير مسبوقة؟».

تنفست تنفّساً عميقاً من أنفي. لا هواءَ كافياً في العالم لكن النقص جاء في تلك اللحظة حاداً بشكل خاص.

كتبنا الإعلان معاً، وفي أثناء كتابته، كان كلّ منا يصحّح للآخر. واتفقنا في النهاية على التالي:

أرجوحة مستوحدة بشكل يائس تبحث عن بيت محب

أرجوحة مستهلكة جداً ولكنها في حالة بنيوية جيدة، تبحث عن بيت جديد. جمّع الذكريات مع ولدك أو أولادك بحيث ينظر، أو تنظر، يوماً ما إلى الفناء الخلفي، ويشعر بالألم العاطفي بالشكل اليائس الذي شعرتُ به بعد ظهر هذا اليوم. فكل شيء هش وعابر، يا صديقي القارئ، لكن الأرجوحة هذه ستُعرّف ولدك (أولادك) بلطف وأمان، بحُلو الحياة ومُرّها، وسيتعلّم، ربما، أكثر الأمثولات أهمية: مهما تكن القوة التي تندفع بها، ومهما يكن الارتفاع الذي تبلغه، فلن تكون قادراً على أن تدور بالأرجوحة دورة كاملة.

الأرجوحة موجودة حالياً على مقربة من الرقم ٨٣ وسبرينغ ميل.

شغّلنا بعد ذلك التلفاز بعض الوقت. لكننا لم نعثر على ما نشاهده، فأمسكت «محنة عظيمة» من طاولة السرير وجلبته إلى غرفة الجلوس وقرأ لي أغسطس واترز، فيما استمعت والدتي وهي تعد الغداء.

بدأ أغسطس: «انقلبت عين أمي الزجاجية إلى الداخل». وأُغرمتُ

به، وهو يقرأ، بالطريقة التي يغفو فيها المرء: ببطء، ثم دفعة واحدة.

عندما تحقّقت من بريدي الإلكتروني بعد ذلك بساعة وجدت أن علينا أن نختار شخصاً واحداً من كُثُر أرادوا الأرجوحة. واخترنا في النهاية رجلاً يدعى دانيال ألفاريز ضمّن ردّه صورة لأولاده الثلاثة وهم يلعبون ألعاب الفيديو وجاء في السطر الذي يذكر فيه الموضوع: أريد أن يخرجوا وحسب. رددت على رسالته وأبلغته بأن في وسعه أخذها متى يشاء.

سألني أغسطس إذا كنت أريد مرافقته إلى مجموعة الدعم، إلا أنني شعرت بالتعب الفعلي من يومي المشغول بإصابتي بالسرطان، فتغاضيت عن الأمر. جلسنا معاً على الأريكة ودفع بنفسه للوقوف والذهاب لكنه عاد وسقط على الأريكة وطبع قبلة على خدي.

قلت: «أغسطس!».

قال: «قبلة ودّية». ودفع بنفسه واقفاً من جديد وانتصب فعلا هذه المرة، ثم خطا خطوتين صوب أمي وقال، «أسعد دوماً برؤيتك»، وفتحت أمي ذراعيها لتعانقه، وعندها انحنى أغسطس وقبّل وجنتها. واستدار صوبي وسأل: «أرأيت؟».

أويت إلى سريري بعد الغداء مباشرة، وجهاز التنفس يغرق العالم في ما هو أبعد من غرفتي.

ولم أشاهد الأرجوحة بعد ذلك قط.

غفوت وقتاً طويلاً، عشر ساعات، ربما بسبب شفائي البطيء وربما لأن النوم يحارب السرطان، وربما لأنني مرهقة، من دون وقت محدّد

للنهوض. لم أستعد بعد ما يكفي من العافية للعودة إلى صفي في المعهد. وعندما شعرت أخيراً بالحاجة إلى النهوض، رفعت خطم جهاز التنفس عن أنفي ووضعت مكانه زجاجة الأكسجين وفتحتها، ثم أخذت حاسوبي المحمول من تحت سريري حيث أخفيته في الليلة السابقة.

تلقيّت رسالة إلكترونية من ليدوفيه فليغنثارت.

عزيزتي هازل،

وردني عبر «الجنيات» أنك ستزورينا برفقة أغسطس واترز ووالدتك في الرابع من أيار/مايو. بعد أسبوع واحد فقط! أنا وبيتر مغتبطان ولا يسعنا الانتظار للتعرف إليك. يقع فندقك، واسمه «الفيلوسوف»، على مسافة شارع واحد من منزل بيتر. ربما يجب أن نمنحك يوماً للراحة من تعب السفر، أليس كذلك؟ وبالتالي سنلتقي، إذا ناسبك الأمر، في منزل بيتر صباح الخامس من أيار/مايو ربما على فنجان قهوة عند العاشرة حيث يجيبك عن الأسئلة المتعلقة بكتابه. وربما يمكننا بعد ذلك القيام بجولة على أحد المتاحف وربما على منزل آن فرانك؟

مع أطيب التمنيات،

ليدوفيه فليغنثارت

المساعدة التنفيذية للسيد بيتر فان هوتن،

مؤلف «محنة عظيمة».

***

«ماما»، قلت، فلم تجب. صرخت: «ماما!» وما من مجيب. وعاودت من جديد بصوت أقوى: «ماما!».

هرعتْ وقد لفّت جسدها بمنشفة زهرية رثّة ثبّتتها تحت إبطيها، تقطر ماءً وقد أصابها الذعر بعض الشيء «ما الأمر؟».

قلت: «لا شيء. عذراً. لم أعرف أنك كنت تحت المرشّة».

«في المغطس»، قالت. «كنت أحاول وحسب... وأغمضت عينيها. «أحاول أن أستحمّ خلال خمس ثوان. عذراً. ماذا يجري؟».

«أيمكنك الاتصال بالجنيات وإبلاغهن أن الرحلة ألغيت؟ وردتني للتو رسالة إلكترونية من مساعدة بيتر فان هوتن. تعتقد أننا قادمون».

زمّت شفتيها، وحوّلت عينيها عني.

سألتها: «ماذا؟».

«لا يفترض بي أن أخبرك إلى أن يبلغ والدك المنزل».

كرّرت السؤال، «ماذا؟».

وقالت في النهاية، «السفرة قائمة. اتصلت بنا الدكتورة ماريّا في الليلة الماضية وقدّمت حجة مقنعة بأنك تحتاجين إلى أن تعيشي حـ...

«أمي، أحبك كثيراً!» صحت. وجاءت إلى سريري وتركتني أعانقها.

بعثت برسالة نصية إلى أغسطس لأني كنت أعرف أنه في المدرسة:

ألا تزال متفرّغاً في الثالث من أيار/مايو؟ (...).

وأجابني على الفور برسالة نصية.

كل شيء يعمل. واترز.

لو أمكنني البقاء حية أسبوعاً فقط فسأعرف الأسرار غير المكتوبة لوالدة أنّا ولرجل الخزامى الهولندي. نظرت إلى قميصي وصدري.

وهمست لرئتيّ: «ابقيا متماسكتين».

الفصل التاسع

في اليوم الذي سبق سفرنا إلى أمستردام، عُدْت إلى مجموعة الدعم للمرة الأولى منذ التقيت أغسطس. تغيّر الأشخاص، نوعاً ما، في الأسفل، في قلب يسوع الحقيقي. وصلتُ باكراً بما يكفي لتزوّدني ليدا الدائمة القوة، الناجية من سرطان الزائدة، بما استجدّ عند كل شخص، فيما أخذتُ أتناول حلوى رقائق الشوكولا من متجر البقالة وأنا أستند إلى طاولة التحلية.

توفّي مايكل ابن الثالثة عشرة المصاب بسرطان الدم. أخبرتني ليدا أنه قاتل بقوة، كما لو أن هناك طريقة أخرى للقتال. والباقون ما زالوا بيننا. أظهرت الأشعة أن لا دليل لوجود سرطان لدى كين. أما لوكاس فقد انتكس. قالت ذلك بابتسامة حزينة وبهزّة خفيفة من كتفها، بالطريقة التي يقول المرء فيها إن مدمناً على الكحول قد انتكس.

سارت فتاة لطيفة ممتلئة الخدين إلى الطاولة وحيّت ليدا وعرّفتني

بنفسها قائلة إنها سوزان. لم أعرف ما خطبها سوى أن هناك ندبة تمتد من جانب أنفها نزولاً إلى شفتها وعبر وجنتها، وقد وضعت مستحضر تجميل على الندبة، ما أدى إلى إبرازها. شعرت بالقليل من ضيق التنفس جراء كل هذا الوقوف، فقلت: «سأجلس»، وعندها فتح باب المصعد فظهر إسحق وأمه. وضع على عينيْه نظارة شمسية وتعلّق بذراع أمه بيد ممسكاً العصا باليد الأخرى.

«أنا هازل من مجموعة الدعم وليس مونيكا»، قلت عندما أصبح قريباً كفاية، فابتسم وقال، «هاي، هازل. كيف الحال؟».

«بخير. أصبحتُ مثيرة جدّاً منذ أن فقدتَ البصر».

«أراهن على ذلك»، قال. وقادته أمه إلى أحد الكراسي وقبّلت قمة رأسه وجرّت قدميها صوب المصعد. تحسّس الكرسي من تحته ثم جلس. وجلستُ على الكرسي المحاذي له. «كيف تسير أمورك إذاً؟».

«بخير. أنا مسرور بعودتي إلى المنزل، على ما أعتقد. أخبرني غاس أنك دخلت غرفة العناية الفائقة».

قلت: «نعم».

قال: «هذا مقرف».

«أنا الآن بحال أفضل كثيراً. سأذهب غداً مع غاس إلى أمستردام»

«أعرف. فأنا مطلع، إلى حد كبير، على مجريات حياتك لأن غاس لا يتحدث عن أي شيء آخر».

ابتسمت. وتنحنح باتريك وقال: «هل يمكن للجميع الجلوس؟» والتقت عينه عيني، فقال: «هازل! أنا سعيد للغاية برؤيتك!».

جلس الجميع وشرع باتريك يخبر من جديد عن فقدانه خصيته، اندمجتُ في روتين مجموعة الدعم: أتواصل مع إسحق من خلال التنهّدات، وأشعر بالأسى على كل من في الغرفة وأيضاً على كل من هو خارجها، وأغفل عن الحديث للتركيز على تنفّسي ووجعي، فالعالم يستمر، كما يفعل، بمعزل عن مشاركتي التامة. ولم أفق من حلم يقظتي إلا عندما ذكر أحد اسمي.

إنها ليدا القوية. ليدا التي تخفي حدة مرضها. ليدا الشقراء المتعافية الشجاعة التي تشارك في فريق السباحة في مدرستها الثانوية. ليدا التي لم تفقد إلا زائدتها، تلفظ اسمي قائلة: «هازل مصدر وحي كبير لي؛ إنها فعلاً كذلك. فهي تستمر في خوض المعركة، تستيقظ كل صباح وتمضي إلى الحرب من دون شكوى. إنها تتمتع بدرجة كبيرة من القوة. إنها أقوى بكثير مني. أتمنى فقط لو كنت قوية مثلها».

«هازل»، سأل باتريك. «كيف تشعرين حيال ذلك؟».

هززت كتفيّ وتطلّعت صوب ليدا. «سأعطيك قوتي إذا استطعت الحصول على همود مرضك». وشعرت بالذنب فور قولي ذلك.

«لا أعتقد أن هذا ما قصدته ليدا»، قال باتريك. «أعتقد أنها لكنني توقفت عن الاستماع.

بعد الصلاة من أجل الأحياء والدعاء الذي لا ينتهي للموتى وقد أُلحق به ذكر مايل إلى الأبد، أمسك بعضنا بأيدي بعضنا الآخر وقلنا: «لنعشْ حياتنا اليوم بأفضل ما فيها!».

هرعت ليدا على الفور إليّ تعتذر وتشرح، فقلتُ: «لا، لا، لا بأس، فعلاً»، وأشرت عليها بالابتعاد، وقلت لإسحق: «هل تريد اصطحابي إلى فوق؟».

أمسك بذراعي وسرت معه إلى المصعد وأنا ممتنة لحصولي على مبرّر لتفادي صعود الدرج. وكدت أصل إلى المصعد عندما شاهدت أمه واقفة عند زاوية «القلب الحقيقي». قالت لإسحق: «أنا هنا». فانتقل من ذراعي إلى ذراعها قبل أن يسأل: «أتريدين المجيء معنا؟».

«بالتأكيد». قلت. وشعرت بالأسى حياله. ولم أستطع، على الرغم من كرهي للشفقة التي يشعر بها الناس نحوي، إلا أن أشعر بها نحوه.

كان إسحق يقيم في بيت مزرعة صغير في ميريديان هيلز بالقرب من تلك المدرسة الخاصة الفاخرة. جلسنا في غرفة الجلوس، فيما مضت أمه إلى المطبخ لإعداد العشاء. وسألني حينذاك إذا كنت أريد اللعب.

«طبعاً». قلت. فطلب جهاز التحكّم عن بعد وناولته إياه. شغَل التلفاز، ثم الحاسوب المربوط به. ظلّت الشاشة سوداء، إلا أن صوتاً عميقاً تحدّث عبرها بعد ذلك ببضع ثوان.

«خداع». قال الصوت. «هل ألاعب واحداً أم اثنين؟».

«اثنين». قال إسحق. «إيقاف مؤقت». واستدار صوبي. «ألعب هذه اللعبة دوماً مع غاس، لكن الأمر يثير الغيظ لأنه لاعب انتحاري بالكامل. إنه يبدو عدائياً للغاية في ما يتعلق بإنقاذ المدنيين وأشياء كهذه».

«نعم». قلت وأنا أتذكّر ليلة الجوائز المحطمة.

قال إسحق: «إلغاء الإيقاف المؤقت».

«اللاعب الأول، عرّف بنفسك».

وقال إسحق: «هذا هو الصوت المثير، المثير لِلّاعب الأول».

«اللاعب الثاني عرّف بنفسك».

قلت: «أعتقد أنني سأكون اللّاعب الثاني».

الرقيب الأول ماكس مايهم والجندي جاسبر جاكس يستيقظان في غرفة مظلمة، فارغة مساحتها نحو اثنتي عشرة قدماً مربّعة.

أومأ إسحق صوب التلفاز فيما بدا لي إشارة إلى وجوب تحدثي إليه أو ما شابه. «هممم»، قلت. «هل هناك مفتاح إضاءة؟».

لا

«هل هناك باب؟».

الجندي جاكس يحدّد موقع الباب. إنه مقفل.

تدخّل إسحق. «هناك مفتاح فوق إطار الباب».

نعم.

«مايهم يفتح الباب».

الظلمة لا تزال كاملة.

قال إسحق: «اسحب السكّين».

وأضفت، «اسحب السكّين».

اندفع صبي ـ افترضت أنه شقيق إسحق ـ خارجاً من المطبخ. وهو ربما في العاشرة، نحيل وذو طاقة فائقة، وقد عبر غرفة الجلوس كأنه يقفز قبل أن يصيح مُقلّداً صوت إسحق تقليداً جيّداً، «أقتل نفسي».

يضع الرقيب مايهم سكينه على عنقه. أمتأكد أنت من...

«كلا»، قال إسحق. «إيقاف مؤقت. لا ترغمني على ضربك يا غراهام». وضحك غراهام باستهتار وخرج مسرعاً عبر الممشى.

تحسستُ وإسحق، بوصفنا مايهم وجاكس، طريقنا قُدُماً عبر الكهف إلى أن التقينا شخصاً طعنّاه بعدما أجبرناه على إخبارنا بمكان وجودنا وهو كهف سجن أوكراني على عمق أكثر من ميل تحت الأرض. قادتنا التأثيرات الصوتية ـ وهي نهر جوفي هادر، وأصوات تنطق بالأوكرانية والإنكليزية الركيكة ـ ونحن نتقدم عبر الكهف، لكن ليس في هذه اللعبة ما يمكن رؤيته. وبعدما لعبنا ساعة شرعنا نسمع صيحات سجين يائس يستعطف: «يا إلهي، ساعدني. يا إلهي، ساعدني».

«إيقاف مؤقت»، قال إسحق. «عند هذا الحد يصرّ غاس دوماً على العثور على السجين، حتى لو حال ذلك بينه وبين الفوز باللعبة، والطريقة الوحيدة للتحرير الفعلي للسجين هي في الفوز باللعبة».

«نعم، إنه يلعب ألعاب الفيديو بالكثير من الجد»، قلت. «فهو متيّم بعض الشيء بالمجاز».

سألني إسحق: «هل أنت معجبة به؟».

«بالطبع أنا معجبة به. فهو رائع».

«لكنك لا تريدين الارتباط به؟».

هززت كتفي. «الأمر معقّد».

قال: «أعلم ما الذي تحاولينه. لا تريدين إعطاءه شيئاً لا يستطيع التعامل معه. لا تريدينه أن يتصرّف معك على غرار مونيكا».

«شيء من هذا القبيل»، قلت. لكن الأمر ليس كذلك. فالحقيقة

هي أنـي لا أريد أن ألعب معه دور إسحق. وقلت: «إنصافاً لمونيكا. ما فعلتَه بها ليس لطيفاً هو الآخر».

وسأل بشكل دفاعي: «ما الذي فعلتُهُ بها؟».

«تعرف، أن تصبح أعمى وكل شيء».

وقال إسحق: «لكن ذلك ليس خطأي».

«أنا لا أقول إنه خطأك. بل أقول إنه ليس لطيفاً».

الفصل العاشر

لا يسعنا سوى أخذ حقيبة واحدة، فأنا لا يمكنني حمل حقيبة. وأصرّت أمي على أنها لا تستطيع حمل اثنتين. واضطررنا إلى المناورة لإيجاد مكان في هذه الحقيبة السوداء وهي هدية عرسهما التي تلقّاها والداي منذ مليون عام. كان عليها أن تقضي حياتها في أماكن غريبة، لكن انتهى بها الأمر، في التنقّل جيئة وذهاباً إلى دايتون حيث لشركة «موريس بروبرتي إنك» مكتب رديف غالباً ما يقوم والدي بزيارته.

جادلتُ أمي بأنني يجب أن أحظى بأكثر من نصف الحقيبة قليلاً. فلولاي، ولولا سرطاني لما ذهبنا إلى أمستردام. وردّت أمي بأن حجمها ما دام ضعفي حجمي؛ وتحتاج بالتالي إلى مزيد من القماش للحفاظ على احتشامها، فإنها تستحق ما لا يقل عن ثلثي الحقيبة.

وخسرنا، نحن الاثنتين، في النهاية. ويا للأسف.

لن تبدأ رحلتنا حتى الظهر، لكن أمي أيقظتني عند الخامسة والنصف وأشعلت النور وصاحت: «أمستردام!» سبق أن جالت صباحاً

في الأمكنة كلّها للتأكد من وجود وصلات قابس دولية ومن أن لدينا العدد الكافي من خزانات الأكسجين للوصول إلى هناك، ومن أنها كلها معبّأة. فيما اكتفيتُ بالتقلب على السرير لأنهض وأرتدي ثياب السفر إلى أمستردام (جينز، وقميص بلا أكمام، وكنزة صوفية سوداء في حال شعوري بالبرد في الطائرة).

حُمّلت السيارة بحلول السادسة والربع، وحينذاك أصرّت والدتي على أن نتناول الفطور مع والدي على الرغم من معارضتي الأخلاقية لتناول الطعام قبل الفجر، على أساس أنني لست فلاحة روسية من القرن التاسع عشر أعدّ نفسي ليوم من العمل في الحقول. إلا أنني حاولت تناول بعض البيض فيما استمتعت أمي وأبي بتلك النسخة المنزلية لشطيرة البيض مع اللحم المقدّد والجبنة (Egg McMuffins) التي يحبانها.

سألتهما: «لماذا طعام الفطور هو طعام الفطور؟ ولماذا، مثلاً، لا نتناول الكاري على الفطور؟».

«هازل، تناولي طعامك».

«لكن لماذا؟»، سألت. «أقصد، جدّياً: كيف آل الأمر بالبيض المخفوق إلى أن يلتصق حكراً بالفطور؟ في وسع المرء وضع اللحم المقدّد في شطيرة من دون أن يُصاب أحد بالذعر. لكن في اللحظة التي تحتوي فيها شطيرتك على البيض، تصبح فطيرة فطور».

أجاب والدي بفم ملآن: «عندما تعودين، سنتناول الفطور على العشاء. أتوافقين؟».

أجبته: «لا أريد تناول الفطور على العشاء». ووضعت سكيني فوق

شوكتي على طبقي شبه الملآن. «أريد تناول البيض المخفوق على العشاء من دون هذا التفسير السخيف بأن الطعام الذي يتضمّن بيضاً مخفوقاً هو فطور حتى لو تناولناه على العشاء».

قالت أمي: «عليك أن تختاري ما يستحق أن تقاتلي من أجله، يا هازل. لكن إذا أردت الدفاع عن هذه القضية فسنقف وراءك».

«سنقف وراءك بمسافة لا بأس بها»، أضاف والدي. وضحكت أمي.

أعرف، في أي حال، أن الأمر سخيف لكنني شعرت بالضيق حيال البيض المخفوق.

جلى والدي الصحون بعد انتهائهما من الأكل. وشرع بالطبع في البكاء وقبّل وجنتي بوجهه الرطب الخفيف اللحية. وضغط بأنفه على عظمة خدّي وهمس، «أحبك. وأنا فخور جداً بك». (وسألت نفسي عن سبب فخره).

«شكراً أبي».

«سأراك بعد أيام قليلة، أليس كذلك يا حلوتي؟ أحبك كثيراً».

«وأنا أحبك أيضاً يا أبي»، وابتسمت. «وهي ليست إلا ثلاثة أيام».

واصلت التلويح له ونحن نرجع بالسيارة من طريق المدخل. ولوّح من جهته وهو يبكي. خطر لي أنه ربما اعتقد أنه قد لا يراني بعد ذلك أبداً، وهو الأمر الذي كان يفكر به كل صباح من كل حياته وهو يغادر إلى العمل، وهذا شيء فظيع.

توجهت وأمي إلى منزل أغسطس، أرادت لدى بلوغنا المكان أن

أبقى في السيارة وأستريح، لكنني رافقتها مع ذلك إلى الباب. تمكنت مع اقترابنا من المنزل، من سماع شخص يبكي في الداخل. لم أعتقد بداية أنه غاس لأن الأمر لم يشبه في شيء الدمدمة الخفيفة لصوته. لكنني سمعت بعدها صوتاً هو قطعاً نسخة محرّفة عن صوته: «لأنها حياتي. يا أمي، وتخصّني». ووضعت أمي سريعاً ذراعها حول كتفي وأدارتني عائدة صوب السيارة وهي تسير بسرعة. وقلت «ما الأمر، يا أمي؟».

قالت: «لا يمكننا استراق السمع، يا هازل».

عدنا إلى السيارة وبعثتُ برسالة نصية إلى أغسطس أخبره فيها بأننا في الخارج حالما يصبح مستعداً.

حدّقنا إلى المنزل فترة. الغريب في أمر المنازل هو أنها تكاد تبدو دوماً كأن شيئاً لا يحدث في داخلها على الرغم من أننا نعيش فيها معظم حياتنا. وتساءلت إذا ما كان هذا نوعاً من الفكرة الهندسية.

«حسناً»، قالت أمي بعد برهة. «أعتقد أننا بكّرنا بعض الشيء».

قلت: «كما لو أنني لم أضطر إلى النهوض عند الخامسة والنصف». مدت أمي يدها إلى اللوحة التي بيننا وأمسكت بكوب قهوتها وأخذت منه رشفة. رنّ هاتفي. رسالة من أغسطس.

لا أستطيع أن أقرر ماذا أرتدي. هل تفضلينني أكثر بقميص البولو أو بقميص بأزرار؟

أجبت:

بأزرار.

بعد ذلك بثلاثين ثانية فُتح باب المدخل وظهر منه أغسطس المبتسم يجر من ورائه حقيبة ذات إطارات. وارتدى قميصاً أزرق سماوياً دسّه تحت بنطاله. وتدلت من شفتيه سيجارة «كامِل لايت». خرجت أمي لتحييه، فسحب سيجارته مؤقتاً وتحدّث بالصوت الواثق الذي تعوّدت عليه: «تسعدني رؤيتك دائماً يا سيدتي».

راقبتهما عبر المرآة الخلفية إلى أن فتحت أمي الصندوق. بعد لحظات، .فتح أغسطس الباب من ورائي وانخرط في العملية المعقّدة القاضية بالولوج إلى المقعد الخلفي برجل واحدة.

سألته: «أتريد المقعد الأمامي؟».

أجاب: «قطعاً لا مرحبا يا هازل غريس».

«هاي»، قلت. وسألته «كل شيء على ما يرام؟».

قال: «كل شيء».

قلت: «حسناً».

ولجت أمي إلى السيارة وأعلنت: «محطتنا التالية، أمستردام».

وهذا ليس صحيحاً تماماً. فالمحطة التالية هي موقف المطار الذي انتقلنا منه بباص إلى المحطة الرئيسة، ثم نقلتنا سيارة كهربائية مفتوحة إلى معبر الأمن. وأخذ الشخص التابع لإدارة سلامة النقل الموجود عند أول المعبر يصيح قائلاً إن من الأفضل ألا تحتوي حقائبنا على المتفجرات أو الأسلحة النارية أو ما يزيد على ثلاث أونصات من السوائل. وقلت لأغسطس: «ملاحظة: الوقوف في الرّتل شكل من أشكال الاضطهاد». قال: «هذا صحيح».

فضَلت، بدلاً من أن يتم تفتيشي يدوياً، أن أعبر كاشف المعادن من دون عربتي أو خزاني أو حتى الكانيولا البلاستيكية في أنفي. كان مروري عبر آلة الأشعة السينية أول خطوة أخطوها من دون الأكسجين منذ بضعة أشهر، وبدا رائعاً جداً السير هكذا من دون عوائق. خطوتُ عابرةً «الروبيكون»[1]، وَعَنَى صمت الآلة بأنني، ولو خلال وقت وجيز، كائن غير معدني.

شعرت بسيادة على جسمي لا يمكنني وصفها حقاً إلا بالقول إنني امتلكت، وأنا صغيرة، حقيبة ظهر ثقيلة فعلاً. أحملها إلى أي مكان وكل كتبي فيها، وأشعر بأنني كمن يطفو عندما أرفعها عن ظهري بعد حملها فترة طويلة.

شعرت بعد حوالي عشر ثوان أن رئتيّ تطبقان على نفسيهما كالأزهار عند الغسق. جلست على مقعد رمادي بعد الآلة تماماً وحاولت التقاط أنفاسي وسعالي رذاذ صاخب، وشعرت ببؤس شديد إلى أن أعدت الكانيولا إلى مكانها.

ظل الأمر مؤذياً حتى هذه اللحظة. الألم دائم الحضور، يسحبني إلى داخلي مطالباً بأن يتم الشعور به. ويتملكني إحساس دائم بأنني أستيقظ من الألم عندما يتطلب مني أمر مفاجئ في العالم حولي التعليق أو الانتباه. أخذت أمي تنظر إليّ وقد اعتراها القلق، وقد قالت شيئاً للتو. ما الذي قالته للتو؟ ثم تذكرت أنها سألت: ما الأمر.

قلت: «لا شيء».

«أمستردام!»، قالت قالت ذلك بصوت شبه صارخ.

ابتسمتُ وأجبت: «أمستردام». مدّت يدها وانتشلتني.

---

(١) نقطة اللاعودة. (المترجم)

ـنا البوابة قبل ساعة من موعد دخولنا الطائرة. «سيدة لانكستر. أنت ـخص دقيق في مراعاة المواعيد بشكل يثير الإعجاب»، قال أغسطس ـو يجلس بجانبي في منطقة البوابة شبه الفارغة.

قالت: «الحقيقة، ما يساعدني هو أنني عملياً لست كثيرة الانشغالات».

قلت لها: «لديك فيض من الانشغالات»، على الرغم مما خطر لي من أن عمل أمي بمعظمه يتعلّق بي أنا. وهناك أيضاً العمل الناتج عن زواجها من أبي ـ وهو لا يكاد يملك أي فكرة عنه، مثل الأعمال المصرفية واستخدام السمكريين والطبخ والقيام بأمور غير العمل لدى «موريس بروبرتي، إنك» ـ لكن العمل الأساسي الذي تقوم به هو الاهتمام بي فسبب حياتها الأول وسبب حياتي الأول متشابكان على نحوٍ بغيض.

قال أغسطس، فيما أخذ الناس من حول البوابة يملأون المقاعد، «سأجلب الهامبرغر قبل أن نغادر. أيمكنني أن أجلب لكما أي شيء؟».

«كلا»، قلتُ. «لكنني أقدّر فعلاً رفضك الاستسلام للتقاليد الاجتماعية المتعلقة بالفطور».

أمال رأسه صوبي محتاراً، في حير ت أمي، «أثارت هازل مسألة حيال وضع البيض المخفوق في موضع منعزل يشبه الغيتو».

«من المربك أننا نسير جميع على درب الحياة ونقبل بشكل أعمى أن البيض المخفوق يرتبط بشكل أساسي بالصباح».

«أريد مريداً من الحديث في هذا الشأن»، قال أغسطس. «لكنني جائع. سأعود في الحال»

لم يظهر أغسطس بعد مرور عشرين دقيقة. فسألتُ أمي إذا كانت تعتقد أن مكروهاً حدث له. فرفعت نظرها عن مجلتها الكريهة بما يكفي للقول، «ربما قصد المرحاض أو شيئاً من هذا القبيل».

جاءت موظفة البوابة وأبدلت بمستوعب الأكسجين خاصتي واحداً وفرته شركة الطيران. وقد أربكني أن تجثو هذه السيدة أمامي فيما الجميع يتفرجون، فبعثت برسالة نصية إلى أغسطس في أثناء قيامها بذلك.

لم يجب. بدت أمي غير قلقة، لكنني أخذت أتخيّل كل أنواع المصائر الآيلة إلى خراب رحلة أمستردام (توقيف، إصابة، انهيار عصبي) وشعرت بخطب غير سرطاني في صدري فيما الدقائق تمر.

عندما أعلنت السيدة الواقفة وراء منضدة التذاكر انهم سيبدأون بإدخال مبكر للأناس الذين قد يحتاجون إلى مزيد من الوقت، واستدار كل شخص موجود عند البوابة مباشرة صوبي، رأيت أغسطس يعرج مسرعاً صوبنا يحمل كيس ماكدونالد بيد وحقيبة ظهره معلّقة على كتفه.

سألته: «أين كنت؟».

«الخط أصبح طويلاً جداً. آسف». قال وقدم لي يده ليساعدني على النهوض. أمسكت بها وسرنا جنباً إلى جنب إلى البوابة لدخول الطائرة قبل الآخرين.

شعرت بأن الجميع يراقبوننا، ويتساءلون عمّا بنا، هل سيقتلنا ذلك، وعن مقدار البطولة التي يجب أن تتمتع بها أمي، وكل شيء آخر. وهذا أحياناً أسوأ ما في الإصابة بالسرطان: الدليل الجسماني على المرض يفصلك عن الأناس الآخرين. فنحن آخر مغاير. ولم يبدُ الأمر قط أكثر جلاء مما هو الآن عندما سرنا ثلاثتنا عبر الطائرة الفارغة، والمضيفة

ومئ برأسها بتعاطف وتشير إلى مقاعدنا في الخلف البعيد. جلست في وسط صفنا الذي يتسع لثلاثة، وجلس أغسطس في المقعد إلى جانب النافذة، وأمي في مقعد الممر. شعرت بأن أمي تطوقني برعايتها فاندفعت بالطبع صوب أغسطس. ووجدت أننا تماماً وراء جناح الطائرة. فتح كيسه وأزال الورقة التي تغلف البرغر.

قال: «فيما يتعلق بموضوع البيض إذاً! هل صحيح أن إضفاء صبغة الفطور على البيض المخفوق يعطيه نوعاً من القدسية؟ يمكن للمرء أن يحصل في أي مكان وأي وقت على بعض اللحم المقدّد وجبنة الشيدر، من التاكو إلى سندويشات الفطور إلى الجبن المشوي، لكن البيض المخفوق... هذا مهم».

«هذا مضحك»، قلت. أخذ الناس الآن يدخلون بالصف إلى الطائرة. ولا أريد النظر إليهم، فأشحت بنظري، وإشاحة النظر تعني التطلّع إلى أغسطس.

«أقول: ربما يتم وضع البيض المخفوق في ما يشبه الغيتو، لكنه مميّز أيضاً. فله مكان وزمان خاصان كما للكنيسة».

قلت: «لا يمكنك أن تكون مخطئاً أكثر مما أنت عليه. أنت تستثمر المشاعر المطرزة على وسادات الزينة في بيت أهلك. وأنت تجادل بأن الشيء الهش والنادر جميل لمجرد أنه هش ونادر. لكنها كذبة وأنت تعرف ذلك».

قال أغسطس: «أنت شخص تصعب مؤاساته».

قلت: «المؤاساة السهلة لا تريح. كنتَ مرّة زهرة نادرة وهشة. أنت تذكر».

صمت برهة. «تعرفين كيف تسكتينني، يا هازل غريس».

أجبت: «إنه امتيازي ومسؤوليتي».

قال، قبل أن أشيح بنظري عنه: «عذراً على تجنّبي منطقة البوابة فالخط في ماكدونالد لم يكن حقيقة بهذا الطول؛ فأنا لم أرد الجلوس هناك فيما كل هؤلاء الناس ينظرون إلينا»

قلت: «ينظرون إليّ في الأغلب». ففي وسع المرء أن ينظر إلى غاس ولا يعرف أنه مريض، أما أنا فأحمل مرضي معي بشكلي الخارجي، وهذا في المقام الأول جزء من السبب الذي أصبحت معه ألازم المنزل. «أغسطس واترز، الفاتن الشهير، يخجل من الجلوس قرب الفتاة ذات مستوعب الأكسجين».

«ليس خجلاً»، قال. «لكنهم يغضبونني أحياناً. وأنا اليوم لا أريد ان أغضب». ودسّ، بعد دقيقة، يده في جيبه وفتح علبة سجائره.

هرعت إحدى المضيفات بعد ذلك بنحو تسع ثوان إلى صف مقاعدنا وقالت: «سيدي، لا يمكنك التدخين على متن هذه الطائرة أي طائرة».

«أنا لا أدخن»، قال شارحاً والسجارة تتراقص في فمه وهو يتكلم. «لكن...

وشرحت لها: «في الأمر دلالة مجازية. يضع الشيء القاتل في فمه لكنه لا يمنحه القدرة على قتله».

أُصيبت المضيفة بالذهول ولكن لوقت وجيز فقط. ثم قالت

«حسناً. هذه الدلالة الرمزية محظورة في رحلة اليوم». هزّ غاس برأسه موافقاً وأعاد السيجارة إلى العلبة.

وأخيراً تدرّجت بنا الطائرة وقال قائدها: أيها الركّاب استعدوا للإقلاع. دبّت من بعدها الحياة في المحرّكين اللذين زأرا وبدأت الطائرة تزيد من سرعتها. قلت: «يشبه الأمر الركوب معكَ في السيارة»، وابتسم، لكنه أبقى فكيه مطبقين بشدة، فقلت: «هل أنت بخير؟».

ازدادت السرعة، وفجأة تمسكت يد غاس بذراع المقعد وجحظت عيناه فوضعت يدي فوق يده وقلت: «هل أنت بخير؟». ولم يقل شيئاً بل اكتفى بالتحديق إليّ بعينيه الجاحظتين. قلت: «هل تخاف من الطيران؟».

«سأخبرك بعد دقيقة».

ارتفعت مقدمة الطائرة وطرنا. حدّق غاس عبر النافذة وهو يراقب الكوكب يتقلّص من تحتنا، ثم شعرت بيده تسترخي تحت يدي. تطلع إليّ بنظرة خاطفة ثم عاد إلى النافذة. وأعلن: «نحن نطير».

«ألم يسبق لك قط ركوب الطائرة؟».

هزّ رأسه نافياً. «انظري»، كاد يصيح مشيراً إلى النافذة.

«نعم»، قلت. «نعم أرى ذلك. يبدو الأمر كأننا في طائرة».

قال: «لم يسبق لأي شيء أن بدا هكذا في تاريخ البشرية كله». كانت حماسته جذابة. ولم أستطع مقاومة الانحناء صوبه وطبع قبلة على خده.

«أعلمك بأنني هنا بجوارك»، قالت أمي. «أجلس بقربك. أمك التي أخذت بيدك وأنت تخطين خطوات طفولتك الأولى».

«إنها قبلة وديّة»، قلت مُذكِّرة واستدرت لتقبيل خدّها.

«لم تبدُ ودية جدّاً»، تمتم غاس رافعاً صوته بما يكفي لأسمعه. تلاشى صدّ نفسي عن تقبيله تلاشياً فعلياً عندما انبثق وجه آخر من وجوه شخصية أغسطس المحب للمبادرات ذات الصدى الكبير وللدلالات الرمزية، هو وجه غاس المدهوش، والمُثار والبري.

كانت الرحلة سريعة إلى ديترويت، حيث وافتنا السيارة الكهربائية ونحن ننزل ونقلتنا إلى بوابة أمستردام. احتوت الطائرة على جهاز تلفاز مثبت خلف كل مقعد، وما إن أصبحنا فوق الغيم حتى وقّتنا، أنا وغاس، الأمر بحيث نشاهد، كل على شاشته، الكوميديا الرومانسية نفسها بالتوقيت نفسه. وعلى الرغم من التزامن المثالي في ضغطنا زر التشغيل بدأ فيلمه قبل فيلمي بنحو ثانيتين، فكان يضحك عند كل لحظة فكاهية فيما كنت بدأت أستمع إلى النكتة المعنية.

وقضت الخطة الكبرى التي رسمتها أمي بأن ننام طوال الساعات الأخيرة من الرحلة بحيث نشرع لدى هبوطنا في الساعة الثامنة صباحاً في التجوال في المدينة ونحن على استعداد لاستغلال كل لحظة من لحظات رحلتنا. وهكذا، لما انتهى الفيلم، تناولنا، أنا وأمي وأغسطس، حبوباً منومة. وفي غضون ثوان غفت أمي وبقينا أنا وأغسطس مستيقظين نتطلع من النافذة. إنه يومٌ صافٍ، ومع أننا لم نتمكن من رؤية غياب الشمس استطعنا رؤية انعكاسها على السماء.

قلت لنفسي: «يا إلهي، ذلك جميل».

قال: «الشمس المشرقة ساطعة أيضاً في عينيها الآخذتين في الضياع». وهي جملة من «محنة عظيمة».

«لكنها لا تشرق»، قلت.

أجاب: «تشرق في مكان ما». ثم قال بعد لحظة: «ملاحظة: من الرائع السفر بطائرة فائقة السرعة في وسعها، فترة من الوقت مطاردة شروق الشمس حول العالم».

«سأعيش أيضاً وقتاً أطول». فنظر إليّ بطرف عينه فقلت: «أي بسبب النسبية أو ما شابه». بقي مرتبكاً. تابعت كلامي قائلة: «نتقدم في السّنّ بشكل أكثر بطئاً عندما نتحرك بسرعة في مقابل الوقوف جامدين. وهكذا يمر الوقت الآن بالذات بشكل أبطأ مما يمر على الناس الموجودين على الأرض».

قال: «فتيات المعهد. إنهن شديدات الفطنة».

قلبت عينيّ. ولكز ركبتي بركبته (الحقيقية)، وعاودت لكزه بركبتي، وسألته: «هل أنت نعسان؟».

أجاب: «لا، على الإطلاق».

قلت: «ولا أنا». فأدوية النوم والمسكنات لا تؤثر فيّ كما تؤثر في الأشخاص العاديين.

سألني: «أتريدين مشاهدة فيلم آخر؟ لديهم فيلم لبورتمان من الحقبة التي كانت تشبه فيها هازل».

«أريد مشاهدة شيء لم تسبق لك رؤيته».

وشاهدنا في النهاية فيلم ٣٠»، وهو فيلم حربي عن ٣٠ أسبرطي يحمون أسبرطة من جيش زاحف يضم ما يقارب مليون فارسي. وبدأ فيلم أغسطس مرة أخرى قبل فيلمي. وبعد بضع دقائق من سماعه يقول «دانغ!» أو «قتله!» في كل مرة يُقتل فيها أحد بطريقة رائعة، استندت إلى ذراع المقعد ووضعت رأسي على كتفه بحيث أتمكن من رؤية شاشته ونستطيع في الواقع مشاهدة الفيلم معاً.

في فيلم «٣٠٠» مجموعة كبيرة من الشبان الضخام العراة الصدور والمدهونين جيداً بالزيت، لذلك تنجذب العين إلى مشاهدته، ولكنه تضمن الكثير من براعة استخدام السيوف من دون تأثير. تراكمت جثث الأسبرطيين والفرس ولم أستطع أن أستوعب تماماً لماذا الفرس أشرار إلى هذا الحد والأسبرطيون على هذا القدر من الروعة. و«المعاصرة» ـ وفق تعبير كتاب «محنة عظيمة» تختص بنوع المعارك التي لا يخسر فيها أحد شيئاً قيّماً عدا حياته». وهكذا هو الأمر مع هؤلاء العمالقة المتصارعين.

مات الجميع قبل نهاية الفيلم بقليل، وأتت تلك اللحظة المجنونة التي يشرع فيها الأسبرطيون في تكديس أجساد القتلى لتشكيل جدار من الجثث. وأصبح الموتى يشكلون ذلك الحاجز الضخم الذي يقف حائلاً بين الفرس والطريق إلى أسبرطة. لم أجد مبرّراً لسفك كل هذا الدم فأشحت بنظري لحظة سائلة أغسطس: «بكم تقدّر عدد القتلى؟».

صرفني بتلويحة من يده. «هس، هس، الأمر أصبح رائعاً»

اضطر الفرس لدى هجومهم إلى تسلّق جدار الموتى وتمكّن الأسبرطيون من احتلال المرتفع من فوق جبل الجثث، وفيما تواصل

تراكم الجثث أصبح جدار الشهداء أكثر ارتفاعاً وبالتالي أكثر صعوبة على التسلق، ولوّح الجميع بسيوفهم وأطلقوا السهام وسالت أنهر الدماء من جبل الموت.

رفعت رأسي عن كتفه لحظة لأخذ استراحة من سفك الدماء وراقبت أغسطس وهو يشاهد الفيلم. لم يستطع احتواء ابتسامته البلهاء. نظرت إلى شاشتي وقد أغمضت عيني نصف إغماضة فيما الجبل يكبر بجثث الفرس والأسبرطيين. ولما اجتاح الفرسُ الأسبرطيين في النهاية عاودت النظر إلى أغسطس الذي بدا، على الرغم من أن الصالحين قد خسروا للتو، فرحاً بشكل مطلق. استكنت إليه من جديد لكنني أبقيت عينيّ مقفلتين إلى أن انتهت المعركة.

رفع سماعتيه عندما بدأ عرض شريط أسماء المساهمين في الفيلم وقال: «آسف. غرقت في نبل التضحية. ما الذي كنت تقولينه؟».

«بكم تقدّر عدد القتلى؟».

قال مازحاً: «تقصدين، كم شخصاً خيالياً مات في ذلك الفيلم الخيالي؟»، ليس بما يكفي.

«لا، أعني، منذ الأزل. أي كم هو عدد الناس الذين تعتقد أنهم ماتوا؟».

قال: «عرفت الجواب عن هذا السؤال مصادفة. هناك من الأحياء سبعة مليارات شخص وحوالي ثمانية وتسعين مليار شخص من الأموات».

«أوه»، قلت. اعتقدت في السابق أن الأناس الأحياء أكثر من عدد الموتى كلهم مجتمعين بسبب التكاثر السكاني الذي يحدث بسرعة كبيرة جداً.

قال: «هناك نحو أربعة عشر ميتاً لكل شخص حي» استمر عرض شريط أسماء المساهمين في الفيلم. استغرق الأمر وقتاً طويلاً، على ما أعتقد، لتحديد كل هذه الجثث. رأسي لا يزال على كتفه. وتابع أغسطس: «بحثت في ذلك منذ حوالى يومين، وأنا أسأل نفسي هل يمكن تذكّر كل شخص. مثلاً إذا نظمنا أنفسنا وخصّصنا عدداً محدداً من الجثث لكل شخص حي، فهل هناك عدد كافٍ من الأحياء لتذكّر جميع الموتى؟».

«وهل هناك؟».

«بالتأكيد، إذ يمكن لأي شخص أن يسمي أربعة عشر ميتاً. لكننا متفجّعون غير منظمين بحيث ينتهي الأمر بكثير من الناس إلى تذكّر شكسبير، وليس إلى تذكّر الشخص الذي كتب عنه القصيدة رقم خمسة وخمسين».

«نعم»، قلت.

عمّ الصمت دقيقة، ثم سأل: «أتريدين القراءة أو أي شيء آخر؟» وأجبته: «بالتأكيد». أخذت أقرأ تلك القصيدة الطويلة بعنوان «عواء» لألن غينسبرغ والمقررة في حصّة الشعر، فيما عاود غاس قراءة «محنة عظيمة».

وقال بعد فترة: «أهي جيدة؟».

سألته: «القصيدة؟».

«نعم».

«نعم، إنها رائعة. الفتية في هذه القصيدة يتعاطون المخدرات أكثر مما أفعل. كيف هي «محنة عظيمة»؟

«لا تزال ممتازة»، قال. «اقرأي لي».

قلت: «ليست بالقصيدة التي تقرأها بصوت مرتفع وأنت جالس على مقربة من أمك النائمة. ففيها مثلاً اللواط وغبار الملائكة»[1].

فقال: «لقد سمّيتِ للتو اثنتين من تسلياتي المفضّلة. حسناً أتقرأين لي شيئاً آخر إذاً؟».

«هممم»، قلت. «ليس لديّ أي شيء آخر».

«مؤسف جداً. فمزاجي متهيئ تماماً للشعر. هل تحفظين شيئاً؟».

«فلنمضِ إذاً، أنا وأنت»، بدأتُ بتوتّر: «عندما ينتشر المساء فوق السماء / كأنه مريض مخدّر على طاولة يُعالج بالأثير».

«ببطء أكثر»، قال.

شعرت بالخجل كما في المرة الأولى التي أخبرته فيها عن «محنة عظيمة». «هممم، حسناً. حسناً. لنمضِ عبر شوارع شبه مهجورة / إلى ملاذاتٍ تمتمة / ولليالي الصاخبة في فنادق رخيصة ننزل بها ليلة واحدة في المطاعم القذرة التي تقدم أصداف المحار / شوارع تمضي مثل جدل الممل / ذي النية الغادرة / لتقودك إلى سؤال غامر / آه، لا تسألي «ما هو؟» / هيا بنا نمضي ونقوم بزيارتنا».

وقال بهدوء: «أنا مغرم بك».

«أغسطس»، قلت.

«أنا مغرم»، قال وهو يحدّق إليّ. وتمكّنت من رؤية تجاعيد زوايا

---

(1) مخدر الفينيكليدين القوي جداً الذي يتسبب بالهلوسة. (المترجم)

عينيه. «أنا أحبك، ولست في صدد حرمان نفسي من اللذة البسيطة بأن أبوح بكلام صادق. أحبك وأعرف أن الحب مجرّد صرخة في الفراغ وأن النسيان حتمي، وأننا محكومون جميعنا بأن يأتي يوم يتحوّل فيه عملنا كله إلى غبار، وأعرف أن الشمس ستبتلع الأرض الوحيدة التي سنملكها، وأنا أحبك».

«أغسطس»، قلت مرة أخرى وأنا لا أعرف ما أقول غير ذلك. شعرت بأن كل شيء في داخلي قد استُثير كما لو أنني أغرق في تلك السعادة المؤلمة بشكل غريب، لكني لم أتمكّن من أن أبادله القول. اكتفيت بالنظر إليه وتركته ينظر إليّ، إلى أن هزّ برأسه، بشفتيه المزمومتين، وأشاح بوجهه مسنداً جانب رأسه إلى النافذة.

الفصل الحادي عشر

أعتقد أنه غفا. فعلت ذلك أنا أيضاً في النهاية واستيقظت على صوت إنزال جهاز الهبوط. شعرت بطعم غريب في فمي وحاولت إبقاءه مطبقاً خوفاً من تسميم من في الطائرة.

تطلّعت إلى أغسطس وهو يحدّق عبر النافذة، وعدّلت طريقة جلوسي لرؤية هولندا فيما أخذنا نهبط إلى ما دون الغيوم المنخفضة. بدت الأرض كأنها غارقة في المحيط، مستطيلات صغيرة من الأخضر محاطة بالأقنية من كل الجوانب. هبطنا في خط موازٍ للقناة كما لو أن هناك مدرّجين: واحداً لنا وآخر للطيور المائية.

أخذنا أمتعتنا وعبرنا الجمارك وتكوّمنا جميعنا في سيارة تاكسي يقودها ذلك الشخص الشاحب اللون الأصلع الذي ينطق بالإنكليزية بطلاقة، وهي إنكليزية تبدو أفضل من إنكليزيتي. قلت: «فندق الفيلوسوف؟».

سأل: «أنتم أميركيون؟».

«نعم»، قالت أمي. «نحن من إنديانا».

«إنديانا»، قال. «سرقوا الأرض من الهنود وتركوا الاسم، أليس كذلك؟».

«شيء من هذا القبيل»، قالت أمي. وخرج التاكسي إلى خط السير وتوجهنا إلى طريق سريع فيه الكثير من اللافتات الزرق التي تتضمن حروف علّة مزدوجة: «أووستويزن» (Oosthuizen)، «هاارلم» (Haarlem). وامتدت على أميال، إلى جانب الطريق، أرض منبسطة خاوية لا يقطعها بين الحين والآخر إلا مقارّ شركات ضخمة. وباختصار، بدت هولندا أشبه بإنديانا بوليس ولكن بسيارات أصغر حجماً. سألت سائق التاكسي، «أهذه أمستردام؟».

«نعم ولا»، أجاب. «فأمستردام مثل حلقات الشجرة تصبح أكثر قدماً كلما اقتربت من الوسط».

وحدث الأمر كله دفعة واحدة: خرجنا من الطريق السريع وها نحن نشاهد صفوفاً من المنازل التي تخيّلتها وهي تنحدر بشكل غير ثابت صوب القنوات، والدراجات الهوائية المنتشرة في كل مكان، والمقاهي التي تعلن عن توفُّر قاعة كبيرة للمدخنين. عبرنا إحدى القنوات وكان بإمكاني أن أرى من فوق الجسر عشرات المنازل العائمة الراسية على امتداد الماء. ولا يشبه ذلك أميركا في شيء. بدت أشبه بلوحة زيتية قديمة، ولكنها حقيقية ـ كل شيء شاعري بشكل موجع في ضوء الصباح ـ وفكّرت كم غريب بشكل رائع أن يعيش المرء في مكان بنى فيه الموتى تقريباً كل شيء.

سألتْ أمي: «هل هذه المنازل قديمة جداً؟».

قال: «يعود كثير من منازل القناة إلى العصر الذهبي، إلى القرن السابع عشر. للمدينة تاريخ غني على الرغم من أن كثيراً من السياح لا يريدون سوى رؤية حي البغاء Red Light District». وصمت قليلاً. «يعتقد بعض السياح أن أمستردام مدينة الخطيئة لكنها في الحقيقة مدينة الحرية. وفي الحرية يعثر كثير من الناس على الخطيئة».

سمِّيت كل غرف فندق الفيلوسوف بأسماء فلاسفة: نزلنا أنا وأمي في الطابق الأرضي في غرفة كيركغارد؛ وأغسطس في الطابق الذي فوقنا في غرفة هايدغر. غرفتنا صغيرة: سرير مزدوج حُشر عند أحد الجدران، وآلة تنفسي ومركزٌ للأكسجين ودزينة من مستوعبات الأكسجين التي يمكن إعادة تعبئتها موضوعة عند قدم السرير. ووراء المعدات مقعد منجّد قديم مغبّر ذو دكّة مترهّلة، ومكتب برف كتب فوق السرير، يحتوي على مجموعة كتب سورن كيركغارد. وجدنا على المكتب سلة من الخيزران ملأى بالهدايا من «الجنيات»: قباقيب خشبية، تي-شيرت هولندية برتقالية، شوكولا وغير ذلك من الأطايب المنوعة.

يقع «الفيلوسوف» تماماً إلى جانب الـ «فوندلبارك»، وهو المتنزّه الأشهر في أمستردام. أرادت أمي الذهاب في نزهة لكنني كنت متعَبة للغاية. فشغلَتْ جهاز التنفس ووضعت الخطم على أنفي. أكره الحديث حين يعمل الجهاز، لكنني قلت: «اذهبي إلى المتنزّه وسأتصل بك عندما أستيقظ».

«حسناً». قالت. «نامي جيّداً يا حبيبتي».

عندما استيقظت بعد ذلك ببضع ساعات، وجدتها جالسة في الكرسي القديم الصغير في الزاوية تقرأ دليلاً.

قلت: «صباح الخير».

«نحن في الواقع بعد الظهر»، أجابت وهي تدفع بنفسها عن الكرسي متنهدة. جاءت إلى السرير، وضعت مستوعباً في العربة ووصلته بالأنبوب فيما انتزعتُ خطم جهاز التنفس ووضعت الكانيولا في أنفي. ضبطَتْه على لِترين ونصف اللتر في الدقيقة ـ أي لمدة ست ساعات قبل أن أحتاج إلى تغييره ـ ثم نهضت. سألتني: «كيف تشعرين؟».

«بخير»، قلت. «رائعة. كيف وجدت فوندلبارك؟».

قالت: لم أذهب. لكنني قرأت كل شيء عنه في الدليل».

قلت: «أمي، لم يكن عليك البقاء هنا».

هزّت كتفيها. «أعرف. أردت ذلك. أحب مشاهدتك وأنت تنامين».

قلت: «أنت غريبة الأطوار». فضحكتْ إلا أنني بقيتُ أشعر بالاستياء. «أريد أن تستمتعي وما إلى ذلك هل تدركين ذلك؟».

«حسناً. سأستمتع الليلة. موافقة؟ سأذهب وأقوم بأمور تفعلها الأم المجنونة فيما تذهبين وأغسطس إلى العشاء».

سألتها: «من دونك؟».

قالت: «نعم، من دوني. لديكما حجز في مكان يُدعى أورانجي. مساعدة السيد فان هوتن تولت الأمر. ووفقاً للدليل هو موجود في حيّ راقٍ جدًّا يدعى «يوردان» هناك محطة عند الزاوية تماماً. التوجيهات

مع أغسطس. ويمكنكما تناول الطعام في الخارج ومشاهدة المراكب. سيكون أمراً رائعاً ورومانسياً جداً».

«أمي».

«لا أقصد شيئاً، هذا مجرّد كلام»، قالت. «يجب أن ترتدي ثيابك. ما رأيك بالفستان الصيفي؟».

قد يتعجّب المرء من جنون الموقف: أم ترسل ابنتها ذات السادسة عشرة وحدها مع فتى في السابعة عشرة إلى مدينة أجنبية تشتهر بتساهلها. لكن هذا هو أيضاً أحد التأثيرات الجانبية للاحتضار: لا يمكنني الركض أو الرقص أو تناول الأطعمة الغنية بالنيتروجين، غير أنني في مدينة الحرية واحدة من بين أكثر سكانها تحرّراً.

ارتديت بالفعل الفستان الصيفي ـ هذا الشيء المصبوغ بالأزرق، الفضفاض والمنسدل حتى الركبة ماركة «٢١ إلى الأبد» ـ مع جوارب طويلة ضيقة وحذاء «ماري جاينز» لأنني أحب أن أكون أقصر منه بكثير. دخلت إلى الحمام الضيّق بشكل هزلي وخضت معركة مع شعري الذي لم أكن قد سرّحته بعد، إلى أن بدا كل شيء متناسباً مع شكل نتالي بورتمان كما بدت في أواسط العقد الأول من الألفية الثانية. وعند السادسة مساء تماماً (ظهراً في دياري) قرع الباب.

«من؟»، سألت عبر الباب. فلا وجود لمنظار الباب في فندق الفيلوسوف.

«حسناً»، أجاب أغسطس. كان بإمكاني سماع صوت فمه وهو مطبق على السيجارة. تفقّدت نفسي. وأظهر الفستان عند حدود قفصي الصدري وترقوتي أكثر مما سبق لأغسطس أن شاهده. وهو ليس

خلاعياً أو ما شابه، لكنه يظهر أكثر ما أمكنني إظهاره من جسدي. (لدى أمي شعار في هذا المجال أتفق معه وهو: «آل لانكستر لا يعرّون جذوعهم»).

فتحت الباب، وشاهدت أغسطس ببِزّة سوداء ذات تلابيب ضيّقة، مفصّلة بإتقان، وقميص بالأزرق الفاتح وربطة عنق رفيعة سوداء. وقد تدلت سيجارة من طَرف فمه غير المبتسم. «هازل غريس»، قال. «تبدين رائعة».

«أنا»، قلت. وواصلت التفكير في أن ما تبقى من جملتي سيخرج مع الهواء الذي يعبر أوتاري الصوتية، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. إلى أن قلت أخيراً: «أشعر أنني أرتدي أقل مما يجب».

«آه تقصدين ذاك الكلام التقليدي؟»، قال وهو يبتسم لي.

«أغسطس»، قالت أمي من ورائي، «تبدو وسيماً للغاية».

«شكراً يا سيدتي». وقدم لي ذراعه فأخذتها وأنا أسترق النظر إلى أمي من ورائي.

قالت: «أراك عند الحادية عشرة».

قلت لأغسطس ونحن ننتظر الترام رقم واحد في شارع عريض مكتظ بالسيارات: «إنها، على ما أفترض، البِزّة التي ترتديها في المآتم؟».

«في الحقيقة، لا البِزّة ليست على هذه الدرجة من الأناقة».

وصل الترام الأزرق والأبيض وسلّم أغسطس بطاقتينا للسائق الذي شرح أنّ علينا التلويح بها أمام هذا الكاشف المستدير. وفيما نحن نسير داخل الترام المكتظ بالركاب وقف رجل متقدم في السن لنقعد مكانه،

وحاولت أن أطلب منه البقاء جالساً لكنه لوّح بإصرار صوب المقعد. قطعنا ثلاث محطات، وأنا أنحني على غاس ليتمكن كلانا من النظر عبر النافذة.

أشار أغسطس إلى الأشجار وقال: «أترين ذلك؟».

رأيت أشجار الدردار الموجودة في كل مكان على امتداد القناة والبذور تتطاير منها. لكنها لا تبدو بذوراً. بدت أكثر شبهاً بتويجات ورد مصغرة وقد أُزيلت عنها ألوانها. وتجمّعت الآلاف من هذه التويجات الباهتة في الريح كأنها أفواج الطيور - مثل عاصفة الربيع الثلجية.

شاهدَنا الرجل المتقدم في السن الذي تخلّى لنا عن مقعده، وقد لاحظنا الأمر، وقال بالإنكليزية، «ثلج ربيع أمستردام. أشجار الدردار ترمي قصاصات الأوراق ترحيباً بالربيع».

انتقلنا إلى ترام آخر، ووصلنا بعد أربع محطات إضافية إلى شارع جميل تقطعه قناة رائعة، وقد تموّجت في الماء انعكاسات الجسر القديم ومنازل القناة الجميلة.

يقع مطعم «أورانجي» على بعد خطوات فقط من الترام، عند جانب من الشارع؛ والجلسة الخارجية عند الجانب المقابل، فوق مكان خرساني ناتئ عند حافة القناة. أضاءت عينا المضيفة لما سرت وأغسطس في اتجاهها. «السيد والسيدة واترز؟».

قلت: «أعتقد؟».

«طاولتكما»، قالت وهي تشير إلى الطرف المقابل من الشارع حيث طاولة ضيقة تبعد إنشات قليلة عن القناة. «الشمبانيا هدية منّا».

تبادلنا النظرات ونحن نبتسم. وما إن عبرنا الشارع حتى سحب الكرسي وساعدني في إعادتها إلى الأمام. وقد علا بالفعل كأسان من الشمبانيا طاولتنا المغطاة بشرشف أبيض. ووازنت أشعة الشمس بشكل رائع، البرودة الخفيفة في الهواء؛ أخذ الدراجون يدوسون عابرين عند أحد جوانبنا: رجال ونساء بثياب مرتبة في طريق عودتهم إلى المنزل؛ شقراوات جذابات بشكل لا يُصدّق يركبن جانبياً في مؤخرة دراجة صديق؛ وأولاد صغار جداً من دون خوذات يقفزون في المقاعد البلاستيكية وراء أهلهم. اختنقت القناة في الجانب الآخر بملايين البذور الشبيهة بقصاصات ورق الزينة؛ ورست الزوارق الصغيرة عند الضفاف القرميدية وقد امتلأ نصفها بمياه الشتاء وبعضها يشارف على الغرق. تمكّنت أن أرى على مسافة أبعد قليلاً مراكب صالحة للسكن تطوف على عوامات، وفي وسط القناة مركب مكشوف ذو قعر مسطح وقد وُضعت على سطحه كراسي حديقة وجهاز ستيريو محمول مطفأ موجّه صوبنا. أمسك أغسطس بكأس الشمبانيا ورفعه. وأمسكت بكأسي على الرغم من أنني لم أتناول أي مشروب، ما عدا بعض الرشفات من بيرة والدي.

«حسناً»، قال.

«حسناً»، قلت، وقرعنا كأسينا. أخذت رشفة. ذابت الفقاعات الصغيرة في فمي وبلغت نخاعي. عذبة، منعشة ولذيذة. قلت: «إنها جيدة فعلاً. لم يسبق لي أبداً أن شربت الشمبانيا».

ظهر نادل قوي البنية ذو شعر متموّج أشقر. وهو ربما أكثر طولاً من أغسطس. قال بلكنة محبّبة: «أتعرفان ما قاله دوم بيرينيون بعد اختراعه الشمبانيا؟».

«كلا»، قلت.

«نادى على رفاقه الرهبان: تعالوا بسرعة، فأنا أتذوّق النجوم». وبعد قليل قال النادل: «أهلاً بكما في أمستردام. أتريدان رؤية قائمة الطعام أم تريدان خيار رئيس الطهاة؟».

نظرت إلى أغسطس ونظر هو إليّ وقال: «يبدو خيار رئيس الطهاة رائعاً، لكن هازل نباتية». سبق أن أشرت إلى ذلك مرّة واحدة بالتحديد في اليوم الأول للقائنا.

قال النادل: «هذه ليست مشكلة».

«رائع. أيمكننا الحصول على مزيد من هذه؟». سأل غاس عن الشمبانيا.

«بالتأكيد»، قال النادل. «عبأنا هذا المساء كل النجوم في زجاجات يا صديقيّ الشابين. ياه، قصاصات ورق الزينة!» قال، ونفض برفق إحدى البذور عن كتفي العارية. «لم يسبق أن بلغ الأمر هذه الدرجة من السوء منذ أعوام كثيرة. إنها في كل مكان، وهذا مزعج جداً».

اختفى النادل. راقبنا قصاصات ورق الزينة تسقط من السماء وتنزلق في النسيم على الأرض وتسقط في القناة. قال أغسطس بعد برهة: «يكاد يصعب تصديق أنّ أحدا يمكن أن يجد ذلك مزعجاً».

«ومع ذلك، يعتاد الناس الجمال».

أجاب مبتسماً: «لم أصل إلى حد التعوّد عليك بعد». وشعرت بنفسي أحمرَ خجلاً. قال: «شكراً على مجيئك إلى أمستردام».

قلت: «شكراً لأنك سمحت لي باختطاف أمنيتك».

قال: «أشكرك على ارتدائك ذلك الفستان الذي هو أكثر من رائع». هززت رأسي محاولة ألا أبتسم له. لم أرد أن أكون قنبلة يدوية. إلا أنه يعرف ما الذي يقوم به، أليس كذلك؟ إنه خياره أيضاً. سألني، «هاي، كيف تنتهي تلك القصيدة؟».

.«هاه؟».

«تلك التي تلوتها عليّ في الطائرة».

«آه، بروفروك؟[1] تنتهي بـ«تسكّعنا في حجرات البحر / بجانب فتيات البحر المكلّلات بعشب البحر الأحمر والبني / إلى ان أيقظتنا الأصوات البشرية، وغرقنا».

سحب أغسطس سيجارة وربّت بفلترها على الطاولة. «الأصوات البشرية الحمقاء التي تخرب دوماً كل شيء».

وصل النادل يحمل كأسين إضافيتين من الشمبانيا وما أسماه «الهليون البلجيكي الأبيض المنقوع باللافندر».

بعدما غادر، قال أغسطس: «لم يسبق لي أنا أيضاً أن تناولت الشمبانيا. وفي حال كنت تسألين نفسك فإنني لم أحظَ أبداً بالهليون الأبيض».

قلت واعدة وأنا أمضغ قضمتي الأولى: «إنها مذهلة».

قضم قطعة وابتلعها. «يا إلهي. لو أن طعم الهليون كهذا كل الوقت لأصبحت أنا أيضاً نباتياً». اقترب منا بعض الناس في مركب

---

(١) أغنية حب ج. ألفرد بروفروك للشاعر الأميركي - الإنكليزي تي. أس. إيليوت. (المترجم)

خشبي مطلي بالورنيش في القناة من تحتنا. شربت إحداهن، وهي امرأة ذات شعر أشقر مجعّد، من كوب البيرة ثم رفعت الكوب صوبنا وقالت شيئاً.

صاح غاس: «نحن لا ننطق بالهولندية».

وصاح واحد من الآخرين مترجماً: «الثنائي الجميل جميل».

بلغت جودة الطعام حداً احتفلنا فيه، مع كل طبق جديد بلذة الطعام ونحن نقول: «أريد أن يتحول هذا الريسوتو بالجزر الأحمر إلى رَجُل لأتمكن من أخذه إلى لاس فيغاس والزواج منه». «يا شراب الجلبان العطر أنت رائع بشكل لا يُتوقَّع». وددت لو أنني أكثر جوعاً.

قال النادل، بعد طبق الباستا بالثوم الأخضر وأوراق الخردل، «الطبق التالي هو الحلوى. هل تريدان مزيداً من النجوم قبل ذلك؟» أومأت برأسي نافية. فكأسان كافيتان بالنسبة لي. ولا تشكل الشمبانيا استثناء لقدرتي الكبيرة على تحمّل مسكنات الاكتئاب والألم؛ شعرت بالدفء لا بالثمالة، ولم أرد ان أسكر. فلا يحصل المرء غالباً على ليالٍ كهذه، وأردت أن تكون ليلة تُذكر.

«هممم»، قلت بعد مغادرة النادل، وابتسم أغسطس ابتسامة ملتوية وحدّق إلى أسفل القناة فيما حدّقتُ إلى أعلاها. هناك كثير لنتطلع إليه، وبالتالي لم يبدُ الصمت في غير محله، حقّاً، لكنني أردت أن، يكون كل شيء كاملاً، على ما أعتقد، ومع ذلك بدا الأمر شبيهاً بمحاولة أحدهم رسم صورة لامسترادام في مخيلتي ما يجعل من الصعب نسيان أن هذا العشاء، على غرار الرحلة نفسها، ليس إلا امتيازاً خاصاً لمرضى السرطان. أردت فقط أن نحكي ونمزح بشكل

مريح كما فعلنا على الأريكة ونحن في الديار، إلا أن بعض التوتّر تخلّل كل شيء.

«هذه ليست بزّتي الجنائزية»، قال بعد فترة. «عندما اكتشفت للمرة الأولى أنني مريض ـ أقصد أنهم أبلغوني أن نسبة تماثلي للشفاء تبلغ ثمانين بالمئة. أعرف أن هذه احتمالات رائعة، إلا أنني بقيت أفكر في أن الأمر يشبه لعبة روليت روسية. أقصد أنني سأعيش فترة جحيمية على مدى ستة أشهر أو سنة وأفقد ساقي، وفي النهاية قد لا ينجح الأمر، أتعلمين؟».

«أعلم»، قلت، على الرغم من أنني لم أعرف حقّاً. فأنا لم أكن حالة قاتلة؛ وسَعَتْ علاجاتي كلها إلى تمديد حياتي وليس إلى شفاء سرطاني. وأدخل الفالانكسيفور مقداراً من الغموض على قصة سرطاني، إلا أنني أختلف عن أغسطس: لقد كُتب فصلي النهائي عند التشخيص. أما غاس فيعيش، مثل معظم الناجين من السرطان، في حال من عدم اليقين.

قال: هذا صحيح. لقد مررت عبر كل ذلك الأمر الذي يقضي بأن أكون على أهبة الاستعداد. اشترينا قطعة أرض في كراون هيل، وجلت فيها يوماً بصحبة والدي واخترت بقعة. وخطّطت لكامل مأتمي وكل شيء، ثم، وقبل العملية الجراحية تماماً، سألت أهلي إذا كان في وسعي شراء بزّة جميلة أرتديها فقط في حال موتي. على أي حال، لم تسنح لي فرصة ارتدائها إلا الليلة.

«هذه إذاً بزّة دفنك».

«صحيح. ألا تملكين ثوباً للموت؟».

«نعم، أملك. إنه ثوب اشتريته لحفلة عيد ميلادي الخامس عشر. لكنني لا أرتديه في المواعيد».

أشرقت عيناه، وسأل: «هل نحن في موعد؟».

خفضت نظري وقد شعرت بالخجل. «لا تربكني».

شبع كلانا فعلاً. لكن الحلوى، «وهي كريمو» *crémeux* فاخر نضر، محاط بثمار زهرة الآلام ـ أطيب من أن يكتفي منها المرء بقضمة، تباطأنا في أكل الحلوى منتظرين أن نشعر بالجوع من جديد. والشمس أشبه بطفل يرفض بإصرار أن يأوي إلى السرير: تجاوزت الساعة الثامنة والنصف ولا يزال هناك ضوء.

سألني أغسطس، فجأة وعلى غير توقّع: «هل تؤمنين بالحياة الأخرى؟».

أجبت: «أعتقد أن الأبد مفهوم خاطئ».

تكلّف الابتسام. «أعتقد أنكِ أنت مفهوم خاطئ».

«أعرف. ولهذا يتم إخراجي من دورة الحياة».

«ذلك ليس مضحكاً»، قال وهو ينظر إلى الشارع. عبرت فتاتان على دراجة، إحداهما تدوس والأخرى تجلس جانباً فوق الإطار الخلفي.

«هيا»، قلت. «إنها مزحة».

«فكرة إخراجك من دورة الحياة ليست بمزحة بالنسبة إليّ»، قال. لكن جدّياً: ماذا عن الحياة الأخرى؟».

«لا»، قلت، ثم أعدت النظر. «حسناً، ربما لن أذهب إلى حد قول لا. وأنت؟».

«نعم»، قال بصوت ملؤه الثقة. «نعم، قطعاً. ليس الأمر شبيهاً بجنة يمتطي فيها المرء حريشاً[1]، ويعزف على القيثارة، ويعيش في قصر من الغيوم. لكن نعم. أؤمن بشيء. ولطالما فعلت».

وقلت: «أحقاً؟». وقد فوجئت. فأنا، حقاً، قد ربطت دوماً الإيمان بنوع من التحليل الفكري. لكن غاس ليس أحمق.

«نعم»، قال بهدوء. «أؤمن بهذه الجملة من «محنة عظيمة» الشمس المشرقة أيضاً ساطعة في عينيها الآخذتين في الضياع. ذلك هو اللّه، كما أعتقد، شمس مشرقة وضوء ساطع جدّاً وعيناها آخذتان في الضياع لكنهما لم تضيعا. لا أعتقد أننا نعود لنطارد الأحياء أو نريحهم، أو أي شيء من هذا القبيل، لكنني أعتقد أن أمراً ما يحدث لنا».

«لكنك تخاف النسيان».

«طبعاً، أخشى نسيان الناس لي. لا أريد أن أبدو مثل أهلي، لكنني أعتقد أن للبشر أنفساً، وأؤمن ببقاء الروح. أما الخوف من النسيان فأمر آخر، إنه الخوف من أن لا أتمكن من إعطاء أي شيء لقاء حياتي. فعلى المرء إذا لم يعش حياة في خدمة الخير الأعظم، أن يموت على الأقل في خدمة الخير الأعظم، أتعرفين؟ وأخشى من أنني لن أحظى بحياة أو بموت يعنيان أي شيء».

اكتفيت بهز رأسي.

قال: «ماذا؟».

---

(١) حصان أسطوري أبيض ذو قرن وحيد. (المترجم)

قلت: «إن هاجسك بأمر مثل الموت في سبيل شيء أو لكي تترك وراءك علامة عظمى على بطولتك أو أي شيء، إنما هو غريب».

«كل واحد يريد أن يعيش حياة استثنائية».

«ليس كل واحد»، قلت وأنا عاجزة عن إخفاء ضيقي.

«أمجنونة أنت؟».

«الأمر فقط...»، قلت، ولم أتمكّن من إكمال جملتي. «فقط... قلت من جديد. وتراقص نور الشمعة في ما بيننا. «من الشناعة أن تقول إن الحياة الوحيدة التي تهم هي تلك التي نعيش فيها من أجل شيء ما أو الموت في سبيل شيء ما. وهذا أمر شنيع حقاً تقوله لي».

شعرت لسبب ما كأنني طفلة صغيرة. تناولت قضمة من الحلوى لأوحي بأن الأمر ليس بالشيء العظيم بالنسبة إليّ.

قال: «آسف. لم أقصد الأمر على هذا النحو. كنت أفكر في نفسي فقط».

قلت: «نعم، كنت». شبعت تماماً ولم أستطع الإكمال. خشيت في الواقع أنني قد أتقيأ، لأنني غالباً ما أتقيأ بعد الأكل. (ليس بسبب الشره المرضي بل بسبب السرطان). دفعت بصحن الحلوى في اتجاه غاس لكنه نفى بهزة من رأسه.

«آسف»، قال من جديد ومدّ يده إلى يدي، فتركته يأخذها. «تعلمين، كان يمكن أن يكون الأمر أكثر سوءاً».

«كيف؟»، سألت مداعبة.

«أقصد، يا هازل، لديّ نص مخطوط فوق مرحاضي يقول: استحم يومياً بعزاء كلمات اللّه. أمكنني أن أكون أكثر سوءاً بكثير».

قلت، «يبدو ذلك غير صحي».

«أمكنني أن أكون أكثر سوءاً».

ابتسمتُ. «أمكنك أن تكون أكثر سوءاً». إنه معجب بي فعلاً ربما لأنني نرجسية أو أي شيء من هذا القبيل. لكن ما إن أدركت ذلك في تلك اللحظة وأنا في أورانجي حتى ازددت إعجاباً به.

قال النادل لما جاء لرفع الحلوى عن الطاولة، «دفع السيد بيتر فان هوتن ثمن وجبتكما».

ابتسم أغسطس وقال: «هذا البيتر فان هوتن ليس سيئاً أبداً».

سرنا إلى جانب القناة مع حلول الظلام. وتوقفنا على بعد مجموعة أبنية من أورانجي عند مقعد متنزه محاط بدراجات قديمة صدئة مترابطة برفوف. جلسنا ملتصقين في مواجهة القناة، وأحاطني بذراعه.

رأيت هالة النور المتصاعدة من حي الضوء الأحمر (حي البغاء). على الرغم من أن اسمه حي الضوء الأحمر، فإن الهالة المتصاعدة منه كانت تشع بلون أخضر غريب. تخيلت آلاف السياح السكارى أو المنتشين من المخدّر يتحركون في كل الاتجاهات حول الشوارع الضيقة.

«لا أصدق أنه غداً سيخبرنا»، قلت. «سيخبرنا بيتر فان هوتن النهاية الشهيرة غير المكتوبة لأفضل كتاب على الإطلاق».

قال أغسطس: «أضيفي إلى ذلك أنه دفع ثمن عشائنا».

«أتخيّل انه سيفتشنا بحثاً عن آلات تسجيل قبل أن يخبرنا

وسيجلس بيننا على أريكة غرفة جلوسه ويهمس لنا بالإجابة عن السؤال: هل تزوجت والدة آنّا رجل الخزامى الهولندي».

«لا تنسي الهامستر سيزيفس»، أضاف أغسطس.

«صحيح، وأيضاً ما هو المصير الذي ينتظر الهامستر سيزيفس». انحنيت إلى الأمام لأنظر في قلب القناة. ثمة كثير من تويجات الدردار الشاحبة تلك في القنوات وكان ذلك غير معقول. وقلت: «هذه تكملة للقصة من أجلنا وحسب».

سأل: «ما هو توقعك إذاً؟».

«في الحقيقة لا أعرف. فقد قلّبت الأمر كله في كل الاتجاهات نحو ألف مرة. أتعرف أنني في كل مرة أعيد قراءته أفكر في أمر مختلف؟». وهز برأسه موافقاً. «ألديكَ نظرية؟».

«نعم. لا أعتقد أن رجل الخزامى الهولندي نصّاب، لكنه ليس غنيّاً أيضاً كما دفع بهما إلى الاعتقاد. وأظنّ أن الأم ذهبت معه إلى هولندا بعد وفاة آنّا، واعتقدتْ أنها ستعيش هناك إلى الأبد، لكن الأمر لم ينجح لأنها أرادت أن تبقى على مقربة من مكان ابنتها».

لم أدرك أنه فكّر في الكتاب بهذا القدر، وبأن لـ «محنة عظيمة» أهمية لدى غاس مستقلة عن أهميتي عنده.

ارتطمت المياه بهدوء بالجدران الحجرية للقناة من تحتنا؛ مرّت مجموعة من الأصدقاء على الدراجات يتصايحون بالهولندية السريعة الحلقية؛ غرقت المراكب الصغيرة التي لا تزيد عن حجمي مدة طويلة، إلى نصفها في القناة؛ وفاحت رائحة المياه التي بقيت راكدة كثيراً من

الوقت؛ ذراعه تشدني إليه؛ رجْله الحقيقية إلى جانب رجلي الحقيقية من الخصر وصولاً إلى القدم. اتكأت نوعاً ما على جسمه، فانكمش.

«عفواً. هل أنت بخير؟».

زفر «نعم» بألم ظاهر.

«آسفة. كتف ناتئة العظام».

«لا بأس. هذا لطيف».

جلسنا في المكان فترة طويلة. ورفع ذراعه في النهاية عن كتفي واستندت إلى ظهر مقعد المتنزّه. حدّقنا في الغالب إلى القناة. وفكّرت كثيراً كيف أنهم أوجدوا هذا المكان الذي يفترض به أن يكون تحت الماء، وكيف أنني بالنسبة إلى الدكتورة ماريّا أشبه أمستردام إلى حدّ ما، خلل نصف غارق، وهو ما جعلني أفكر في الموت. «أيمكنني سؤالك عن كارولين ماذرز؟».

«وتقولين لا حياة أخرى بعد الموت»، أجاب من دون أن ينظر إليّ. «لكن نعم، طبعاً. ما الذي تريدين معرفته؟».

أردت أن أعرف أنه سيكون بخير إذا متّ. أردت ألا أكون قنبلة يدوية، أو قوة مؤذية في حياة الناس الذين أحبهم. قلت: «ماذا جرى بالضبط».

تنهّد، وزفر وقتاً طويلاً بحيث تخيلت أن رئتيه تتفاخران بقدرتهما على الزفير أمام رئتي التعيستين. دفع بسيجارة جديدة إلى فمه. «تعرفين أن ملعب المستشفى قليلاً ما يُقصد للعب فيه». أومأت برأسي موافقة. «حسناً أمضيت في مستشفى «ميموريال» أسبوعين، وخلالهما بُترت رجلي. كنت في الطابق الخامس في غرفة تُطل على الملعب الذي بقي

طبعاً مقفراً تماماً. وكنت مغموراً كلياً بالدلالات الرَمزية التي يحملها الملعب الفارغ في فناء المستشفى، إلى أن شرعت تلك الفتاة تظهر وحدها فيه يومياً تترجّح على الأرجوحة وحدها تماماً كما يشاهد المرء ذلك في فيلم سينمائي. ولذا طلبت من واحدة من ألطف ممرضاتي أن تأتيني بالأخبار الكاملة عن الفتاة، فجاءت بها الممرضة للزيارة، وكانت كارولين. واستخدمتُ سحري الهائل لكسب ودها». وتوقف، فقررت أن أقول شيئاً.

«لستَ على هذا القدر من السحر»، قلت. وسخر وهو غير مصدّق. وشرحْتُ: «أنت على الأغلب مثير فقط».

أضحكه ذلك، وقال: «الأمر المتعلق بالموتى»، توقّف ثم أضاف: «الأمر هو أنك تبدو كالوغد إذا لم تجعلهم رومانسيين، لكن الحقيقة هي معقّدة على ما أعتقد. وأنت تألفين العبر المستخلصة من قصة ضحية من ضحايا السرطان تحارب هذا المرض بصبر وتصميم وبطولة وقوة تفوق قدرة البشر، ولا تشتكي أو تكف عن الابتسام حتى في النهاية القصوى، الخ».

قلت: «بالفعل. فهي أرواح طيبة القلب وسخية، يشكّل كل نَفَس منها وحياً لنا جميعاً. وهي على درجة كبيرة من القوة! ونكن لها كثيراً من الإعجاب!».

«صحيح، لكن حقّاً، أقصد أن الأولاد المصابين بالسّرطان، بمعزل عنّا بالتأكيد، تبيّن إحصائيا أنهم ليسوا من النوع البطولي أو المتعاطف أو المثابر. فكارولين تميزت دوماً بالمزاجية والبؤس، لكنني أحببت ذلك. أحببت الشعور بأنها اختارتني بوصفي الشخص الوحيد في العالم الذي

لا تكرهه. وهكذا أمضينا كل هذا الوقت معاً ننتقد الجميع. أتفهمين ننتقد الممرضات والأولاد الآخرين وعائلتينا وكل من سواهم. لكنني لا أعرف إن كان للأمر علاقة بها أو بالورم. أقصد أن إحدى الممرضات قالت لي يوماً إن نوع الورم الذي أصاب كارولين يُعرف من بين الأنواع الطبية بأنه «ورم الأحمق»، لأنه يحولك إلى مسخ. وهاك بالتالي هذه الفتاة التي فقدت خُمس دماغها وقد عاودها «ورم الأحمق»، ولم تكن، كما تعرفين، النموذج المثالي للولد البطل الصبور المصاب بالسرطان. كانت أقصد، ولأكن صادقاً، فاجرة. لكن لا يسع المرء قول هذا لأنها مصابة بهذا الورم، ولأنها أيضاً، أعني أنها ميتة. وقد امتلكت ما يكفي من الأسباب لتكون بغيضة، أتعرفين؟».

«عرفت».

«تعرفين ذلك الجزء من «محنة عظيمة» عندما تمشي آنّا عبر ملعب كرة القدم للمشاركة في الرياضة البدنية وتقع، وتهرس العشب وتعرف حينئذاك أن السرطان عاودها، وأنه في جهازها العصبي، ولا تستطيع النهوض، وتبقى عالقة في مكانها تنظر إلى العشب عن كثب وتلاحظ كيف يشع الضوء عليه و... لا أذكر تلك الجملة لكنها تتضمن شيئاً عن هبوط وحي «ويتماني» عليها[1] بأن تعريف الإنسانية هو فرصة الاندهاش بعظمة الخلق أو ما شابه. أتعرفين ذلك الجزء؟».

قلت: «أعرف ذلك الجزء».

«وهكذا، وفيما العلاج الكيميائي ينتزع أحشائي، قررت، ولسبب من الأسباب، أن أشعر بأنني مفيد فعلاً. ولا يتعلّق الأمر تحديداً بالبقاء

(١) نسبة إلى الشاعر الأميركي والت ويتمان. (المترجم)

ى قيد الحياة، لكنني شعرت، كما تفعل آنًا في الكتاب، بتلك الإثارة لعرفان بالجميل لتمكني من الاندهاش بذلك كله وحسب.

«لكن كارولين أخذت تصبح في هذه الأثناء أكثر سوءاً مع مرور ، يوم. وعادت إلى المنزل بعد فترة ومرّت أوقات فكّرتُ فيها بإمكان ، نحظى بما يشبه العلاقة المنتظمة، لكننا لم نتمكن، فعلاً، لأنها تمتلك مصفاة بين أفكارها وكلامها، وهو الأمر المحزن والبغيض لمؤذي في الغالب. لكن، أعني، لا يمكنك التخلي عن فتاة مصابة رم في الدماغ. وقد أحبني أهلها، ولديها هذا الشقيق الأصغر منها و فتى رائع فعلاً. أعني، كيف يمكنك التخلي عنها؟ فهي تحتضر.

«دام الأمر إلى ما لا نهاية، دام ما يقارب السنة، أمضيتها مع هذه ـتاة التي تضحك من دون أي سبب وتشير إلى رجلي الاصطناعية دعوني بالقصير الممتلىء الجسم.

«لا»، قلت.

«نعم. أقصد أنه الورم. فقد أتلف دماغها. وربما ليس الورم. لا تلك أي وسيلة لمعرفة ذلك، لأنهما، هي وورمها، لا ينفصلان. لكن ، اشتداد مرضها، كانت تعمد إلى تكرار القصص نفسها وتضحك من ليقاتها حتى لو سبق أن قالت الأمر نفسه مئة مرة في ذلك اليوم. مثل ادها النكتة نفسها مراراً وتكراراً على مدى أسابيع: (غاس يمتلك علين رائعتين. أقصد رجلاً واحدة). وتشرع من ثم في الضحك لمعتوهة».

قلت: «آه، غاس. هذا ولم أعرف ماذا أقول. لم ينظر إليّ، معرت بأن النظر إليه ينتهكه. شعرت به يندفع إلى الأمام. أخرج

السيجارة من فمه وحدّق إليها، وفتلها بين إبهامه وسبابته، ثم أعادها.

«حسناً»، قال. «لنكن منصفين، فأنا أمتلك رجلاً رائعة».

«أنا آسفة»، قلت. «آسفة فعلاً».

«الأمر كله جيّد، يا هازل غريس. ولكن، توضيحاً للأمر وحسب، عندما اعتقدتُ أنني شاهدت طيف كارولين ماذرز في مجموعة الدعم، لم أشعر كلّياً بالسعادة. أخذت أحدّق لكنني لم أتلهّف، إذا عرفت ما أعنيه». أخرج العلبة من جيبه وأعاد وضع السيجارة فيها.

«أنا آسفة»، قلت من جديد.

قال: «وأنا أيضاً».

قلت له: «لن أفعل ذلك بك أبداً».

«أوه، لن أمانع يا هازل غريس. إنه لامتياز لي أن يتحطّم قلبي على يدك».

الفصل الثاني عشر

استيقظت عند الرابعة من الصباح الهولندي على أُهْبة الاستعداد للنهار. فشلتُ في العودة إلى النوم، فاستلقيت وجهاز التنفس يضخّ الهواء إلى الداخل ويحثّه على الخروج، وأنا استمتع بأصوات التنين متمنية في الوقت نفسه لو كان بإمكاني اختيار طريقة تنفّسي بنفسي.

أعدت قراءة «محنة عظيمة» إلى أن استفاقت أمي قرابة السادسة وأسرعت صوبي. استكانت برأسها على كتفي ما أشعرني بعدم الراحة وبنوع من الاحساس الاغسطي [نسبة إلى أغسطس].

أرسل الفندق الفطور إلى غرفتنا وقد تضمّن، ويا لفرحتي الكبرى، لحماً معلّباً ضمن غيره من مأكولات «الفطور الأميركي». الثوب الذي كنت أنوي ارتداءه للقاء بيتر فان هوتن سبق أن ارتديته في عشاء «أورانجي». وبعد أن استحممت وتركت شعري ينسدل بملوسة إلى نصفه، أمضيت نحو ثلاثين دقيقة أناقش مع أمي مختلف حسنات الثياب المتوفرة وسيئاتها قبل أن أقرّر ارتداء القدر الممكن من الثياب

الشبيهة بثياب آنا حذاء تشاك تايلور وجينز داكن اللون كالذي ترتديه دائماً وتي - شيرت زرقاء فاتحة.

وقد طُبع على القميص رَسْم لرينيه ماغريت هو غليون كُتب تحته بخط متصل Ceci n'est pas une pipe(*)

قالت أمي: «أنا لم أستوعب ما يعنيه القميص»

«سيفهمه بيتر فان هوتن، صدقيني. ثمة ما قد يصل إلى ألف إشارة إلى ماغريت في «محنة عظيمة».

«لكنه غليون».

«لا، ليس كذلك»، قلت. «إنه رسم للغليون. أتدركين؟ فكل تصوير للأشياء تجريدي بطبيعته. وهذا عمل ذكي جداً».

سألتني: «كيف أصبحت على هذا القدر من النضج لتفهمي أشياء تختلط على والدتك العجوز؟ يبدو كأنني، بالأمس، أخبر هازل ابنة السابعة عن سبب زرقة السماء. اعتقدتِ يومها أنني عبقرية».

وسألتها: «لماذا السماء زرقاء؟».

«لأنه»، أجابت. وضحكتُ.

أخذ توتّري يزداد مع اقتراب الساعة العاشرة: متوتّرة من رؤية أغسطس؛ متوتّرة من لقاء بيتر فان هوتن؛ متوتّرة من أن ما أرتديه ربما ليس جيداً؛ متوتّرة من أننا قد لا نعثر على المنزل المنشود لأن كل منازل أمستردام تتشابه إلى حد كبير؛ متوتّرة من أننا قد نتيه ولا نتمكن من العودة إلى الفيلوسوف؛ متوتّرة، متوتّرة، متوتّرة. استمرت أمي في محاولة التحدث معي إلا أنني لم أتمكن فعلاً من الاستماع. ولما

(*) هذا ليس غليوناً.

أوشكت أن أطلب منها أن تصعد إلى الطابق العلوي لتتأكد من أن أغسطس قد نهض، قرع الباب.

فتحت له. نظر إلى القميص وابتسم وقال: «مضحك».

وأجبته: «لا تصف صدري بالمضحك».

«أنا هنا»، قالت أمي من ورائنا. إلا أنني جعلت أغسطس يحمرّ خجلاً والكف عن ممارسة ألاعيبه هذه بحيث أمكنني في النهاية تحمّل رفع نظري إليه.

وسألتُ أمي: «أمتأكدة أنت من أنك لا تريدين المجيء؟».

قالت: «سأذهب اليوم إلى متحف ريكسموزيوم وإلى متنزّه فوندلبارك. ثم إنني لا أستوعب كتابه. ولا أقصد الإهانة. اشكريه وليدوفيه عنا، حسنا؟».

«حسناً»، قلت. عانقت أمي وقبلت رأسي فوق أذني تماماً.

يقع منزل بيتر فان هوتن الأبيض حول زاوية الفندق تماماً، في شارع فوندلسترات في مواجهة المتنزّه. رقمه ١٥٨ أمسكني أغسطس بإحدى ذراعيه وأمسك عربة الأكسجين بالأخرى، وصعدنا الدرجات الثلاث إلى بوابة المدخل المطلية بالأزرق الد إلى الأسود. خفق قلبي بشدة، إذ لا يفصلني إلّا باب موصَد عن معرفة الأجوبة التي حلمت بها منذ أن قرأت للمرة الأولى الصفحة الأخيرة غير المكتملة.

كان بإمكاني أن أسمع من الداخل صوت موسيقى بايقاع جهير يطرق بقوة كافية لجلجلة حوافي النوافذ. وسألت نفسي إذا كان لبيتر فان هوتن ولد يحب موسيقا الراب.

أمسكت بمطرقة الباب وهي على هيئة رأس أسد وقرعت بتردّد. استمر الإيقاع. وسأل أغسطس: «ربّما يحول صوت الموسيقا المرتفع دون أن يسمع؟». وأمسك برأس الأسد وقرع بقوة أكبر.

اختفت الموسيقا، وحل محلّها صوت خطوات متثاقلة. انزلق مزلاج، وآخر. وفتح الباب. وقف رجل، ذو كرش، خفيف الشعر، مترهّل الفك الأسفل وذو لحية عمرها أسبوع، وقد انعكس على وجهه ضوء الشمس فأغمض عينيه نصف إغماضة. كان يرتدي بيجاما رجالية باللون الأزرق الولّادي تشبه التي يرتديها الرجال في الأفلام القديمة. وجهه وكرشه مستديران جدّاً وذراعاه نحيلتان كثيراً بحيث بدا أشبه بقرص عجين غُرزت فيه أربعة قضبان. «السيد فان هوتن؟». سأله أغسطس وصوته يصرّ بعض الشيء.

صفق الباب. وسمعت من ورائه صوتاً متلعثماً قصبيّاً يصيح «ليبي-دا-فيغ!» (كنت ألفظ اسم مساعدته بهذا الشكل: «ليدوفيه» حتى سمعت لفظه).

سمعنا كل شيء عبر الباب. وقد سألته إمرأة: «هل هما هنا، يا بيتر؟».

«هناك - يا ليدوفيه، هناك ظهور لمراهقين اثنين خارج الباب».

«ظهور؟»، سألت بإيقاع هولندي ممتع.

وأجاب فان هوتن بعجلة: «هذه خيالات أشباح وغيلان زائرة، ظهورات لكائنات ما بعد-أرضية، يا ليدوفيه. كيف يمكن لمن يتابع شهادة الدراسات العليا في الأدب الأميركي أن تكون مهاراته اللغوية الانكليزية فظيعة إلى هذا الحدّ؟».

«بيتر، هذان ليسا كائنين ما بعد أرضيين. إنهما أغسطس وهازل، المعجبان الشابان اللذان راسلتهما».

«إنهما... ماذا؟ إنهما... اعتقدت أنهما في أميركا!».

«نعم، وستتذكر أنك دعوتهما إلى هنا».

«أتعرفين لماذا تركت أميركا، يا ليدوفيه؟ حتى لا ألتقي أبداً من جديد أي أميركي».

«لكنك أميركي».

«بما لا شفاء منه، على ما يبدو. أما بالنسبة إلى هذين الأميركيين فيجب أن تطلبي منهما الرحيل فوراً، وأن توضحني لهما أن خطأ فظيعاً قد وقع، وأن فان هوتن المبارك قدّم عرضاً باللقاء بتعبير بلاغي وليس عرضاً فعليّاً، وأنّ مثل هذه العروض يجب ان تُفسّر رمزياً».

شعرت بأنني سأتقيأ. تطلّعت إلى أغسطس ووجدته يحدّق باهتمام شديد إلى الباب ورأيت كتفيه مرتخيتين.

«لن أفعل هذا يا بيتر»، أجابت ليدوفيه. «يجب أن تقابلهما. يجب عليك ذلك. عليك أن تراهما. يجب أن ترى مدى أهمية عملك».

«ليدوفيه، هل خدعتني عن سابق تصـ ـلترتيب هذا؟».

تبع ذلك صمت طويل، فتح من بعده الباب في النهاية. أدار رأسه بحركة تشبه بندول الإيقاع من أغسطس إليّ، وهو لا يزال يغمض عينيه نصف إغماضة. سأل «من منكما أغسطس واترز؟» رفع أغسطس يده بتردّد. هزّ فان هوتن برأسه وقال، «هل أبرمت الصفقة مع تلك الفتاة؟» (بمعنى «هل ضاجعتها؟»).

عندها صادفت للمرة الأولى والوحيدة أغسطس واترز وقد أعياه الكلام فعلاً. «أنا، هممم، أنا، هازل، هممم. في الحقيقة».

قال بيتر فان هوتن موجهاً كلامه إلى ليدوفيه: «يبدو أن هذا الفتى يعاني تأخراً في النمو».

«بيتر!»، صاحت مؤنّبة.

«حسناً»، قال بيتر فان هوتن، ومد يده إليّ. «إنه لمن دواعي سروري على أي حال لقاء مثل هذين المخلوقين اللذين يُستَبْعَدُ استيعاب طبيعتهما أونطولوجيا». وصافحتُ يده المنتفخة، ثم قام بمصافحة أغسطس. وأخذت أسأل نفسي عما تعنيه كلمة أونطولوجيّ. وقد أحببتها بغض النظر عن معناها. فأنا وأغسطس معاً في نادي الكائنات التي يُستبعد فهم طبيعتها: نحن وخلد الماء الذي يتميز بمنقار البطة.

تمنّيت، طبعاً، لو أن بيتر فان هوتن سليم العقل، لكن العالم ليس مصنعاً لتحقيق الأمنيات. بيد أن المهم هو أن الباب مفتوح وها أنا أعبر عتبته لأعلم ما الذي جرى بعد نهاية «محنة عظيمة»، وذلك كافٍ. تبعناه وليدوفيه إلى الداخل ومررنا بطاولة طعام ضخمة من خشب السنديان مع كرسيين فقط لنصل إلى غرفة جلوس لا نفع منها بشكل منفر. بدت أشبه بمتحف باستثناء أنها خالية من أعمال فنية على الجدران الفارغة البيضاء. بدت الغرفة خالية إلا من الأريكة ومن كرسي مريح وكلاهما مزيج من الفولاذ والجلد الأسود. ولاحظت وراء الأريكة وجود كيسي نفايات أسودين وكبيرين ومليئين وملتويين.

«نفايات؟»، تمتمت لأغسطس بهدوء اعتقدت معه أن ما من أحد آخر سيسمع.

«بريد المعجبين»، أجاب فان هوتن وهو يجلس في الكرسي المريح. «مجموع ثمانية عشر عاماً. لا أستطيع فتحه، فهو مرعب. بريدكما هو الرسائل الوحيدة التي أجبت عنها وانظرا إلى ما أوصلني ذلك. أجد واقع القراء غير مثير بكلّيته للشهية».

وفسّر ذلك لماذا لم يجب عن رسائلي، فهو لم يقرأها. وتساءلت لماذا يحتفظ بها، ناهيك بغرفة جلوس رسمية هي لولا ذلك خالية. دفع فان هوتن برجليه إلى المُتّكأ وشبك نعليه. وأشار صوب الأريكة. فجلست وأغسطس أحدنا قرب الآخر.

«أتودان بعض الفطور»، سألت ليدوفيه.

هممت بالقول إنه سبق لنا أن أكلنا عندما قاطعني بيتر. «لا يزال الوقت مبكراً جداً على الفطور، يا ليدوفيه».

«الحقيقة يا بيتر هي أنهما من أميركا، وبالتالي فإن توقيتهما البيولوجي قد تجاوز الظهر».

قال: «فات إذاً وقت الفطور كثيراً. لكن، بما أن الوقت البيولوجي وما شابه أصبح بعد الظهر، يجب أن نستمتع بكوكتيل». وسألني: «أتشربين السكوتش؟».

قلت: «هل أنا... هممم، لا، لا حا إلى ذلك».

«أغسطس واترز؟»، سأل فان هوتن وهو يومئ برأسه صوب غاس.

«لا، لا حاجة أيضاً».

«إذاً أنا وحدي، يا ليدوفيه. سكوتش وماء، رجاء». حوّل بيتر اهتمامه إلى غاس سائلاً: «أتعرف كيف نحضّر السكوتش والماء في هذا المنزل؟».

«هذا من دواعي سرورنا»، قالت ليدوفيه.

قال أغسطس: «شكراً على أي حال». وسمعت الانزعاج في صوته.

«ها أنذا، إذاً»، قال فان هوتن بعد برهة. «ما هي أسئلتكما؟».

«هممم»، قال أغسطس.

«بدا ذكياً جداً في نسخ أفكاره»، قال فان هوتن لليدوفيه متحدثاً عن أغسطس. «ربما أقام السرطان موطئ قدم في نخاعه».

«بيتر!»، صاحت ليدوفيه وقد ارتاعت بحق.

كذلك أصابني الارتياع أنا أيضاً، غير أن هناك ما هو ممتع في شخص بلغ هذا القدر من الدناءة بحيث لا أستغرب أن يعاملنا بهذا الشكل. قلت: «لدينا بعض الأسئلة التي تحدّثت عنها في بريدي الإلكتروني. لا أدري إذا كنت تتذكّر.

«لا أتذكّر».

قالت ليدوفيه: «ذاكرته سيئة».

وردّ فان هوتن: «فقط لو تستطيع ذاكرتي أن تتحسّن».

وكرّرت: «إذاً، أسئلتنا».

«استخدَمْتُ تعبير نحن المهيب»، قال بيتر من دون أن يوجه كلامه إلى أحد بالتحديد، وأخذ رشفة أخرى. لا أعرف ما هو طعم السكوتش ولا أستطيع أن أتخيل، لو أن طعمه قريب من طعم الشامبانيا. فكيف يمكن شرب هذا القدر، وبهذه السرعة، وفي الوقت المبكر من الصباح. وسألني: «هل تعرفين «مفارقة سلحفاة زينون؟».

«لدينا أسئلة تتعلق بما حدث للشخصيات بعد نهاية الكتاب، وبخاصة والدة آنّا...

«تفترضين عن خطأ أنني أحتاج إلى سماع سؤالك للرد عليه. هل تعرفين شيئاً عن الفيلسوف زينون؟» هززت برأسي نافية بشكل غامض. «هذا مؤسف. فزينون فيلسوف سابق لسقراط قيل إنه اكتشف أربعين مفارقة في النظرة إلى العالم التي طرحها بارمينيدس. تعرفين بارمينيدس بالتأكيد». وهززت برأسي بأنني أعرف بارمينيدس على الرغم من أنني لا أعرفه. «الحمد للّه»، قال. «تخصص زينون عملياً في الكشف عن أخطاء بارمينيدس ومبالغاته في التبسيط، وهو ليس بالأمر الصعب لأن بارمينيدس أخطأ بشكل مذهل دوماً وفي كل شيء. ولبارمينيدس القيمة نفسها بالتحديد التي لأحد معارف امرئ ما ينتقي بشكل موثوق الحصان الخطأ في كل مرة تأخذينه معك إلى حلبة السباق. إلا أن أهم ما في زينون ـ انتظري، أعطيني فكرة عن معرفتك بالهيب ـ هوب السويدي».

لم أستطع القول هل أن بيتر فان هوتن يمزح أم لا وبعد برهة أجاب أغسطس عني، وقال: «محدودة».

«حسناً، لكن لنفترض أنك تعرفين ألبوم فلاكن Fläcken المبدع لأفاسي أوخ فيلثي».

«لا نعرف»، قلت عن كلينا.

«ليدوفيه، شغّلي بومفلليرالا Bomfalleralla على الفور». توجّهت ليدوفيه إلى جهاز «الأم.بي.٣» (MP3 Player)، وأدارت العجلة قليلا، ثم ضغطت أحد الأزرار. ودوّت أغنية راب من كل اتجاه.

بدت إلى حد كبير كأنها أغنية راب عادية باستثناء الكلمات التي هي بالسويدية.

نظر بيتر فان هوتن إلينا بترقّب بعد انتهائها، وقد اتّسعت حدقتا عينيه الصغيرتين اتساعاً كلياً. «نعم. نعم».

قلت: «آسفة، يا سيدي، لكننا لا ننطق بالسويدية».

«بالتأكيد لا تفعلان. ولا أنا. من، بحق الجحيم، ينطق بالسويدية؟ ليس المهم نوع الهراء الذي تعبر عنه الأصوات، بل ما تشعر به الأصوات الأصوات. تعرفان بالتأكيد أن هناك انفعالين اثنين وحسب، الحب والخوف، وبأن أفاسي أوخ فيلثي أبحر بينهما بهذا النوع من السهولة التي لا يجدها المرء في موسيقا الهيب- هوب خارج السويد. هل أعيد تشغيلها من جديد؟».

وسأله غاس: «هل تمزح؟».

«عفوا؟».

«أهذا نوع من التمثيل؟». ونظر إلى ليدوفيه وسأل: «أهو كذلك؟».

«أخشى أنه ليس كذلك»، أجابت ليدوفيه. «فهو ليس دوماً... هذا وخلافاً للعادة...

«آه، اصمتي يا ليدوفيه. قال رودولف أوتو: إذا لم تقابلي البعد الروحي، وإذا لم تختبري اللقاء غير العقلاني مع «اللغز الساحق» (mysterium trenendum)، فهذا العمل إذاً ليس لكِ. وأقول لكما يا صديقيّ الشابين إنكما إذا لم تتمكنّا من سماع ردّ أفاسي أوخ فيلثي الجسور على الخوف، فعملي إذاً ليس لكما».

لا يمكنني التشديد على ذلك كفاية: فهي أغنية راب عادية تماما باستثناء أنها بالسويدية. قلت: «هممم، إذاً في «محنة عظيمة»، كانت والدة آنّا، عند انتهاء الكتاب، على وشك...

قاطعني فان هوتن، وهو يربّت كوبه ويتحدّث إلى أن ملأته ليدوفيه من جديد. «وهكذا اشتهر زينون أكثر ما يكون بمفارقة السلحفاة. لنتخيّل أنك في سباق مع السلحفاة. وهي تنطلق قبلك بعشرة ياردات. وربما ستجتاز السلحفاة ياردة واحدة في الوقت الذي يستغرقك لركض تلك الياردات العشرة. ثم ستتقدم السلحفاة قليلاً في الوقت الذي يستغرقك لاجتياز تلك المسافة، وهكذا دواليك إلى الأبد. وأنت أسرع من السلحفاة لكن لا يمكنك أبداً اللحاق بها؛ لا يمكنك إلا التقليل من المسافة التي تسبقك بها.

«وأنت بالطبع تجتازين السلحفاة ركضاً من دون التأمل في الآليات المعنية، لكن يتبين أن مسألة كيفية إمكانك القيام بهذا معقّدة بشكل لا يُصدَق، ولم يتمكن أحد من حلّها إلى أن أظهر لنا كانتور أن بعض اللانهائيات أكبر من اللانهائيات الأخرى».

«هممم»، قلت.

«أفترض أن هذا يجيب عن سؤالك»، قال بثقة ثم رشف بقوة من كوبه.

«ليس فعلاً»، قلت. «كنا نتساءل، بعد نهاية «محنة عظيمة»...

قاطعني فان هوتن قائلاً، «أتنكّر لكل شيء في تلك الرواية العفنة».

«لا»، قلت.

«عفواً؟».

«لا، هذا غير مقبول. أفهم أن القصة تنتهي في منتصفها لأن آنّا تموت أو تقعدها شدة المرض عن المتابعة، لكنك قلت إنك ستخبرنا بما حدث للجميع، ولهذا نحن هنا، ونحتاج... أنا أحتاج إلى أن تقول لي».

تنهّد فان هوتن. وقال بعد كوب آخر. «حسناً، عن «أي قصة تبحثين؟».

«قصة والدة آنّا، ورجل الخزامى الهولندي، والهامستر سيزيفس، أقصد... ما الذي حلّ بالجميع».

أغمض فان هوتن عينيه ونفخ وجنتيه وهو يزفر، ثم رفع نظره إلى العوارض الخشبية الظاهرة التي تتقاطع في السقف وقال بعد برهة: «الهامستر تبنّته كريستين ـ وهي واحدة من صديقات آنّا قبل إصابتها بالمرض. وذلك منطقي. فقد لاعبت آنا وكريستين سيزيفس في بعض المشاهد ـ وعاش نحو سنتين بعد نهاية الرواية ومات بسلام».

ها قد بدأت بعض الأمور تنجلي. «عظيم»، قلت. «عظيم، حسناً، وماذا عن رجل الخزامى الهولندي، هل هو نصّاب؟ هل يتزوج من والدة آنّا؟».

بقي فان هوتن يحدّق إلى عوارض السقف. شرب من كوبه الذي كاد أن يفرغ من جديد. «لا يمكنني القيام بذلك، يا ليدوفيه. لا أستطيع. لا أستطيع». ثم حدّق إليّ وقال: «لا يحدث شيء لرجل الخزامى الهولندي. وليس مهما إن كان نصاباً أو لا؛ إنه اللّه. إنه تصوير مجازي واضح وغير مبهم للّه، والسؤال عمّا حلّ به هو المرادف الفكري لما يحدث للعينين المقتلعتين للدكتور تي. جي. إكلبرغ في غاتسبي.

هل يتزوج والدة آنا؟ نحن نتحدث عن رواية، يا ابنتي العزيزة، وليس عن مشروع تاريخي ما».

«صحيح، لكن من المؤكد أنك فكرت في ما يحدث لهم، أقصد بوصفهم شخصيات، أي بمعزل عن معانيهم المجازية أو غيره».

«إنهم تخيّلات»، قال وهو ينقر من جديد على كوبه. «لا يحدث لهم شيء».

أصررت: «قلتَ إنك ستخبرني». ذكّرت نفسي بأن أكون جازمة. أردت أن أبقي انتباهه المشوّش على أسئلتي.

«ربما، ولكن، كان لدي انطباع مضلّل بأنك غير قادرة على السفر عبر الأطلسي. حاولت على ما أفترض أن أوفر لك بعض التعزية التي توجّب علي أن أقدّر معناها حق التقدير قبل أن أحاول توفيرها. وحتى أكون صريحاً تماماً فإن هذه الفكرة المتمثلة بأن مؤلف الرواية يمتلك بعض الإدراك الخاص بشخصيات القصة إنما هي سخيفة. فهذه الرواية مؤلفة من شطحات قلم على صفحة، يا عزيزتي. وليست للشخصيات الموجودة فيها حياة خارج تلك الشطحات. ما الذي جرى لها؟ اختفت كلها من الوجود في اللحظة التي انتهت فيها الرواية».

«لا»، قلت. ودفعت بنفسي عن الأريكة. «لا، أدرك ذلك، لكنه يستحيل عدم تخيّل مستقبل لها. وأنت الشخص المؤهّل أكثر من الجميع لتخيّل ذلك المستقبل. لقد جرى شيء لوالدة آنّا. فهي إما تزوّجت وإما لا وهي إما انتقلت إلى هولندا مع رجل الخزامى الهولندي وإما لا وهي إما رزقت بمزيد من الأولاد وإما لا أريد أن أعرف ماذا جرى لها».

زمّ فان هوتن شفتيه. «آسف لأنني لا أستطيع مسايرة نزواتك الطفولية، لكنني أرفض أن أشفق عليك بالطريقة التي تعوّدت عليها تماماً».

قلت: «لا أريد شفقتك».

أجاب بشعور فاتر: «أنت على غرار كل الأولاد المرضى تقولين إنك لا تريدين الشفقة، لكن وجودك بالذات يعتمد عليها».

«بيتر!»، صاحت ليدوفيه، لكنه واصل كلامه وهو مستريح في مكانه، وأصبحت كلماته أكثر ثقلاً في فمه الثمل. «الأولاد المرضى يصبحون حكماً معوّقين: يتحتّم عليك التخلي عن الطفل الذي كنتِهِ عندما شُخّص مرضكِ، الطفل الذي يعتقد بوجود حياة بعد انتهاء الرواية. ونحن، بما أننا بالغون، نشفق على ذلك فندفع ثمن علاجاتك وآلات الأكسجين. ونوفر لك الطعام والماء على الرغم من أنه من غير المرجّح أن تعيشي طويلاً بما يكفي...

«بيتر!» صاحت ليدوفيه.

وتابع فان هوتن: «أنت تأثير جانبي لعملية نشوئية لا تهتم كثيراً بحياة الأفراد. أنتِ تجربة طفرة فاشلة (التحوّل الوراثي)».

«أنا أستقيل!» صاحت ليدوفيه والدموع في عينيها. بحث عن الطريقة الأكثر إيلاماً لقول الحقيقة، لكن سبق لي طبعاً أن عرفت الحقيقة. فورائي سنوات كثيرة من التحديق إلى الأسقف ما بين غرفة نومي ووحدة العناية الفائقة، واكتشفت بالتالي الطرق الأكثر إيلاماً لتخيّل مرضي. خطوت صوبه، وقلت: «اسمع، أيها السافل لن تخبرني

شيئاً عن المرض لم يسبق لي أن عرفته. أريد منك شيئاً، وشيئاً واحداً قبل أن أخرج من حياتك إلى الأبد: ماذا يحدث لوالدة آنّا؟».

رفع بطريقة غامضة ذقنه المترهّل صوبي وهزّ كتفيه: «لا أستطيع أن أقول لك ما حل بها كما أنني لا أستطيع أن أخبرك بما جرى لراوي بروست أو لشقيقة هولدن كولفيلد أو لهاكلبري فين بعد أن يمضي في مغامرته».

«هراء! هذا هراء. قلْ لي وحسب! اخترعْ شيئاً».

«كلا، وسأكون شاكراً لو امتنعت عن الشتم في منزلي. فهذا لا يليق بسيدة».

لم أكن بعد قد غضبت، بالتحديد، إلا أنني بقيت مركّزة بقوة على الحصول على ما وُعدت به. ثم انفجر شيء في داخلي ومددت يدي وصفعت اليد التي تحمل كوب السكوتش. ولطّخ ما تبقى من السكوتش مساحة وجهه الواسعة وارتد الكوب عن أنفه ثم دار كراقصة الباليه في الهواء وسقط ليتحطّم على الأرضية الخشبية القديمة الصلبة.

«ليدوفيه»، قال فان هوتن بهدوء، «أريد من فضلك كأس مارتيني مع قليل من الفيرموث»(*).

قالت ليدوفيه بعد برهة: «لقد استقلت».

«لا تكوني سخيفة»، قال لها فان هوتن

لم أعرف ما العمل. فاللطف لم ينفع، واللؤم لم ينفع، وأنا أحتاج

(*) الفيرموث هو نبيذ معطّر بنباتات مُرَّة كقشر البرتقال (إشارة من المترجم).

إلى جواب. لقد قطعت كل هذه المسافة واختطفت أمنية أغسطس. أردت أن أعرف.

قال، وفي كلامه افتراء الآن: «هل توقفت مرة للتساؤل لماذا تهتمين إلى هذا الحد بأسئلتك السخيفة؟».

«لقد وعدتَ!» صحت وأنا أسمع عويل إسحق العاجز يتردّد في ليلة تحطيم الجوائز. ولم يجب فان هوتن.

بقيت واقفة فوقه أنتظر منه أن يقول لي شيئاً عندما شعرت بيد أغسطس على ذراعي. سحبني صوب الباب وتبعته، فيما تشدّق فان هوتن لليدوفيه بالحديث عن جحود المراهقين المعاصرين وعن موت المجتمع المهذّب. فصاحت عليه ليدوفيه، بشكل شبه هستيري، بالهولندية السريعة.

قال: «يجب أن تعذروا مساعدتي السابقة. فالهولندية ليست لغة بقدر ما هي علّة للحنجرة».

سحبني أغسطس إلى خارج الغرفة وعبر الباب إلى الصباح الربيعي المتأخر وقصاصات ورق زينة الدردار المتساقطة.

ليس عندي ما يُسمى بالمهرب السريع، لكننا بلغنا أسفل الدرج، وأغسطس يحمل عربتي، وشرعنا نسير عائدين صوب الفيلوسوف على رصيف غير مستوٍ من الآجر المتشابك المستطيل. وشرعت أبكي، للمرة الأولى منذ أن أثارت فيّ الأرجوحة المشاعر الكئيبة.

«هاي»، قال وهو يلمس خصري. «هاي. لا بأس». هززت برأسي ومسحت وجهي بظهر يدي. «إنه فظيع». وهززت رأسي من جديد. «سأكتب لكِ خاتمة»، قال غاس. وجعلني ذلك أبكي بقوة أكبر.

«سأفعل»، قال. «سأفعل. بشكل أفضل من أي هراء يمكن لهذا الثمل أن يكتبه. فدماغه أشبه بالجبنة السويسرية. إنه لا يذكر حتى وضعه الكتاب. يمكنني أن أكتب القصة عشر مرات أفضل مما يستطيعه ذلك الشخص. ستتضمن دماً وشجاعة وتضحية. «محنة عظيمة» تواجه «ثمن انبلاج الفجر». ستحبينها». واصلت هزّ رأسي متصنّعة الإبتسامة، وحينذاك عانقني وذراعاه القويتان تشدانني إلى صدره المفتول العضلات، ورطّبتُ قميصه البولو قليلاً ثم تعافيت بما يكفي للكلام.

قلت ووجهي في صدره: «لقد أهدرت أمنيتك على هذا السافل».

«هازل غريس. لا سأوافقك على أنك صرفت أمنيتي الوحيدة. لكن لم تنفقيها عليه، بل أنفقتها علينا».

سمعت من ورائنا قرقعة كعب عال. استدرت، فإذا بليدوفيه تتعقبنا على الرصيف وكحلها يسيل على خدّيها مرتاعةً بحقّ قالت: «ربما علينا أن نذهب إلى منزل آن فرانك».

قال أغسطس: «لن أذهب إلى أي مكان مع هذا المسخ».

قالت ليدوفيه: «إنه غير مدعو».

استمر أغسطس في الإمساك بي، يحميني، ويده إلى جانب وجهي. شرع في القول: «لا أعتقد...» لكنني قاطعته.

«يجب أن نذهب». وأنا ما زلت أريد أجوبة من فان هوتن، لكنْ ليس هذا كل ما أردته. إذ لم يتبقَّ لي إلا يومان في أمستردام مع أغسطس واترز. ولن أترك عجوزاً تعساً يدمّرهما.

قادت ليدوفيه سيارة فيات رمادية غير رشيقة بمحرك صوته أشبه

بفتاة متحمسة عمرها أربعة أعوام. وأخذتْ، ونحن نجول عبر شوارع أمستردام، تكرّر الاعتذار وتسرف فيه. «أنا شديدة الأسف. لا ليس هناك أي عذر. إنه شديد المرض. اعتقدتُ أن اللقاء معكما سيساعده إذا وجد أن عمله قد صاغ حياة فعلية لشخصيات روايته، لكن أنا آسفة جداً. وهذا مربك جدّاً، جدّاً». فلم نجب بأي شيء. كنت جالسة مع أغسطس في المقعد الخلفي، فدسست يدي بين جانب السيارة ومقعده، أتحسّس يده، لكنني لم أتمكن من العثور عليها. تابعت ليدوفيه: «واصلت هذا العمل اعتقاداً مني بأنه عبقري ولأن المرتّب جيد جداً، لكنه أصبح مسخاً».

قلت بعد برهة: «أعتقد أنه أصبح غنيّاً جداً بفضل ذلك الكتاب».

فقالت: «أوه، لا، لا. إنه واحد من آل فان هوتن اكتشف سلفه في القرن السابع عشر كيفية مزج الكاكاو بالماء. وقد هاجر بعض آل فان هوتن منذ زمن بعيد إلى الولايات المتحدة، وبيتر واحد منهم، لكنه انتقل بعد روايته إلى هولندا. إنه عار على عائلة عظيمة».

صرخ المحرّك، فغيّرت ليدوفيه السرعة وانطلقنا نعبر مسرعين جسراً فوق القناة. «إنه الظرف»، قالت. «الظرف جعله على هذا القدر من القساوة. وهو ليس بشرّير. لكنني لم أعتقد في هذا اليوم... لم يكن بإمكاني أن أصدّق ما قاله من أشياء فظيعة. أنا آسفة جداً. آسفة جداً، جداً».

اضطررنا إلى أن نركن السيارة على بعد أبنية عدة من منزل آن فرانك، ووقفت ليدوفيه في الصف لتشتري لنا التذاكر، فجلستُ وقد أسندت ظهري إلى شجرة صغيرة وأنا أنظر إلى كل هذه المراكب الراسية في

قناة برينسنغراخت. وقف أغسطس فوقي يجر عربة الأكسجين في دوائر كسولة وهو يكتفي بمراقبة الدواليب تدور. أردت أن يجلس بقربي لكنني عرفت كم أنه يصعب عليه الجلوس والأصعب منه هو إعادة النهوض. «هل أنتِ بخير؟» سألني وهو ينظر إليّ. هززت كتفي ومددت يدي إلى ربلة ساقه. وهي ربلة ساقه الاصطناعية، لكنني تمسكت بها. ونظر إلي.

قلت: «أردت...

«أعرف. أعرف. يبدو أن العالم ليس مصنعاً لتحقيق الأمنيات». وحملني ذلك على بعض الابتسام.

عادت ليدوفيه بالتذاكر، لكنها زمّت شفتيها الرقيقتين قلقاً. «لا مصعد»، قالت. «آسفة جداً، جداً».

«لا بأس»، قلت.

«لا، هناك كثير من الأدراج. كثير من الأدراج».

وكرّرت القول: «لا بأس». شرع أغسطس في قول شيء ما، لكنني قاطعته. «لا بأس. يمكنني القيام بذلك».

بدأنا الجولة بغرفة حيث شاهدنا شريط فيديو عن اليهود في هولندا والغزو النازي وعائلة فرانك. ثم صعدنا إلى الطابق العلوي إلى منزل الفتاة الذي ضم أعمال أوتو فرانك. الأدراج شاقة، عليّ وعلى أغسطس معاً، لكنني شعرت بالقوة. وسرعان ما أخذت أحدّق إلى خزانة الكتب الشهيرة التي أخفت آن فرانك وعائلتها وأربعة آخرين. الخزانة نصف مفتوحة، ووراءَها درج أشد وقوفاً ولا يتسع إلا لشخص واحد. كان هناك رفاق زوّار في كل مكان من حولنا، ولم أرد تأخير الموكب، لكن

ليدوفيه قالت: «إذا أمكن لكل واحد أن يصبر، رجاء»، وشرعتُ في السير وليدوفيه تحمل العربة من ورائي وأغسطس من خلفها.

أحصيت أربع عشرة درجة، وبقيت أفكر في الناس ورائي ـ وهم في معظمهم من البالغين وينطقون بلغات عدّة ـ وأنا أشعر بالحرج. أشعر بأني أشبه شبحاً يؤاسي الناس ويخيفهم في آن، لكنني تمكنت في النهاية من الوصول لأصبح بعدها في غرفة فارغة بشكل مخيف وأنا استند إلى أحد الجدران، ودماغي يقول لرئتيّ: «لا بأس، لا بأس، إهدآ لا بأس»، ورئتاي تقولان لدماغي: «أوه، يا إلهي، إننا نموت هنا». لم أرَ حتى أغسطس يصعد الدرج، لكنه جاء صوبي ومسح جبينه بظهر يده وكأنه يقول «واو»، وقال لي، «أنت بطلة».

تمكنت، بعد دقائق قليلة من الاستناد إلى الجدار، من بلوغ الغرفة التالية التي شاركها فيها طبيب الأسنان فريتز بفيفر. وهي ضيّقة وخالية من أي أثاث. ولا يمكنك معرفة أن أحداً أقام هنا باستثناء أن صور المجلات والجرائد التي ألصقتها آن على الجدار لا تزال في المكان.

أوصل درج آخر إلى الغرفة التي عاشت فيها عائلة فان بل، وهذا الأخير أشد حدّه من الآخر ويتألف من ثماني عشرة درحة، وهو أشبه بسلَم عظيم. وصلت إلى العتبة ونظرت إلى فوق وتصوّر أنني لن أتمكّن منه، لكنني عرفت أيضاً أن الطريقة الوحيدة لبلوغه هي الصعود.

«لنرجع»، قال غاس من ورائي.

«أنا بخير»، أجبت بهدوء، وهذا غباء، لكنني بقيت أ فكّر في أنني أدين لها بالأمر ـ أقصد آن فرانك ـ لأنها ميتة وأنا لست كذلك، ولأنها

جلست هادئة وأبقت الستائر مغلقة وفعلت كل ما هو صائب ومع ذلك ماتت، وعليّ بالتالي أن أصعد الدرج وأشاهد بقية العالم الذي عاشت فيه في تلك السنوات التي سبقت مجيء الغيستابو.

شرعت في تسلّق الأدراج، أدبّ عليها كما يفعل الولد الصغير، ببطء في البِداية لأتمكن من التنفس، ثم بشكل أسرع لأنني عرفت أنني لن أتمكّن من التنفس وأردت بلوغ القمة قبل أن ينهار كل شيء. تجاوز السواد مجال رؤيتي وأنا أدفع بنفسي صعوداً، ثماني عشرة درجة شديدة الانحدار كالجحيم. بلغت في النهاية بيت الدرج وأنا أشبه بالعمياء ومصابة بالغثيان، وعضلات ذراعي ورجلي تصرخ طلباً للأكسجين. سقطت جالسة إلى جانب أحد الجدران أسعل سعالاً خفيفاً. ثمّة صندوق زجاجي فارغ مثبت فوقي إلى الجدار حدّقت من خلاله إلى السقف وحاولت ألا يُغمى علي.

قرفصت ليدوفيه بالقرب مني قائلة، «بلغتِ القمة، وانتهى الأمر»، وهززت برأسي. أدركت بشكل غامض أن البالغين من حولي يوجهون إليّ نظرات قلقة؛ وأن ليدوفيه تتحدث بنبرة بالغة الهدوء إليّ وإلى مختلف الزوار؛ وأن أغسطس يقف فوقي ويده على أعلى رأسي ويداعب شعري بالمناسبة.

بعد وقت طويل، رفعتني ليدوفيه وأغسطس على قدمي وشاهدت ما في داخل الصندوق الزجاجي: علامات بالقلم على ورق الجدار تقيس نمو جميع الأطفال إنشاً بعد إنش في المكان الملحق بالمنزل في الفترة التي كانوا فيه إلى أن كفّوا عن النمو.

غادرنا من هناك منطقة إقامة آل فرانك، لكننا بقينا في المتحف:

عُرضت في ممر طويل ضيّق صور كل من المقيمين الثمانية في ملحق المنزل مع شرحٍ عن كيفية موتهم والمكان والتاريخ.

أبلغتنا ليدوفيه، في إشارة إلى والد آن، أن أوتو هو الشخص الوحيد في العائلة الذي نجا من الحرب. وتكلّمتْ بصوت هامس كما لو أننا في كنيسة.

«لكنه لم ينجُ من الحرب»، قال أغسطس. «بل نجا من الإبادة».

«صحيح»، قالتِ ليدوفيه. «لا أدري كيف يستمر الإنسان من دون عائلته. لا أدري». فكّرت، وأنا اقرأ عن كلّ من السبعة الذين ماتوا، كيف أن أوتو فرانك لم يعد والداً بعد ذلك، وقد تبقى له دفتر يوميات بدلاً من زوجة وابنتين. وهناك في آخر الممر كتاب ضخم، أكبر من القاموس، يحتوي على أسماء ١٠٣ آلاف شخص من هولندا ماتوا في المحرقة. (وشرح ملصق على الجدار أن خمسة آلاف يهودي فقط من بين اليهود الهولنديين الذين تم نفيهم قد نجوا. خمسة آلاف أوتو فرانك). وقد فتح الكتاب على الصفحة التي تحتوي اسم آن فرانك، لكن ما استرعى انتباهي في الأمر هو وجود أربعة أرون فرانك. أربعة أرون فرانك تحت اسمها تماماً من دون متاحف ومن دون علامات تاريخية ومن دون وجود من يندبهم. وقررت بصمت أن أذكر الأربعة أرون فرانك وأصلّي لهم ما دمت في هذه الدنيا. (ربما أحتاج بعض الناس إلى الإيمان بإله فعلي وكلي القدرة ليصلّوا، أما أنا فلا).

توقف غاس وقد بلغنا نهاية الغرفة وقال، «هل أنتِ بخير؟» فهززت برأسي.

أومأ إلى الخلف صوب صورة آن. «أتعرفين أن أسوأ ما في الأمر هو أنها كادت تنجو من الموت؟ ماتت قبل أسابيع من التحرير».

خطت ليدوفيه بضع خطوات بعيداً لمشاهدة أحد عروض الفيديو، وأمسكتُ بذراع أغسطس ونحن نسير إلى الغرفة التالية، وهي غرفة ذات بنية أشبه بمثلث تضم بعض الرسائل التي كتبها أوتو فرانك إلى أناس في خلال بحثه عن ابنتيه الذي استمر أشهراً. وعُرض على أحد الجدران في وسط الغرفة فيديو لأوتو يتحدث فيه بالإنكليزية.

«ألا يزال هناك نازيون أستطيع مطاردتهم وسوقهم إلى العدالة؟» سأل أغسطس وهو ينحني صوب الواجهات يقرأ رسائل أوتو والأجوبة المطبقة على الصدر ومفادها أن لا، لم يشاهد أحد الفتاتين بعد التحرير.

«أعتقد انهما ماتتا. لكن ليس النازيون وحدهم من يحتكرون الشر».

«صحيح»، قال. «هاك ما يتوجب علينا فعله يا هازل غريس: يجب أن نوحد جهودنا ونشكل ثنائي الحراسة المعوّق هذا، فنهدر عبر العالم ونصحح الخطأ وندافع عن الضعيف ونحمي من هو معرّض للخطر».

وسايرته على الرغم من أنه حلمه وليس حلمي. وهو في النهاية قد سايرني، وقلت: «يجب أن تكون بسالتنا سلاحنا السرّي».

قال: «ستبقى حكاياتنا حيّة ما بقي الصوت البشري».

«بل حتى بعد ذلك، عندما يستذكر الأناس الآليون عبثية التضحية والشفقة الإنسانيتين، سيتذكروننا».

قال: «سيضحكون ضحكة الإنسان الآلي على رعونتنا الشجاعة. لكن شيئاً في قلوبهم الحديدية سيتوق إلى أن يعيشوا ويموتوا كما فعلنا: في مهمة بطولية».

«أغسطس واترز»، قلت وأنا أرفع نظري إليه، وأفكر في ان تقبيل أحد في منزل آن فرانك غير ممكن، لأعاود التفكير بعد ذلك في أن آن فرانك قبّلت، في النهاية، شخصاً ما في منزلها، وبأنها ربما لن تحب ما هو أكثر من أن يصبح منزلها المكان الذي يشعر فيه بالحب شابان متعطلان بشكل لا يمكن الشفاء منه.

قال أوتو فرانك في الفيديو بإنكليزيته ذات اللكنة: «يجب أن أذكر أنني متفاجئ كثيراً بما امتلكته آن من أفكار عميقة».

حينذاك شرعنا في تبادل القبل. أفلتت يدي عربة الأكسجين وامتدت إلى عنقه، ورفعني من وسطي حتى أصبحت أقف على رؤوس أصابعي. ولما التقت شفتاه المنفرجتان شفتي أخذت أشعر بأنني أفقد أنفاسي بطريقة جديدة وفاتنة. تبخر المكان من حولنا، وفي خلال لحظة غريبة أحببت جسدي فعلاً؛ ذلك الشيء الذي دمّره السرطان والذي أمضيت سنوات أجرجر نفسي من حوله بدا فجأة أنه يستحق الكفاح، ويستحق أنابيب الصدر وخطوط القسطرة وخيانة الأورام المتمادية للجسد.

وتابع أوتو فرانك: «إنها تختلف كثيراً عن آن التي عرفتها بوصفها ابنة. وهي لم تظهر أبداً هذا النوع من الشعور الداخلي».

استمرت القبلة إلى ما لا نهاية فيما واصل أوتو فرانك الحديث من ورائي، وقال: «أستنتج، بما أنني كنت على علاقة جيدة جداً بآن، أن معظم الأهل لا يعرفون أولادهم فعلاً».

أدركت أن عينيّ مغمضتان، ففتحتهما. وجدت أغسطس يحدّق إليّ وعيناه الزرقاوان أقرب إليّ من أي وقت مضى، وأحاط بنا حشد

من الناس بعمق ثلاثة أطواق. حسبتهم غاضبين لأن هذين المراهقين، بهورموناتهما يتبادلان القبل أثناء بث فيديو والد سابق محطَم.

ابتعدت عن أغسطس، وطبع قبلة خفيفة على جبهتي وأنا أنظر إلى حذائي التشاك تايلور. وشرعوا عندها في التصفيق. جميع هؤلاء الناس، جميع هؤلاء البالغين شرعوا في التصفيق وحسب، وصاح أحدهم «برافو!» بلكنة أوروبية. انحنى أغسطس وهو يبتسم، وأنا ثنيت ركبتي في شبه انحناءة وأنا أضحك ما استدعى جولة أخرى من التصفيق.

عدنا أدراجنا إلى الطابق السفلي وتركنا البالغين ينزلون قبلنا، وقبل وصولنا إلى المقهى (حيث أُنعم علينا بمصعد نقلنا إلى الطابق الأرضي ومتجر الهدايا) رأينا صفحات من مذكرات آن فرانك وكذلك كتاب اقتباساتها غير المنشور. وصدف أن الكتاب مفتوح على صفحة الاستشهادات بشكسبير. كتبتْ «فمن هو ذلك القوي الذي لا يمكن إغواؤه؟».

قادت ليدوفيه السيارة عائدة بنا إلى الفيلوسوف. أمطرت رذاذاً خارج الفندق ووقفتُ وأغسطس على رصيف الآجر ونحن نتبلّل ببطء.

أغسطس: «تحتاجين ربما إلى بعض الراحة».

أنا: «أنا بخير».

أغسطس: «حسناً». (توقف مؤقت). «ما الذي تفكرين فيه؟».

أنا: «أنت».

أغسطس: «وماذا عني؟».

أنا: «لا أدري ما الذي أفضّله / جمال التصرّف / أم جمال التلميحات، / الشحرور المصفر / أم ما سيأتي فيما بعد فقط».

أغسطس: «يا إلهي، أنت مثيرة».

أنا: «يمكننا المضي إلى غرفتك».

أغسطس: «سمعت أفكاراً أسوأ من هذه».

حشرنا نفسينا معاً في المصعد الصغير. وكل مساحة فيه، بما في ذلك الأرضية، مغطاة بالمرايا. واضطررنا إلى سحب الباب للإقفال على نفسينا في الداخل ثم أخذ ذلك الشيء القديم يصرّ ببطء صعوداً إلى الـابق الثاني. كنت تعبة ومتعرّقة وأصابني القلق من أن تكون رائحتي ومنظري شنيعين، إلا أنني وعلى الرغم من ذلك قبّلته في ذلك المصعد، ثم ابتعد وأشار إلى المرآة وقال، «انظري، أعداد لا تنتهي من هازل».

«بعض اللانهائيات أكبر من بعض اللانهائيات الأخرى»، قلت وأنا أتشدّق مقلّدة فان هوتن.

«يا للمهرج الغبي»، قال أغسطس، واستغرقنا كل ذلك الوقت وأكثر لنصل إلى الطابق الثاني. وفي النهاية ترنّح المصعد متوقّفاً، ودفع الباب ذا المرآة لفتحه. وما إن فتحه حتى انكمش ألماً وأفلتت قبضته البابَ للحظة.

سألته: «هل أنت بخير؟».

وقال بعد ثانية: «نعم، نعم، الباب ثقيل وحسب، على ما أعتقد». ودفعه من جديد وفتحه. تركني، بالطبع، أسير أولاً، لكنني لم أعرف

أي اتجاه أتبع في الممر، وهكذا اكتفيت بالوقوف خارج المصعد، ووقف هناك أيضاً ووجهه لا يزال ملتوياً، وسألته من جديد، «هل أنت بخير؟».

«فقدت اللياقة البدنية وحسب، يا هازل غريس. كل شيء بخير».

وقفنا وحسب في الممشى ولم يسر في الطليعة إلى غرفته أو أي شيء، ولم أعرف مكان غرفته. واقتنعت، مع استمرار الطريق المسدود، بأنه يحاول تصوّر طريقة لعدم الارتباط بي، وبأن الفكرة ما كان يجب أن تُطرح في المقام الأوّل، وبأن ذلك لا يليق بسيدة، وهو ما أثار بالتالي اشمئزاز أغسطس واترز الذي يقف في المكان ينظر إلي من دون أن يرف له جفن، ويحاول التفكير بطريقة لإخراج نفسه بتهذيب من الموقف. إلى أن قال بعد انتظار أبدي: «إنه فوق ركبتي ويستدقّ بعض الشيء ومن ثم هناك الجلد. ثمّة ندبة رديئة، لكنها تبدو أشبه...

«ماذا؟»، سألته.

«ساقي، لتكوني على استعداد في حال... أعني، في حال شاهدتها أو ما...

«أوه، تمالك نفسك»، قلت، وسرت الخطوتين اللازمتين للوصول إليه. وقبّلته بقوة وأنا أحشره إلى الجدار، وواصلت تقبيله وهو يتلمّس مفتاح الغرفة.

زحفنا إلى السرير، وقد قيّد الأكسجين بعضاً من حريتي، لكن أمكنني، على الرغم من ذلك، أن أقبع من فوقه وأنزع قميصه وأتذوّق العرق على الجلد تحت ترقوته وأنا أهمس: «أحبك يا أغسطس واترز».

واسترخى جسده من تحتي وهو يسمعني أقول ذلك. مد يديه وحاول نزع قميصي، لكنها تشابكت مع الأنبوب، فضحكت.

«كيف تفعلين ذلك كل يوم؟»، سألني وأنا أفصل قميصي عن الأنبوب. خطر لي، بغباء، أن سروالي التحتي الزهري لا يتناسب مع صدريتي الأرجوانية، كأن الصبية يلاحظون هذه الأمور. زحفت تحت الأغطية وتخلّصت من بنطالي وجواربي ثم راقبت اللحاف يرقص فيما كان أغسطس يقوم تحته بنزع بنطاله أولاً ثم ساقه.

تمدّدنا على ظهرينا، أحدنا بجانب الآخر، وكل شيء مخبأ تحت الأغطية، ومددت يدي بعد نحو ثانية إلى فخذه وتركتها تنزل إلى الجلد السميك المبتور ذي الندبة. أمسكت بمكان البتر لحظةً، فانكمش. سألته: «هل يؤلم؟».

قال: «لا».

قلب نفسه إلى جانبه وقبّلني. «أنت مثير جداً»، قلت ويدي لا تزال على ساقه.

«أظن أنك تشتهين مبتوري الأعضاء»، أجاب، وهو يستمر في تقبيلي. وضحكتُ.

قلت: «أشتهي أغسطس واترز».

شكلت العملية برمّتها النقيض التام لكل ما تصوّرته: بطيئة وطويلة الأناة وليست مؤلمة ولا تصيب بنشوة خاصة. واجهنا الكثير من المشاكل مع الواقيات الذكرية ولم أتمكّن من إلقاء نظرة جيدة عليها. لم ينكسر أي

راس سرير. ولم يكن هناك أيّ صراخ. وهذا. بصراحة، أطول وقت نقضيه معاً من دون التحدث.

أمر واحد فقط جاء نموذجياً: بعد ذلك، وفيما وجهي يرتاح على صدره كنت أستمع إلى قلبه يخفق، قال أغسطس: «هازل غريس، لا أستطيع الإبقاء على عينيّ مفتوحتين»، بالمعنى الفعلي للعبارة.

قلت: «سوء استخدام للمعنى الفعلي».

«كلا»، أجاب. «أنا تعب جداً».

أدار وجهه بعيداً مني، وأذني تضغط على صدره أستمع إلى رئتيه تغطّان في النوم. نهضت بعد برهة، ارتديت ثيابي، عثرت على قرطاسية الفندق، وكتبت له رسالة حب:

عزيزي أغسطس،

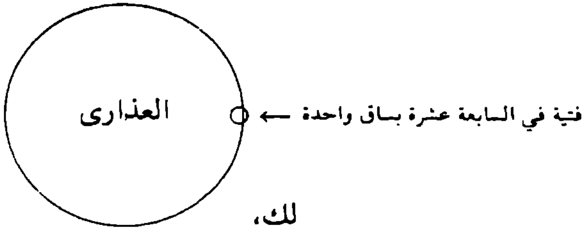

لك،

هازل غريس

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي، وهو آخر يوم كامل لنا في أمستردام، سرتُ ووالدتي وأغسطس مسافة نصف مجموعة الأبنية من الفندق إلى الفوندلبرك، حيث عثرنا على مقهى في ظل المتحف الوطني للفيلم الهولندي. طلبنا أكواب «لاتيه» ـ وقد شرح لنا النادل أن الهولنديين يسمونها «القهوة الخاطئة» لأنها تحتوي على الحليب أكثر من البن ـ في الظل المخرّم لشجرة كستناء ضخمة. أخبرنا أمي عن لقائنا مع بيتر فان هوتن العظيم، وجعلنا القصة مضحكة. أعتقد أنك تمتلك في هذا العالم خيار طريقة سرد القصة، واخترنا الطريقة المضحكة: تظاهر أغسطس، وقد استرخى في كرسي المقهى، بأنه فان هوتن المربوط اللسان المسيء بكلامه والذي لا يستطيع دفع نفسه عن كرسيه؛ ونهضت للعب دوري وكلّي وعيد واسترجال صائحة: «انهض أيها العجوز البشع البدين!».

سألني أغسطس: «أناديته بالبشع؟».

وقلت له: «انسَ الموضوع».

«أنا يستبشياً (لست بشعاً). أنت البشية (البشعة)، يا فتاة أنبوب الأنف».

«أنت جبان!» صحت راعدة، وحوّل أغسطس الدور إلى موقف فكاهي، وجلست. وأخبرنا أمي عن منزل آن فرانك، من دون ذكر القبل.

وسألت أمي: «هل عدتما بعد ذلك إلى منزل فان هوتن؟».

لم يتح لي أغسطس وقتاً حتى للاحمرار. «لا، بل اكتفينا بالجلوس في أحد المقاهي. وسلّتني هازل ببعض الكلام الفكاهي حول مخطّط ڤين Venn Diagram». واسترق النظر إلي. يا إلهي كم إنه مثير.

«يبدو ذلك رائعاً»، قالت. «أنا ذاهبة في نزهة. وسيوفر لكما ذلك الوقت للكلام»، قالت لغاس ببعض الحدّة. «ثم قد يكون بإمكاننا لاحقاً الذهاب في جولة في أحد مراكب القناة».

«همم، حسناً» قلت. تركت أمي ورقة من فئة الخمسة يورو تحت صحنها ثم قبّلت قمة رأسي وهي تهمس، «أحبك، أحبك، أحبك». مرتين أحبك أكثر من المعتاد.

أشار غاس إلى ظلال الأغصان التي تتقاطع وتتفرّق على الإسمنت. «جميل، هاه؟».

قلت: «نعم».

وتمتم: «يا له من مشهد رمزي».

وسألت: «أهو الآن؟».

قال: «الصورة السالبة للأمور تجتمع معاً ثم تتفرق». مرّ من أمامنا

مئات الناس، يعدون ويمتطون الدراجات ويستخدمون مزالق ذات عجلات. فأمستردام مدينة صُمّمت للحركة والنشاط، مدينة تُفضّل ألا يتجول الناس فيها بالسيارات، فشعرت حتماً بأنني مستثناة منها. لكن، يا إلهي كم هو جميل الجدول الصغير الذي يشق طريقه حول شجرة ضخمة، ومالك الحزين الواقف جامداً عند حافة الماء باحثاً عن فطوره وسط ملايين تويجات الدردار التي تطوف في المياه.

لكن أغسطس لم يلاحظ. فقد انشغل في مراقبة الظلال تتحرك. وقال أخيراً: «يمكنني النظر إلى هذا طوال النهار، لكن يجب أن نمضي إلى الفندق».

سألته: «ألدينا متسع من الوقت؟».

وابتسم بحزن: «لو فقط».

«وسألته: «ما الأمر؟».

فعاد وأومأ برأسه في اتجاه الفندق.

سرنا بصمت وأغسطس يسبقني بنصف خطوة. وفزعت كثيراً من السؤال إن كان هناك سبب يدفعني إلى الفزع.

هناك هذا الأمر الذي يُدعى تسلسل ماسلو الهرمي للاحتياجات. وقد اشتهر هذا الشخص، أبراهام ماسلو، أساساً بنظريته التي تقول بوجوب تلبية بعض الاحتياجات قبل أن تمتلك أنواعاً أخرى منها. وهي تبدو كالتالي:

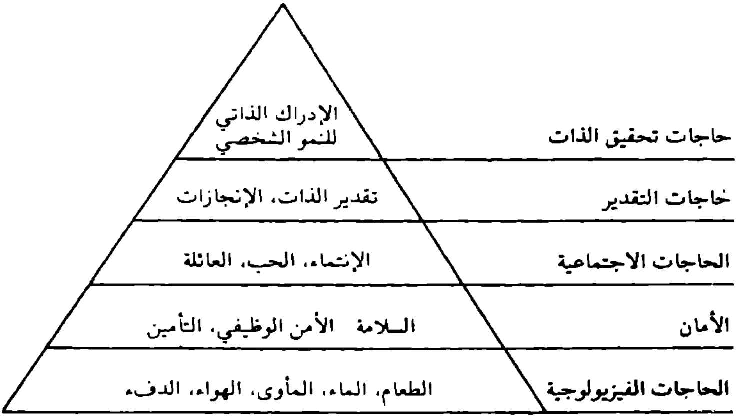

تسلسل ماسلو الهرمي للاحتياجات

ما إن تشبع حاجتك إلى الطعام والماء حتى تنتقل إلى المجموعة الثانية من الحاجات، وهي الأمان، ومن ثم إلى ما بعدها وما بعدها، لكن الأمر المهم، بحسب ماسلو، أنك ما لم تلبّ حاجاتك الفيزيائية فلا يمكنك حتى أن تشعر بالقلق في شأن حاجات الأمان أو الحاجات الاجتماعية ناهيك «بتحقيق الذات»، أي عندما تشرع مثلاً في إنجاز عمل فني والتفكير في المسائل الأخلاقية أو في فيزياء الكم وغيرها من الأمور.

وأنا، بحسب ماسلو، عالقة في المستوى الثاني من الهرم، غير قادرة على الشعور بالأمان الصحي وعاجزة بالتالي عن البحث عن الحب والاحترام والفن وغير ذلك، وهذا بالطبع هراء تام: فعندما تمرض لا يتلاشى الحافز على صناعة الفن أو على التأمل الفلسفي. بل إن المرض يحوّل فقط مظهر هذه الحوافز.

يبدو أن هرم ماسلو يفترض ضمناً أنني أقل إنسانية من الناس الآخرين، ويبدو أن معظم الناس يتّفقون معه في الرأي. لكن ليس أغسطس. اعتقدت دوماً بأنه يمكنه أن يحبني لأنه كان مريضاً في السابق ولم يتبادر إلى ذهني إلا الآن أنه ربما لا يزال مريضاً.

وصلنا إلى غرفتي، كيركغارد. وجلست على السرير متوقعة أن ينضم إليّ، لكنه قبع في الكرسي المنجّد المغبّر. ذلك الكرسي. كم عمره؟ خمسون عاماً؟

شعرت بالعقدة في أسفل حلقي تتصلب وأنا أشاهده يسحب سيجارة من علبتها ويغرزها بين شفتيه. وانحنى إلى الخلف وتنهد. «قبل دخولك تماماً إلى غرفة العناية الفائقة أخذت أشعر بهذا الألم في وركي».

«لا»، قلت. وقد دبّ فيّ الذعر وأسقطني في براثنه.

وهزّ برأسه: «وخضعت بالتالي للتصوير المقطعي»، وتوقّف. سحب السيجارة من فمه بعنف وصرّ على أسنانه.

كرّست معظم حياتي في محاولة عدم البكاء أمام الناس الذين يحبونني، وعرفت بالتالي ما يفعله أغسطس. فأنت تصر على أسنانك. وتنظر إلى الأعلى. وتقول لنفسك إنك ستؤذيهم لو رأوك تبكي، ولن ولن تسبب لهم إلا الحزن في حياتهم، وعليك ألا تصبح مجرّد حزن، وبالتالي فانك لا تبكي وتقول ذلك كله لنفسك وأنت تنظر إلى السقف، ومن ثم تبتلع ريقك على الرغم من أن حلقك لا يطاوعك وتنظر إلى الشخص الذي يحبك وتبتسم.

افترّ ثغره عن ابتسامة ملتوية، ثم قال: «أضأت مثل شجرة الميلاد، يا هازل غريس. باطن صدري، وركي الأيسر، كبدي، كل مكان».

كل مكان. علقت الكلمة في الهواء لحظة، وكلانا يعرف ما تعنيه. نهضت وجررت جسمي والعربة عبر السجادة التي كانت أقدم مما سيكونه أغسطس، وركعت عند قاعدة الكرسي ووضعت رأسي في حضنه وعانقت خصره.

أخذ يداعب شعري. وقلت: «آسفة».

قال بصوت هادئ: «آسف لأنني لم أخبرك. لا بدّ أن أمك تعرف، بالطريقة التي نظرت بها إليّ. لا بد أن أمي أخبرتها أو ما شابه. كان يجب أن أخبرك. كنت غبياً، أنانياً».

عرفت بالطبع لماذا لم يقل شيئاً: للسبب نفسه الذي لم أرده فيه أن يراني في غرفة العناية الفائقة. لم أستطع أن أغضب ولو حتى لحظة، وأدركت الآن فقط، وقد أُغرمت بقنبلة يدوية، حماقة محاولة إنقاذ الآخرين من تفجّري الوشيك: لا يمكنني التوقف عن حب أغسطس واترز.

قلت: «هذا ليس بعدل. اللعنة، هذا غير عادل».

قال: «العالم ليس مصنعاً لتحقيق الأمنيات»، ومن ثم انهار، لحظة واحدة فقط، وشهيقه يزأر عاجزاً أشبه بقصفة رعد لا يواكبها برق، إنها الشراسة الرهيبة التي قد يخطئ هواة الألم في اعتبارها ضعفاً. ثم سحبني نحوه وقال بتصميم ووجهه على بعد إنشات من وجهي: «سأحاربه. سأحاربه من أجلك. لا تقلقي بشأني يا هازل غريس. أنا بخير. سأجد طريقة للتسكّع حولك وإزعاجك وقتاً طويلاً».

أخذت أبكي. لكنه حتى في هذه اللحظة تميّز بالقوة، واحتضنني بقوة بحيث استطعت أن أرى عضلات ذراعيه القوية تلتف من حولي

وهو يقول: «آسف. ستكونين بخير. سيكون كل شيء بخير. أعدك». وابتسم ابتسامته الملتوية.

قبّل جبهتي، وحينذاك شعرت بصدره القوي ينكمش بعض الشيء. «أعتقد في النهاية أن بي عيباً».

شددت به بعد برهة إلى السرير حيث تمدّدنا معاً وأخبرني أنهم شرعوا في إخضاعه للعلاج الكيميائي الملطّف لكنه تخلّى عنه للمجيء إلى أمستردام على الرغم من حنق والديه. وقد حاولا منعه حتى ذلك الصباح عندما سمعته يصرخ أن جسمه يخصّه. وقلت: «كان بالإمكان تغيير الموعد».

وأجاب: «لا. ما كان ذلك بالإمكان. وعلى أي حال لم ينجح العلاج. وعرفت ذلك. هل تدركين ما أقول؟».

هززت برأسي إيجاباً. وقلت: «الأمر كلّه مجرد هراء».

«سيحاولون شيئاً جديداً بعد عودتي إلى المنزل. لا تنقصهم أبداً الأفكار الجديدة».

«صحيح». قلت ذلك وقد أدركت معناه لأني أنا نفسي تحولت إلى وسادة دبابيس تجريبية.

قال: «غششتك نوعاً ما بدفعك إلى الاعتقاد أنك تُغرمين بشخص معافى».

وهززت كتفيّ «كنت فعلت الأمر نفسه معك».

«لا. ما كنت فعلتِ هذا. لكن لا يسعنا جميعنا أن نكون بروعتك». وقبّلني. ثم لوى قسمات وجهه.

الفصل الرابع عشر

قال غاس في رحلة العودة إلى الديار، على علو عشرين ألف قدم فوق الغيوم التي تعلو عشرة آلاف قدم عن الأرض: «تعوّدت على التفكير في أن الحياة ممتعة على غيمة».

قلت: «نعم، سيكون ذلك شبيهاً بالمشي الدائم على سطح القمر بثياب رواد الفضاء المنفوخة».

«لكن، حين كنت في صف العلوم في المدرسة المتوسطة، سأل السيد مارتينيز من منّا حلم يوماً بأنه يعيش في الغيوم، ورفع الجميع أيديهم. وعندها أخبرنا السيد مارتينيز بأن الريح في الغيوم فوق تعصف بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة وتبلغ درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر وبأنه لا وجود للأكسجين وبأننا سنموت جميعنا في غضون ثوان».

«يبدو هذا الشخص لطيفاً».

«تخصّص في قتل الأحلام، يا هازل غريس. دعيني أقلْ لك.

أتعتقدين أن البراكين رائعة؟ قولي ذلك لعشرات آلاف الجثث الصارخة في بومبي. هل ما زلت تعتقدين سرّاً بوجود عنصر من السحر في هذا العالم؟ إنها كلها جُزيْئات لا حياة فيها يصطدم بعضها ببعض وترتد بشكل عشوائي. هل تقلقين من التفكير في من سيهتم بك إذا مات أهلك؟ عليك بذلك أيضاً لأنهما سيتحولان إلى طعام للدود في اكتمال الزمن».

قلت: «الجهل نعيم».

سارت إحدى المضيفات في الممر تجر عربة المشروب وهي شبه هامسة: «مشروب؟ مشروب؟ مشروب؟ مشروب؟» انحنى غاس فوقي رافعاً يده. «أيمكننا، من فضلك، الحصول على بعض الشمبانيا؟».

وسألتْ بتشكّك: «هل بلغت الحادية والعشرين؟». أعدتُ ترتيب الأنبوب في أنفي. ابتسمت المضيفة، ثم ألقت نظرة سريعة على والدتي النائمة، وسألت: «ألن تمانع؟»، وهي تعني أمي.

«لا» قلت.

صبّت الشمبانيا في كوبين من البلاستيك. إنها منافع السرطان.

رفعنا كأسينا. «نخبكِ» قال.

«نخبكَ»، قلت، ولامست كأسي كأسه.

ارتشفنا. نجوم أكثر خفوتاً من تلك التي شربناها في «أورنجي»، لكن مذاقها لا يزال جيداً.

قال لي غاس: «هل تعلمين أن كل ما قاله فان هوتن صحيح».

«ربما، لكن يجب ألّا يكون على هذا القدر من السفالة. لا أستطيع أن أصدّق أنه تخيّل مستقبلاً للهامستر سيزيفس دون والدة آنّا».

هزّ أغسطس كتفيه. بدا فجأة كأنه يفقد وعيه. وسألته، «هل أنت بخير؟».

هزّ رأسه بشكل لا يكاد يُلحظ، «مؤلم»، قال.

«الصدر؟».

هزّ برأسه إيجاباً، وقبضتاه مشدودتان. وفي وقت لاحق شبّه ألمه برجل بدين يرتدي كعباً عالياً ويقف في وسط صدره. أعدت مقعدي إلى وضعيته المستقيمة وثبّته وانحنيت بحثاً عن الحبوب في الحقيبة على ظهره. ابتلع واحدة مع الشمبانيا. وسألته من جديد: «هل أنت بخير؟».

جلس غاس في مكانه يشدّ على قبضتيه في انتظار أن يسري مفعول الدواء الذي لا يقضي على الألم بقدر ما يبعده عنه (وعني).

«كأن المسألة شخصية»، قال غاس بهدوء. «كأنه غاضب منّا لسبب من الأسباب. أعني فان هوتن». وشرب ما تبقى من الشمبانيا في كأسه بسلسلة سريعة من الجرعات وسرعان ما غطّ في النوم.

انتظرَنا والدي في منطقة استلام الحقائب واقفاً وسط سائقي الليموزين الذي يرتدون بزّاتهم ويرفعون لافتات بأسماء عائلات ركابهم: جونسون، بارينغتون، كارمايكل. وحمل والدي اللافتة الخاصة به وجاء فيها: (عائلتي الجميلة)، وكتب تحت ذلك (وغاس).

عانقته، وشرع (طبعاً) في البكاء.أخبرت والدي، أنا وغاس ونحن في الطريق إلى المنزل، القصص عن أمستردام، ولم أخبره عن غاس إلا بعدما أصبحت في المنزل وتم ربطي بـ«فيليب» وشرعنا أنا وأبي

نشاهد التلفزيون الأميركي المحبَب إلى قلوبنا ونحن نأكل البيتزا الأميركية التي وضعناها في حضننا مغلّفة بمحارم الورق.

قلت: «عاود المرض غاس».

«أعرف»، قال. وزحف صوبي ثم أضاف: «أخبرتنا أمه بذلك قبل السفر. آسف لأنني أخفيت عنك الأمر. أنا أنا آسف يا هازل». لم أقل شيئاً وقتاً طويلاً. يدور البرنامج الذي نحضره حول أناس يحاولون اختيار المنزل الذي سيشترونه. وقال أبي، «قرأتُ محنة عظيمة خلال غيابكم».

أدرت رأسي صوبه وقلت: «أوه، رائع. وما رأيك؟».

«جيّد. وجدته صعب الفهم قليلاً. فأنا، كما تذكرين، تخصّصت في الكيمياء البيولوجية ولست بالشّخص المحب للأدب. لكنني أتمنى لو أن القصة تنتهي».

قلت: «نعم، إنها الشكوى العامة».

«كما أنه يائس نوعاً ما»، قال. «انهزامي قليلاً».

«إذا عنيت بانهزامي أنه صادق فسأوافقك الرأي».

«لا أعتقد أن الانهزامية صدق»، أجاب أبي. «أرفض القبول بذلك».

«إذاً فإن كل شيء يجري لسبب ما وسنذهب جميعنا للعيش على سحابة، ونعزف على القيثارة، ونعيش في القصور؟».

ابتسم أبي. أحاطني بذراعه الكبيرة وسحبني نحوه مقبّلاً جانب رأسي. «لا أعرف ما الذي أعتقده يا هازل. اعتقدت أن بلوغ المرء سن الرشد يعني معرفة ما يؤمن به، لكنني لم أختبر ذلك».

«نعم، لا بأس».

كرّر لي من جديد أنه آسف بشأن غاس، وعاد لمتابعة البرنامج، واختار الناس منزلاً، ولا يزال أبي يحيطني بذراعه. شرعت أغفو لكنني لم أرد أن آوي إلى الفراش، ثم قال والدي: «أتعرفين ماذا أعتقد؟ أذكر وأنا أحضر حصة الرياضيات في المعهد وذلك المقرر الرائع الذي تُدرّسه تلك المرأة المتقدمة في السن الدقيقة القامة. أخذت تتكلم عن تحويلات «فورييه» السريعة ثم توقفت في وسط الجملة وقالت: يبدو أحياناً كما لو أن الكون يريد أن تتم ملاحظته».

«هذا ما أعتقده. أعتقد أن الكون يريد أن تتم ملاحظته. أعتقد أن الكون منحاز انحيازاً لا يُصدّق إلى المعرفة، وأن أحد أسباب مكافأته الذكاء هو في أنه يستمتع بأن تتم مراقبة انسجامه. ومن أنا، الذي يعيش في وسط التاريخ، لأقول عن الكون إنه مؤقّت، أو أن ملاحظتي له تقود إلى أنه مؤقت؟».

قلت بعد قليل: «أنت حاذق بعض الشيء».

وأجاب: «وأنت تجيدين الاطراء».

توجّهت بالسيارة بعد الظهر التالي إلى منزل غاس وتناولت شطائر زبدة الفستق والهلا مع والديه وأخبرتهما عن أمستردام، فيما غاس يأخذ قيلولته على أريكة غرفة الجلوس حيث سبق أن شاهدنا V for Vendetta تمكّنت من رؤيته من المطبخ: تمدّد على ظهره ورأسه في الاتجاه المعاكس لي وأنبوب القسطرة موصول بالفعل. وأُمِدّ بعقارين كيميائيين ومستقبِل بروتين لاطفاء الجينة الورمية في سرطان غاس. قيل لي إنه محظوظ لتطبيق التجربة عليه. لقد عرفت واحداً من العقارين، ومجرد سماع اسمه أشعرني بحاجة للتقيؤ.

بعد فترة وصل إسحق مع أمه.

«مرحى إسحق، أنا هازل من مجموعة الدعم ولست صديقتك السابقة الشريرة». سارت به أمه إليّ، ونهضت من كرسي غرفة الطعام وعانقته، واستغرق لحظة ليجدني قبل أن يحتضنني بدوره، وبقوة.

سأل: «كيف كانت أمستردام؟».

قلت: «رائعة».

«واترز، أين أنت أيها الأخ؟».

«إنه يأخذ قيلولة»، قلت واختنق صوتي.

«هذا سيّئ»، قال إسحق بعد لحظة. سارت به أمه إلى كرسي سبق لها أن سحبته، وجلس.

«لا أزال أستطيع السيطرة على إستك العمياء في لعبة «مكافحة التمرد»، قال أغسطس من دون أن يستدير صوبنا. أبطأ الدواء نطقه قليلاً ليبلغ سرعة الأناس العاديين فقط.

«أنا على تمام الثقة من أن كل أست عمياء»، أجاب إسحق ومدّ يديه في الهواء بشكل غامض بحثاً عن أمه. أمسكتُ به وسحبته، وسارا إلى الأريكة حيث تعانق غاس وإسحق بشكل أخرق. وسأله إسحق: «كيف تشعر؟».

أجاب غاس: «كل شيء يبدو منفّراً كطعم الدراهم النحاسية وأنا في ما عدا ذلك على قطار ملاهٍ لا يتجه إلا صعوداً، يا فتى». وضحك إسحق. سأله غاس: «كيف عيناك؟».

«أوه، ممتازتان. أعني أن المشكلة الوحيدة هي أنهما لم تعودا في رأسي».

«رائع، نعم»، قال غاس. «ليس من قبيل المزايدة عليك أو أي شيء، لكن جسمي مكوّن من السرطان».

«هذا ما تناهى إليّ»، قال إسحق محاولاً عدم التأثّر. تلمّس يد غاس لكنه لم يعثر إلا على فخذه.

قال غاس: «أنا مرتبط».

جلبت والدة إسحق كرسيين من غرفة الطعام، وجلسنا أنا وإسحق على مقربة من غاس. أمسكتُ بيد غاس وأخذتُ أرسم دوائر في الفسحة الواقعة بين الإبهام والسبابة.

توجّه الكبار إلى القبو للرثاء، أو لغير ذلك، وتركونا نحن الثلاثة في غرفة الجلوس وحدنا. أدار أغسطس بعد فترة رأسه صوبنا، إذ جاء استيقاظه بطيئاً، وسأل: «كيف مونيكا؟».

«لم أسمع شيئاً عنها ولو مرّة»، قال إسحق. «لا بطاقات؛ لا بريد إلكترونياً. حصلتُ على تلك الآلة التي تقرأ بريدي الإلكتروني. إنها رائعة. ويمكنني تغيير جنس الصوت أو لكنته».

«كأن أرسل لك رواية إباحية فتجعل ذلك العجوز الألماني يقرأها لك؟».

«تماماً»، قال إسحق. «مع أنه لا يزال يتوجّب على أمي أن تساعدني فيها، وربما كان عليك أن تمتنع عن إرسال المادة الإباحية الألمانية أسبوعاً أو اثنين».

وسألت: «ألم تعمد حتى إلى توجيه رسالة نصية تسأل فيها عن حالك؟». وقد صدمني ذلك بوصفه ظلماً لا يمكن تصوّره.

قال إسحق: «صمت لاسلكي مطبق».

قلت: «هذا سخيف».

«توقفت عن التفكير في الأمر. ليس لديّ وقت لصديقة. لديّ ما يشبه العمل بدوام كامل أتعلّم فيه كيف أكون أعمى».

أدار غاس وجهه بعيداً عنا محدّقاً من النافذة إلى الفناء في باحته الخلفية، وقد أغمض عينيه.

سألني إسحق عن حالي، فقلت إنني بخير، وأخبرني عن فتاة جديدة في مجموعة الدعم ذات صوت مثير فعلاً ويريد مني أن أذهب لأقول له هل هي مثيرة فعلاً. وعندها قال أغسطس فجأة: «لا يمكنك عدم الاتصال بصديقك السابق بعدما اقتُلعت عيناه من رأسه اللعين».

وشرع إسحق في القول: «واحدة فقط من...

وسألني غاس: «هل معك أربعة دولارات يا هازل غريس؟».

قلت: «نعم».

قال: «ممتاز. ستجدين ساقي تحت طاولة القهوة». دفع غاس بنفسه جالساً ثم انزلق إلى حافة الأريكة. ناولته الرجل الاصطناعية؛ وربطها بحركة بطيئة.

ساعدته على الوقوف ثم قدّمت ذراعي لإسحق وأرشدته عبر الأثاث الذي بدا فجأة غير مألوف. وأدركت، للمرة الأولى خلال أعوام، أنني الشخص الأكثر صحة في الغرفة.

قدت السيارة. جلس أغسطس بقربي وإسحق في الخلف. توقفنا عند متجر بقالة حيث اشتريت، بناء على تعليمات غاس، دزينة من

البيض فيما انتظر وإسحق في السيارة. ثم وجّهنا إسحق، بالاعتماد على ذاكرته، إلى بيت مونيكا، وهو منزل معقّم جيداً مؤلف من طابقين على مقربة من المعهد. قبعت سيارة مونيكا، البونتياك فايربرد الخضراء من طراز التسعينيات، بإطاراتها العريضة في الممر.

«أهي هنا؟»، سأل إسحق عندما شعر بتوقفي.

«أوه، إنها هنا»، قال أغسطس. «أتعرف كيف يبدو الأمر يا إسحق؟ يبدو كَكل الأمور التي كنا أغبياء في أن نأمل تحقّقها».

«هي في الداخل إذاً؟».

أدار غاس رأسه ببطء للنظر إلى إسحق وقال: «من يهتم بمكانها؟ الأمر لا يتعلق بها. الأمر يتعلّق بك». أمسك غاس بكرتونة البيض في حضنه، ثم فتح الباب وسحب رجليه إلى الشارع. فتح الباب لإسحق، وراقبت في المرآة غاس يساعد إسحق على الخروج من السيارة وأحدهما يستند إلى كتف الآخر ثم راحا يسيران ويتضاءلان تدريجاً شبيهين بيدين متضرعتين لا يلتقي باطنهما تماماً.

أنزلت النافذة وراقبت من السيارة، لأن التخريب يثير عصبيتي. خطوا بضع خطوات باتجاه السيارة، ثم فتح غاس الكرتونة وناول إسحق بيضة. قذف بها إسحق وأخطأ السيارة بأربعين قدماً على الأقل.

صوّب نحو اليسار قليلاً قال غاس.

«هل جاءت رميتي قليلاً إلى اليسار أم أن علي أن أصوبها قليلاً إلى اليسار؟».

«صوّب إلى اليسار». أدار إسحق كتفيه. وقال غاس: «أكثر إلى

اليسار». فدار إسحق أكثر. «نعم. ممتاز. ارم بقوة». وأعطاه غاس بيضة أخرى قذفها إسحق فطارت في مسار قوسي فوق السيارة وتحطّمت على سقف المنزل ذي الانحدار الخفيف. «أصبت نقطة الهدف!»، قال غاس.

«حقاً؟» قال إسحق بإثارة.

«لا، فقد رميتها نحو عشرين قدماً فوق السيارة. ارم بقوة فحسب، لكن أبقِ رميتك منخفضة». مد إسحق يده ووجد بنفسه بيضة في الكرتونة التي يحتضنها غاس، ورماها مصيباً أحد الأضواء الخلفية. «نعم!»، قال غاس. «نعم! ضوء خلفي!».

تناول إسحق بيضة أخرى، وأخطأ كثيراً في الرمي إلى اليمين، ثم أخرى، فأخطأ في الرمي إلى الأسفل، ثم أخرى أصابت الزجاج الخلفي. ثم حقق ثلاث إصابات متتالية على الصندوق. «هازل غريس»، ناداني غاس. «التقطي صورة للمشهد ليتمكّن إسحق من رؤيتها عندما يخترعون عيوناً اصطناعية». رفعت نفسي بحيث بت جالسة على النافذة المفتوحة ومرفقاي على سقف السيارة والتقطت صورة بهاتفي: أغسطس وسيجارة غير مشتعلة في فمه وابتسامة ملتوية بشكل حلو وهو يمسك فوق رأسه بكرتونة البيض شبه الفارغة، وقد لف يده الأخرى حول كتف إسحق الذي لم تستدر نظّارته تماماً صوب الكاميرا، ومن ورائهما مخ البيض على زجاج الفايربرد الخضراء والواقي من الصدمات. ومن وراء ذلك كله باب أخذ يفتح.

«ماذا»، سألت المرأة المتوسطة العمر بعد لحظة من التقاطي الصورة، «باسم الخالق...» ثم توقفت عن الكلام.

قال أغسطس وهو يومئ برأسه في اتجاهها: «سيدتي، لقد رشق رجل ضرير للتو سيارة ابنتك بما تستحقه من البيض. أرجوك أقفلي الباب وعودي إلى الداخل وإلا اضطررنا إلى الاتصال بالشرطة». تردّدت والدة مونيكا لحظة، ثم أقفلت الباب واختفت. رمى إسحق البيضات الثلاث الأخيرة بتتابع سريع ثم أرشده غاس إلى السيارة. «كما ترى يا إسحق، إذا سلبتهم الشعورَ بأنهم يقفون موقفاً صحيحاً، وقلبت هذا الموقف رأساً على عقب بحيث يعتريهم إحساس بأنهم يقترفون جريمة بمشاهدتهم سياراتهم وهي تُرشق بالبيض، فستنتابهم مشاعر الارتباك والخوف والقلق، وسيعودون بهدوء إلى حياتهم البائسة». قال غاس ذلك وهو يقود خطوات إسحق في طريق عودتهما إلى السيارة. وأسرع غاس من حول مقدمة السيارة وجلس في المقعد الأمامي. أقفل البابان، وانطلقتُ مسرعة أقود مسافة بضع مئات من الأقدام قبل أن أدرك أنني أسير في شارع مسدود. استدرت في الطريق المسدود وأسرعت عائدة ومتجاوزة بيت مونيكا.

لم ألتقط له أي صورة أخرى.

الفصل الخامس عشر

بعد ذلك بأيام قليلة حشرنا أنفسنا في بيت غاس، أنا وأهلي وهو وأهله، حول طاولة الطعام نأكل الفلفل الأخضر المحشو فوق سماط استُخدم للمرة الأخيرة في القرن الماضي بحسب والد غاس.

والدي: «إيميلي، هذا الريسوتو...

والدتي: «لذيذ».

والدة غاس: «أوه، شكراً. سيسعدني أن أعطيك الوصفة».

غاس وهو يبتلع ما قضمه: «تعرفون، أن الطعم الأول الذي أتذوقه ليس طعم أورانجي».

أنا: «ملاحظة جيدة يا غاس. هذا الطعام، على الرغم من أنه لذيذ، ليس له طعم أورانجي».

والدتي: «هازل».

غاس: «طعمه مثل...

أنا: «الطعام».

غاس: «نعم، بالضبط. طعمه كالطعام المحضر بطريقة ممتازة. لكنه لا يشبه... كيف أعبّر عن الأمر بشكل لطيف؟».

أنا: «طعمه ليس كأن الله نفسه طبخ الجنة في سلسلة من خمسة أطباق، قُدّمت لك بعدها مع عدة كرات مضيئة من البلازما المخمّرة الفوارة، فيما تطايرت تويجات الزهر الفعلية والحقيقية حول طاولتك الموجودة عند جانب القناة».

غاس: «تعبير لطيف».

والد غاس: «ولدانا غريبا الأطوار».

والدي: «تعبير لطيف».

انتهى الأمر بغاس، بعد أسبوع على عشائنا، في غرفة العناية الفائقة بسبب الألم في الصدر، وسمحوا له بالدخول بين ليلة وضحاها. قدتُ السيارة في الصباح التالي إلى مستشفى ميموريال وزرته في الطابق الرابع. لم آتِ إلى ميموريال منذ زيارتي إسحق. ولم يكن هناك تلك الجدران المطلية بالألوان الأساسية المتخمة بالإشراق واللوحات المؤطرة لكلاب تقود سيارات كالتي يجدها المرء في مستشفى الأولاد. بل إن عقم المكان أشعرني بالحنين إلى تفاهات الولد السعيد في مستشفى الأولاد. فميموريال مستشفى عملي للغاية. إنه مرفق تخزين. المكان الذي يسبق انتقال الميت فيه إلى محرقة الجثث.

لما فُتح باب المصعد، شاهدت والدة غاس تجول في غرفة الانتظار وتتحدث عبر الهاتف الخلوي. أقفلت الخط سريعاً ثم عانقتني وعرضت أن تتولى عربتي.

«أنا بخير»، قلت. «كيف غاس؟».

قالت: «أمضى ليلة قاسية، يا هازل. قلبه يعمل بمشقة كبيرة. يجب أن يخفف من نشاطه. عليه من الآن وصاعداً أن يستخدم الكرسي ذا العجلات. وهم يخضعونه لنوع من الدواء الجديد الأفضل لمعالجة ألمه. وقد جاءت شقيقاته إلى هنا للتو بالسيارة».

«حسناً»، قلت. «هل يمكنني أن أراه؟».

وضعت ذراعها حولي وشدّت على كتفي. بدا ذلك مستغرباً. «تعرفين أننا نحبك، يا هازل، لكننا نحتاج الآن إلى أن تجتمع العائلة حوله. وغاس يوافق على ذلك. لا بأس؟».

«حسناً»، قلت.

«سأقول له إنك جئت للزيارة».

«حسناً»، قلت. «سأكتفي ببعض القراءة هنا، على ما أعتقد».

مضت عبر الردهة إلى حيث هو. فهمت، لكنني لا أزال أفتقده. بقيت أعتقد أنني ربما أفوّت فرصتي الأخيرة لأودّعه. فُرشت غرفة الانتظار كلها بالسجاد البني وبالمقاعد ذات الأقمشة المنجّدة بالبني. جلست فترة في مقعد مزدوج وعربة الأكسيجين بين قدمي. وضعتُ حذائي الـ«تشاك تايلور» والقميص الذي كُتب عليه، «هذا ليس بغليون»، وهو اللباس نفسه الذي ارتديته قبل ذلك بأسبوعين عصر يوم «مخطط فين»، والذي لن يتمكن من رؤيته. شرعت في تقليب الصور على هاتفي، كما تُقَلَّب الرسوم في كتاب وتأخذ في التحرّك، أستعرض بطريقة خلفية الأشهر القليلة الماضية بدءاً به وبإسحق خارج منزل

مونيكا، وانتهاء بأول صورة التقطتها له ونحن في الطريق بالسيارة إلى متنزّه «العظام غير التقليدية». بدا الأمر كأنه جرى منذ الأزل، كما لو أننا حصلنا على ذلك الأبد الوجيز الذي لم ينتهِ بعد. فبعض اللانهائيات أكبر من اللانهائيات الأخرى.

بعد ذلك بأسبوعين دفعت بغاس على كرسيه المتحرك عبر متنزّه الفن صوب «العظام غير التقليدية»، وقد وضع في حضنه زجاجة من الشمبانيا الفاخرة جداً ومستوعب أكسجين. الشامبانيا هدية من أحد أطباء غاس، ذلك أن غاس من النوع الذي يلهم الأطباء بتقديم أفضل ما لديهم من زجاجات الشامبانيا للأولاد. جلسنا، أنا على العشب الرّطب وغاس على كرسيّه، قريبين من العظام. وأشرت إلى الأولاد الصغار الذين يحث بعضهم بعضاً على القفز من قفص صدري إلى كتف، وأجاب غاس بصوت مرتفع كفاية ليُسمع وسط الضجيج: «تخيّلت نفسي في المرة الماضية بأنني الولد. وهذه المرة أتخيل أنني الهيكل العظمي».

شربنا بأكواب كرتونية تحمل رسم «ويني-ذا-بوه» (Winnie-the-Pooh).

الفصل السادس عشر

هاكم يوماً نموذجياً في مرحلة متأخرة من مرض غاس:

قصدت منزله قرابة الظهر، بعدما تناول فطوره وتقيّأه، فلاقاني بكرسيه المتحرك عند الباب. لم يعد ذلك الفتى المفتول العضلات البهي الطلعة الذي حدّق إليّ في مجموعة الدعم، لكنه لا يزال يبتسم نصف ابتسامة ويدخن سيجارته غير المشتعلة، وعيناه الزرقاوان مشرقتان وحيّتان.

تناولنا الفطور مع أهله إلى طاولة غرفة الطعام. شطائر زبدة الفستق والهلام والهليون المتبقي من الليلة الماضية. لم يأكل غاس شيئاً. وسألته عن حاله.

«عظيم»، قال. «وأنتِ؟».

«بخير. ماذا فعلت في الليلة الماضية؟».

«الكثير من النوم. أريد أن أكتب لك تكملة للرواية يا هازل غريس، إلا أنني، ويا للعنة، أشعر بالتعب طوال الوقت».

قلت: «يمكنك أن تسردها لي».

«حسناً، أنا أتمسّك بتحليلي السابق لفان هوتن والمتعلق برجل الخزامى الهولندي. وهو ليس نصاباً ولكنه ليس غنياً كما قال».

«وماذا عن والدة آنّا؟».

«لم أستقرّ على رأي بعد. صبراً أيها المرح». وابتسم أغسطس. جلس والداه صامتين يراقبانه ولا يشيحان بنظرهما عنه كما لو أنهما أرادا التمتع باستعراض غاس واترز ما دام في المدينة. «أحلم أحياناً بأنني أكتب مذكرات. فالمذكرات هي الشيء الذي سيبقيني في قلب الجمهور الذي يعبدني وذاكرته.

سألته: «لماذا تحتاج إلى جمهور يعبدك وأنت قد حصلت عليّ؟».

«عندما تكونين، يا هازل غريس، ساحرة وجذابة جسدياً بقدري يسهل عليك كسب إعجاب الناس الذين تلتقينهم. لكن أن تحملي الغرباء على أن يُعجبوا بك فتلك هي الخدعة».

قلبت عينيّ.

خرجنا بعد الغداء إلى الفناء الخلفي. وهو لا يزال على قدر كافٍ من العافية ليجرّ كرسيه بنفسه، ويقوم بحركات بهلوانية صغيرة لتمرير العجلات فوق حدبة المدخل. وهو، على الرغم من كل شيء، لا يزال رياضياً وقد أُنعم عليه بالتوازن وردود الفعل السريعة التي لم تتمكن حتى المسكنات الوفيرة من أن تحجبها تماماً.

بقي والداه في الداخل، لكنني وجدت، عندما استرقت النظر إلى غرفة الطعام، أنهما لا يكفان عن مراقبتنا.

جلسنا هناك صامتين دقيقة قال بعدها غاس: «أود أحياناً لو أننا نملك تلك الأرجوحة».

«تلك التي كانت في الفناء الخلفي لمنزلنا؟».

«نعم. يبلغ حنيني درجة قصوى إلى حد أنني قادر على الاشتياق إلى أرجوحة لم تلمسها مؤخرتي قط».

قلت له: «إن الحنين تأثير جانبي للسرطان».

أجاب: «لا، الحنين تأثير جانبي للاحتضار». هبّت الريح فوقنا وانعكست ظلال الأغصان على بشرتنا انعكاساً مختلفاً. شدّ غاس على يدي. «إنها حياة جميلة، يا هازل غريس».

عدنا إلى الداخل لما احتاج إلى أدويته التي دُفعت إلى جوفه مع سائل التغذية عبر أنبوب فغر المعدة، وهو قطعة صغيرة من البلاستيك تختفي في بطنه. هدأ هنيهة وقد فقد تركيزه. أرادت أمه أن يأخذ قيلولة، لكنه استمر في هزّ رأسه رافضاً لدى اقتراحها ذلك، فتركناه يجلس في الكرسي فترة وهو شبه نائم.

شاهد والداه شريط فيديو قديماً لغاس مع شقيقتيه، وهما في مثل سني تقريباً وغاس في حوالى الخامسة. لعبوا كرة السلة في ممر منزل مختلف. على الرغم من صغر قامة غاس فقد أمكنه التلاعب بالكرة كما لو أنه يفعل ذلك منذ ولادته وهو يدور في حلقات حول شقيقتيه وهما تضحكان. وهي المرة الأولى التي أشاهده فيها يلعب كرة السلة. قلت: «كان جيّداً».

«كان عليك أن تريه في الثانوية»، قال والده. «وقد بدأ حديثاً اللعب في الجامعة».

تمتم غاس: «أيمكنني النزول إلى الطابق الأسفل؟».

جرّت أمه ووالده الكرسي إلى الأسفل وغاس لا يزال فيه، وقد وثبت نزولاً بجنون بطريقة كان يمكن أن تكون خطيرة لو كان للخطر معنى، ثم تركانا وحدنا. أوينا إلى السرير حيث تمددنا تحت الأغطية، أنا على جنبي وغاس على ظهره، ورأسي على كتفه الناتئة العظام، وحرارته تشع من خلال قميصه البولو على بشرتي، وقدماي مشتبكتان بقدمه الحقيقية، ويدي على خده.

عندما اقتربت من وجهه إلى حد كاد فيه أنفانا يلتقيان بحيث لم أستطع أن أرى سوى عينيه، لم يمكنني القول إنه مريض. تبادلنا القبل فترة ثم استلقينا معاً نستمع إلى ألبوم «هكتيك غلو» (Hectic Glow's) الذي يحمل الاسم نفسه، وغفونا في النهاية ونحن نشبه تشابكا كميا من الأنابيب والأجساد.

استيقظنا لاحقاً ورتّبنا أسطولاً من الوسادات لنتمكّن من الجلوس بارتياح عند حافة السرير ونلعب «مكافحة التمرد ٢: ثمن انبلاج الفجر». وأنا بالطبع ماهرة فيها، لكن مهارتي أفادته: سهّلت عليه الموت الجميل، كأن يقفز أمام رصاصة القناص ويضحي بنفسه من أجلي أو أن يقتل حارساً على وشك إطلاق النار عليّ. كم أنه سعد بإنقاذي. وصاح: «لن تقتل صديقتي اليوم أيها الإرهابي الدولي ذو الجنسية الملتبسة!».

خطر لي أن أتصنّع حادثة اختناق أو شيئاً من هذا القبيل ليقوم بإسعافي على طريقة همليك. ربما يستطيع عندها أن يتخلص من هذا الخوف المتمثل في أنه لم يعش حياته من أجل الصالح الأكبر. لكنني تصورته عندها غير قادر جسديا على هذه المناورة ما سيضطرني إلى

الكشف عن أن الأمر كله ليس إلا مجرد حيلة، مع ما سيعقب ذلك من مذلّة متبادلة.

من الصعب جدّاً التمسّك بكرامتك عندما تصبح الشمس الشارقة ساطعة جداً في عينيك الآخذتين في الإنطفاء، وهو ما أخذت أفكّر فيه ونحن نطارد الأشرار عبر أطلال مدينة لا وجود لها.

جاء والده في النهاية وجرّ غاس عائداً إلى الطابق العلوي، وانحنيت عند المدخل، وأنا أشجعه قائلة إنّ الأصدقاء يبقون أصدقاء إلى الأبد، وقبلته متمنية له ليلة سعيدة. وعدت إلى المنزل وتناولت العشاء مع أهلي تاركة غاس يأكل (ويتقيّأ) عشاءه.

شاهدت التلفاز بعض الوقت ثم أويت إلى النوم.

استيقظت.

وحوالى الظهر عدت إليه من جديد.

الفصل السابع عشر

توجّهت بالسيارة إلى منزله في صباح أحد الأيام، بعد شهر على عودتنا من أمستردام. أبلغني والداه أنه لا يزال نائماً في الطابق السفلي، فقرعت بقوة باب القبو قبل أن أدخل، ثم سألت: «غاس؟».

وجدته يتمتم بلغة ابتكرها هو، وقد بلّل سريره. وكان ذلك مروّعاً. لم أستطع حتى النظر، حقاً. اكتفيت بمناداة والديه اللذين نزلا وصعدت أنا إلى فوق فيما كانا يقومان بتنظيفه.

عندما عاودت النزول، أخذ يفيق ببطء من المسكنات على نهار من الألم. رتّبت وسائده بحيث نتمكن من لعب «مكافحة التمرد» على الفراش العاري من أي غطاء، إلا أن التعب بلغ منه حداً، ولم يتمكن من التركيز، بحيث إن لعبه جاء فظيعاً بما كاد يعادل لعبي فظاعةً، ولم تكد تمر خمس دقائق لا يُقتل فيها أحدنا. وهو الآخر ليس موتاً بطولياً مجيداً، بل هو موت نتيجة الإهمال.

لم أقل له في الحقيقة شيئاً. أعتقد أنني كدت أريد أن ينسى أنني

هنا، وأملت ألّا يتذكّر أنني وجدت الفتى ...ي أحبه غارقاً في واسعة من بوله. وبقيت آمل أن يتطلّع إليّ ويقول: «أوه، هازل غريس كيف جئت إلى هنا؟».

لكنه، لسوء الحظ، تذكّر. وقال أخيراً، «يتطور لدي، مع مرور كل دقيقة، تقدير أعمق لكلمة ذليل».

«سبق أن بلّلتُ سريري يا غاس، صدّقني. ليس ذلك بالأمر المهم»

أخذ نفساً عميقاً ثم قال: «تعوّدتِ أن تدعيني أغسطس».

وأضاف بعد هنيهة: «تعرفين أن الأمر صبياني، لكنني فكّرت دوماً في أن نعيي سيُنشر في كل الجرائد، وفي أن لديّ قصة تستحق أن تُروى. لطالما راودني هذا الظن السرّي بأنني مميز».

«وأنت كذلك»، قلت.

قال: «لكنك تعرفين ماذا أعني».

لم أعرف ما الذي عناه، إلا أنني لم أوافق. وقلت له: «لا يهمني إذا كتبت «النيويورك تايمز» نعيي. أريد أن تكتب أنت فقط واحداً تقول إنك لست مميزاً لأن العالم لا يعرف شأنك، لكن في ذلك إهانة لي. فأنا أعرف شأنك».

«لا أعتقد أنني سأبقى حيّاً لأتمكن من كتابة نعيكِ»، قال بدلاً من الاعتذار.

أحبطني. «أريد فقط أن أكفيك، لكن لن أتمكن من ذلك أبداً فهذا لن يكفيك أبداً. غير أن هذا هو كل ما تحصل عليه. تحصل عليّ وعلى عائلتك وعلى هذا العالم. هذه حياتك. وآسفة لأنها فظيعة.

لكنك لن تصبح أول رجل يصعد إلى المريخ، ولن تصير نجماً في اتحاد كرة السلة الأميركية ولن تطارد النازيين. أعني، انظر إلى نفسك يا غاس». ولم يجب. وشرعت في القول، «لا أعني

فقاطعني: «أوه، لقد عنيته». وأخذت في الاعتذار وقال، «لا، أنا آسف. أنت محقة. لنلعب وحسب».

ولعبنا وحسب.

✦ الفصل الثامن عشر

استيقظت على هاتفي يعزف أغنية لـ «هكتيك غلو»، وهي المفضّلة لدى غاس. ويعني هذا أنه يتصل، أو أن أحداً يتصل من هاتفه. نظرت إلى المنبّه فوجدته يشير إلى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين فجراً. قلت لنفسي: «لقد مات»، فيما انهار كل شيء في داخلي فشعرت بأني وحيدة.

بالكاد استطعت أن أصيح: ألو؟».

وانتظرت أن أسمع الصوت الهالك لأحد من أهله.

«هازل غريس»، قال أغسطس بوهن.

«آه، شكراً لله هذا أنت. هاي، هاي أحبّك».

«هازل غريس أنا عند محطة المحروقات. هناك أمر ما. عليك أن تساعديني».

«ماذا؟ أين أنت؟».

«سبيدواي عند تقاطع ٨٦ وديتش. لقد أسأت استعمال أنبوب التغذية ولا أعرف، ماذا أفعل و...».

قلت: «سأتصل برقم الطوارئ ٩١١».

«لا، لا، لا، لا، لا، سيأخذونني إلى المستشفى. استمعي إليّ يا هازل. لا تتصلي بـ ٩١١ أو بأهلي وإلا فلن أسامحك أبداً. لا تفعلي أرجوك. أرجوك تعالي وأصلحي الأنبوب اللعين. هذا أغبى ما حدث لي يا إلهي. لا أريد لأهلي أن يعرفوا أنني خرجت. أرجوك. أحمل الدواء معي؛ لكنني لا أستطيع إدخاله. أرجوك». وكان يبكي. لم يسبق لي أن سمعته ينشج بهذا الشكل إلا وأنا خارج منزله قبل رحلة أمستردام.

«حسناً»، قلت. «أنا مغادرة الآن».

أطفأت جهاز التنفس ووصلت نفسي بمستوعب الأوكسجين ورفعته إلى عربتي ووضعت حذاء رياضياً يتناسب مع سروال بيجامتي القطنية الزهرية وقميص تي-شيرت لفريق كرة السلة في جامعة باتلر وهو في الأساس لغاس. أخذت المفاتيح من درْج المطبخ حيث تبقيها أمي وكتبت ملاحظة في حال استيقاظهما وأنا في الخارج.

ذهبت للاطمئنان عن غاس. الأمر مهم. عذراً.

أحبكما، هازل

استيقظت، وأنا أقود مسافة الميلين إلى محطة الوقود، بما يكفي لأتساءل عن سبب مغادرة غاس المنزل في منتصف الليل. ربما كان يهلوس، أو استحوذت عليه أحلام الاستشهاد.

زدت من سرعتي على طريق ديتش متجاوزة الضوء الأصفر الذي يومض، وأنا أسرع أكثر مما يجب، لأصل إليه من جهة، ومن جهة أخرى آملة أن يوقفني شرطي ويسمح لي بأن أبلغ أحداً بأن صديقي

مالق خارج محطة للوقود مع أنبوب تغذية معطّل. لكن لم يظهر أي شرطي ليأخذ القرار عني.

لم يكن في الساحة سوى سيارتين. وتوقفت بالقرب من سيارته. فتحت الباب. لمع الضوء الداخلي. جلس أغسطس وراء المقود وهو مغطى بقيئه ويداه تضغطان على بطنه حيث يخترقه الأنبوب. «هاي»، همهم.

«أوه، يا إلهي يا أغسطس. يجب نقلك إلى المستشفى».

«أرجوك، ألقي نظرة عليه». وكدت أتقيّأ من الرائحة لكنني انحنيت لتفحّص المكان فوق سرّته حيث وضعوا الأنبوب بعد عملية جراحية. كانت جلدة بطنه ساخنة وذات لون أحمر فاقع.

«أعتقد يا غاس أن هناك تلوّثاً ما. ولا أستطيع معالجته. لماذا أنت هنا؟ لماذا لست في المنزل؟» تقيّأ من دون أن تتبقى له الطاقة لإبعاد فمه عن حضنه. وقلت: «آه، يا حبّي».

وهمهم: «أردت شراء علبة سجائر. فقدت علبتي، أو أخذوها مني. لا أدري. قالوا إنهم سيبتاعون لي واحدة أخرى، لكنني أردت أن أفعل ذلك بنفسي».

وبقي يحدّق مباشرة إلى الأمام. سحبت بهدوء هاتفي ونظرت إليه لأطلب ٩١١.

«أنا آسفة»، قلت له. «تسعة واحد واحد. ما الأمر الطارئ؟» سألني من كان على الطرف الآخر من الخط «مرحى، أنا في سبيدواي عند تقاطع ٨٦ وديتش، وأحتاج إلى سيارة إسعاف. فأنبوب تغذية حب حياتي الكبير معطّل».

نظر إليّ، وكان الأمر رهيباً. بالكاد تمكّنت من النظر إليه. رحل أغسطس واترز صاحب الابتسامات الملتوية والسجائر غير المدخنة ليحل محله هذا الكائن اليائس الجالس هناك تحتي.

«قُضي الأمر. لم يعد باستطاعتي حتى ألا أدخن بعد الآن».

«غاس، أحبك».

«أين فرصتي في أن أصبح بيتر فان هوتن أحد ما؟»، وضرب المقود بضعف وزمّرت السيارة وهو يبكي. أمال برأسه إلى الوراء وهو ينظر إلى الأعلى. «أكره نفسي، أكره نفسي، أكره هذا، أكره هذا، أمقت نفسي، أكرهها، أكرهها، أكرهها، اللعنة دعيني أمت».

وبحسب تقاليد هذا النمط من الأمور، حافظ أغسطس واترز على حسه الفكاهي حتى النهاية، ولم يتخلّ لحظة عن شجاعته، وحلّقت نفسه عالياً كأنها نسر لا يُقهر إلى أن عجز العالم نفسه عن احتواء روحه البهيجة.

لكن هاكم الحقيقة: إنه صبي بائس أراد يائساً ألا يكون بائساً، يصرخ ويبكي، وقد تسمّم بأنبوب تغذية ملوّث يبقيه حيّاً ولكن ليس بما فيه الكفاية.

مسحت ذقنه وأخذت وجهه بيديّ وركعت قريبة منه بحيث أتمكن من رؤية عينيه اللتين بقيتا حيّتين. «آسفة. أتمنى لو أن الأمر يشبه ذلك الفيلم مع الفرس والأسبرطيين».

«وأنا أيضاً»، قال.

قلت: «لكنه ليس كذلك».

قال: «أعرف».

«ليس هناك أشخاص سيئون».

«نعم».

«حتى السرطان ليس حقاً سيئاً: فالسرطان يريد أن يبقى على قيد الحياة».

«نعم».

«هل أنت بخير؟»، سألته: سمعت صفارات الإنذار.

«بخير»، قال. وأخذ يفقد وعيه.

«يجب أن تعدني، يا غاس، بألا تعيد الكرّة. سأشتري لك السجائر، موافق؟» نظر إليّ. وعيناه تسبحان في محجريهما «يجب أن تعدني».

هزّ برأسه قليلاً ثم أغمض عينيه فيما كان رأسه يدور من حول عنقه.

«غاس»، قلت. «ابقَ معي».

«اقرأي لي شيئاً»، قال فيما سيارة الإسعاف اللعينة تتخطانا وهي تهدر. وفيما انتظرت أن يستديروا ويعثروا علينا، تلوت عليه القصيدة الوحيدة التي كان بإمكاني التفكير فيها: «عجلة اليد الحمراء» لوليام كارلوس وليامز.

يعتمد الكثير من الناس

على

عربة يد

حمراء

تلتمع بمياه

المطر

بجانب الدجاجات
البيضاء.

كان وليامز طبيباً. وبدت لي كأنها قصيدة طبيب. انتهت القصيدة، لكن سيارة الإسعاف بقيت تتجه مبتعدة عنا، فرحت أؤلّف تتمة لها.

قلت لأغسطس إن كثيراً من الناس يعتمدون على سماء زرقاء تقطَعها أغصان الأشجار في الأعلى. ويعتمد الكثير منهم على أنبوب التغذية المندفع من مصران الصبي ذي الشفتين الزرقاوين. ويعتمد كثيرون على مراقب الكون هذا.

نظر إليّ وهو نصف واعٍ وتمتم: «وتقولين إنك لا تكتبين الشعر».

الفصل التاسع عشر

عاد بعد ذلك بأيام قليلة من المستشفى إلى المنزل، وقد سُلبت منه في النهاية طموحاته إلى الأبد. وتطلب الأمر مزيداً من الدواء لإبعاد الألم عنه. وانتقل بشكل دائم إلى الطابق العلوي، إلى سرير مستشفى على مقربة من نافذة غرفة الجلوس.

تلك أيام البيجاما واللحية النابتة، الهمهمات والمطالب وهو يشكر، إلى ما لا نهاية له، الجميع على كل ما يقومون به من أجله. وأشار بعد ظهر أحد الأيام بشكل غامض إلى سلّة الغسيل في إحدى زوايا الغرفة وسألني: «ما ذلك؟».

«سلة الغسـيل».

«لا الذي بجانبها».

«لا أرى شيئاً بجانبها».

«إنها آخر مِزْقة من كرامة بقيت لي. إنها صغيرة جداً».

دخلت بنفسي في اليوم التالي لأنهم لم يحبّوا أن أقرع جرس الباب بعد الآن لأن ذلك قد يوقظه. حضرت شقيقتاه مع زوجيهما المصرفيين وثلاثة أولاد، وجميعهم صبية، ركضوا جميعهم صوبي وهتفوا: من أنتِ، من أنتِ، من أنت، وهم يدورون في حلقات حول المدخل كما لو أن رئتي تتمتع ببطاقة متجدّدة تسمح لها بتحمّل ذلك. سبق لي أن التقيت الشقيقتين، لكنني لم ألتقِ قط الصبية أو والديهم.

قلت: «أنا هازل».

قال أحد الصبية، «لغاس صديقة».

قلت: «أنا على علم بأن لغاس صديقة».

وقال آخر: «لديها ثديان».

«أذلك صحيح؟».

«لماذا لديك ذلك؟» سأل الأول وهو يشير إلى عربة الأكسجين.

«إنه يساعدني على التنفس»، قلت. «هل غاس مستيقظ؟».

«لا، إنه نائم». وقال آخر: «إنه يُحتضر».

وقال الثالث مؤكداً: «إنه يُحتضر»، وقد تحوّل فجأة إلى الجدية. هدأ الجو هنيهة، وتساءلت عمّا يُفترض بي قوله، لكن واحداً منهم رَكَلَ الآخر وعادوا إلى التسابق من جديد وبعضهم يتساقط فوق البعض الآخر في تدافع باتجاه المطبخ.

توجهت إلى أهل غاس في غرفة الجلوس والتقيت صهريه، كريس وديف.

لم أتعرّف فعلاً على أختيه غير الشقيقتين، لكنهما عانقتاني على

أي حال. وجلست جولي على حافة السرير وهي تتحدث إلى غاس النائم بالصوت نفسه تماماً الذي يُبلَغ به طفل بأنه رائع، وهي تقول: «أوه، غاسي، غاسي، يا صغيرنا غاسي». صغيرنا غاسي؟ هل هما قريبتان منه إلى هذا الحدّ؟

«ما أخبارك يا أغسطس؟»، قلت وأنا أحاول اعتماد سلوك مناسب.

«جميلنا غاسي»، قالت مارتا وهي تنحني صوبه. وأخذت أتساءل هل إنه نائم بالفعل أم إنه ضغط بإصبعه على مضخة الألم لتفادي هجوم الشقيقتين الحسنتي النية.

استيقظ بعد فترة وأول ما قاله هو، «هازل»، ويجب أن أعترف بأن ذلك أسعدني نوعاً ما، كما لو أنني أنا أيضاً فرد من عائلته. وقال بهدوء: «هل يمكننا الذهاب إلى الخارج؟».

وذهبنا، أمه تدفع الكرسي النقّال، وأنا وشقيقاه وصهراه وأولاد شقيقتيه نتبعهما. كان يوماً غائماً وساكناً مع حلول حرّ الصيف. ارتدى تي-شيرت ذات أكمام طويلة باللون الأزرق البحري وسروالاً رياضياً صوفياً. شعر ولسبب ما بالبرد طوال الو أراد بعض الماء، فمضى والده وجلب له بعضاً منه.

حاولت مارتا محادثة غاس، وقد ركعت بجانبه وهي تقول: «عيناكَ كانتا دوماً جميلتين». وهزّ برأسه قليلاً.

وضع أحد الزوجين ذراعه على كتف غاس وقال: «كيف هو شعورك في الهواء النقي؟»، وهزّ غاس كتفيه.

«هل تريد أدويتك؟»، سألته أمه وهي تنضم إلى حلقة الراكعين من حوله. تراجعتُ خطوة إلى الوراء وأنا أراقب الصبية وهم ينطلقون بسرعة عبر حوض من الزهور إلى بقعة العشب الصغيرة في الفناء الخلفي لغرفة غاس. وشرعوا على الفور يلعبون لعبة يرمي فيها واحدهم الآخر على الأرض.

«يا أولاد!» صاحت جولي بصوت باهت.

وقالت وهي تستدير صوب غاس: «آمل أن يكبروا ويصبحوا مثلك من الشبّان المراعين للآخرين والأذكياء».

قاومتُ الرغبة في الضحك. وقلت لجولي: «إنه ليس على هذا القدر من الذكاء».

«إنها على حق. فالأمر هو أن الأناس الحسني المظهر حقاً أغبياء، ولهذا فأنا أغالي في كلامي».

قلت: «صحيح، فالأمر يتعلّق أساساً بروعته».

قال: «يمكنها أن تصيب بنوع من العمى».

قلت: «لقد أصابت في الواقع صديقنا إسحق بالعمى».

«تلك مأساة رهيبة. لكن ماذا يسعني حيال جمالي القاتل؟».

«لا شيء».

«هذا الوجه الجميل هو عبئي».

«هذا من دون ذكر جسمك».

«لا تتكلموا عن جسدي الرائع. فأنت لا تريد رؤيتي عارياً يا ديف.

فرؤيتي عارياً قطعت في الواقع أنفاس هازل»، قال وهو يومئ برأسه في اتجاه مستوعب الأكسجين.

«حسناً، يكفي»، قال والد غاس، ثم أحاطني، من دون سبب ظاهر، بذراعه وقبّل جانب رأسي وهمس: «أشكر اللّه كل يوم على وجودك يا صغيرة».

وهذا كان، على أي حال، آخر يوم جيّد أقضيه مع غاس حتى جاء اليوم الجيّد الأخير.

الفصل العشرون

تشكّل عادة «اليوم الجيّد الأخير»، ضمن عادات التعامل مع الولد المصاب بالسّرطان، واحدة من أقلّها سخفاً. إذ يجد المصاب بالسرطان نفسه مع بعض الساعات غير المتوقعة التي يبدو فيها الانحطاط الذي لا يرحم وقد استقر فجأة، ويصبح الألم مُحتَملاً. لكن المشكلة تتمثل، طبعاً، في عدم وجود طريقة لأن تعرف أن يومك الجيّد الأخير هو يومك الجيّد الأخير.

غبت يوماً عن زيارة أغسطس في إجازة لأنني شعرت بأنني أنا أيضاً متوعكة نوعاً ما: ما من شيء محدّد بل تعب وحسب. يوم تميّز بالكسل. ولما اتصل أغسطس بُعَيْد الخامسة بعد الظهر تماماً، كنت قد أصبحت مربوطة بالفعل بجهاز التنفس الذي جررناه إلى غرفة الجلوس لأتمكن من مشاهدة التلفاز مع أمي وأبي.

«هاي، أغسطس»، قلت.

وأجاب بالصوت الذي جعلني انسانةً مغرمة: «مساء الخير يا هازل

غريس. هل تعتقدين أن في وسعك الذهاب إلى قلب يسوع الفعلي حوالى الثامنة مساء؟».

«هممم، نعم».

«ممتاز. وأرجوك أيضاً، اكتبي نعياً إذا لم يكن في الأمر كثير من الإزعاج».

«هممم»، قلت.

قال: «أحبك».

أجبت: «وأنا أيضاً». ثم أقفل الخط.

«هممم»، قلت. «يجب أن أذهب إلى مجموعة الدعم في الثامنة من هذا المساء لجلسة طارئة».

كتمت أمي صوت التلفاز. «هل كل شيء بخير؟».

نظرت إليها هنيهة، وقد رفعت حاجبيّ. «أظن أن هذا استفهام بلاغي».

«لكن لماذا؟».

«لأن غاس يحتاجني لسبب ما. لا بأس. يمكنني القيادة». تلاعبت بجهاز تنفسي كي تساعدني أمي على انتزاعه، لكنها لم تفعل. «هازل. أنا وأبوك نشعر أننا بتنا بالكاد نراك».

«وبخاصة أولئك الذين يعملون طوال الأسبوع»، قال أبي.

«إنه يحتاجني»، قلت، وقد فككت في النهاية الجهاز بنفسي.

قال أبي: «ونحن أيضاً نحتاج إليك يا صغيرتي». والتقط معصمي

كما لو أنني ابنة عامين وعلى وشك الانطلاق مسرعة إلى الشارع، وتمسّك به.

«حسناً، فلتُصب يا أبي بمرض قاتل وسأبقى في المنزل فترةً أطول».

«هازل»، قالت أمي.

قلت لها: «أنت التي لم تريدي أن ألازم البيت». وفي حين بقي والدي ممسكاً بذراعي أضفت: «وتريدين الآن أن يمضي ويموت بحيث أعود وأصبح مقيّدة بسلاسل هذا المكان، وأدعك تعتنين بي كما تعوّدت دائماً أن أفعل. لكنني لا أحتاج إلى ذلك يا أمي. لا أحتاجك كما تعوّدت أن أفعل. أنت من تحتاجين إلى أن تعيشي حياتك».

«هازل!»، قال أبي وهو يشد بقوة أكبر. «اعتذري من أمك».

أخذت أشد بذراعي، لكنه لم يفلتها. ولم أتمكن من وضع الكانيولا بيد واحدة، وهذا مغيظ. فكل ما أردته هو انسحاب تقليدي لمراهق أخرج بموجبه من الغرفة وأصفق باب غرفة نومي وأشغّل أغاني «هكتيك غلو» وأعمد بعنف إلى كتابة النعي. لكنني لم أتمكن لأنني لم أستطع أن أتنفس. انتحبت وقلت: «الكانيولا، أحتاج إليها».

أفلتني والدي على الفور وهرع لربطي بالأكسجين. رأيت الشعور بالذنب في عينيه، لكنه لا يزال غاضباً «هازل، اعتذري من أمك».

«حسنا، أنا آسفة، أرجوكما فقط أن تدعاني أقوم بهذا».

لم يقولا شيئاً. جلست أمي في مكانها وذراعاها مكتوفتان، ولم تنظر إليّ. نهضتُ بعد فترة وذهبت إلى غرفتي لأكتب عن أغسطس.

حاولت أمي وأبي بضع مرات القرع على بابي إلا أنني اكتفيت بالقول لهما إنني أقوم بأمر مهم. استغرقني الأمر دهراً لأتصور ما أريد

قوله، وحتى عندما فعلت لم أسعد كثيراً بذلك. لاحظت، قبل أن أنتهي عملياً من الأمر، أنها السابعة وأربعون دقيقة، ما يعني أنني سأتأخر حتى لو لم أغيّر ثيابي. وهكذا ارتديت في النهاية سروال البيجاما القطني ذا اللون الأزرق الولادي، وقميص غاس باتلر، وانتعلت الشبشب.

خرجت من الغرفة وحاولت العبور من أمامهما، لكن والدي قال، «لا يمكنك مغادرة المنزل من دون إذن».

«أوه، يا إلهي، أبي. أراد أن أكتب نعيه، أتدرك ذلك؟ سألازم المنزل في كل ليلة لعينة بدءاً من أي يوم الآن، حسناً؟». وهو ما أسكتهما في النهاية.

استغرقني الأمر مسافة الطريق لأهدّىء نفسي مما فعله أهلي. درتُ حول الكنيسة وتوقفت في الممر شبه الدائري وراء سيارة غاس. وقد وُضع حجر بحجم قبضة اليد لإبقاء باب الكنيسة مفتوحاً. فكّرت وأنا في الداخل أن أستخدم الدرج، لكنني قررت أن أنتظر المصعد القديم الذي يصرّ.

عندما فتح باب المصعد أصبحت في غرفة مجموعة الدعم، وقد رُتّبت الكراسي في الدائرة نفسها. لكنني لم أشاهد الآن إلا غاس في الكرسي المتنقل، هزيلاً بشكل رهيب، وقد جلس في مواجهتي في وسط الحلقة ينتظر أن يفتح باب المصعد.

«هازل غريس. تبدين فاتنة».

«أعرف، أليس كذلك؟».

سمعت خلط أوراق في إحدى الزوايا المظلمة من الغرفة. وقد

وقف إسحق وراء منصة خشبية صغيرة للخطابة وهو يلتصق بها. فسألته: «أتريد الجلوس؟».

«لا، فأنا سأبدأ بالنعي. وأنت متأخرة».

«أنت أنا ماذا؟».

أومأ لي غاس بالجلوس. سحبت كرسياً إلى وسط الحلقة معه وأدرتها في مواجهة إسحق. «أريد حضور جنازتي»، قال غاس. «وبالمناسبة، هل ستتحدثين في مأتمي؟».

«هممم، بالطبع، نعم»، قلت تاركة رأسي على كتفه. ومددت يدي خلف ظهره وعانقته والكرسي معاً. قفز ألماً، فأفلتّه.

«رائع»، قال. «آمل أن أتمكَّن من الحضور وأنا شبح، لكن، وللتأكد فقط، وليس لوضعك في موقف حرج، فكرت بعد ظهر اليوم في أنه يمكنني تحضير مأتم مسبق. وبما أنني في حالة معنوية جيدة تصوّرت أن الوقت الحاضر هو أفضل وقت».

سألته: «كيف تمكَّنت حتى من الوصول إلى هنا؟».

وسألني بدوره: «هل تصدقين أنهم يتركون الباب مفتوحاً طوال الليل؟».

قلت: «هممم، لا».

«ولا يُفترض بك ذلك أيضاً». وابتسم غاس. «أعرف، على أي حال، إن في الأمر شيئاً من تعظيم الذات».

«هاي، أنت تسرق نعيي»، قال إسحق. «فجزئي الأول يتعلَق بكونك ابن حرام يعظِّم نفسه».

ضحكت.

«حسناً، حسناً»، قال غاس. «كما تشاء».

تنحنح إسحق وقال: «كان أغسطس واترز ابن حرام يعظّم نفسه. لكننا نسامحه. نسامحه ليس لأنه ذو قلب طيب بالمعنى الرمزيّ بقدر ما هو فظيع بالمعنى الحقيقي، أو لأنه يعرف كيف يمسك بسيجارته أكثر من أي غير مدخن في التاريخ، أو لأنه بلغ الثامنة عشرة في حين أنه كان يجب أن يبلغ ما هو أكثر».

«السابعة عشرة»، قال غاس مصحّحاً.

«أنا أفترض أنك حصلت على بعض الوقت يا ابن الحرام المقاطع».

«أقول لكم»، تابع إسحق، «إن أغسطس واترز يثرثر كثيراً إلى حد أنه سيقاطعك في مأتمه الخاص. وهو مدّعٍ أيضاً: يا يسوع الحبيب، فإن هذا الفتى ما كان أبداً ليبول من دونٍ أن يتأمل الأصداء الرمزية الوافرة لإنتاج النفايات البشرية. كما أنه مغرور: لا أعتقد أنني التقيت شخصاً أكثر جاذبية يعي تماماً جاذبه الخارجي.

«إلا أنني سأقول التالي: عندما يأتي علماء المستقبل إلى بيتي ومعهم عينان اصطناعيتان ويطلبون مني تجربتهما، فسأسألهم أن يرحلوا لأنني لا أريد رؤية عالم من دونه».

شرعت عند هذا الحد في نوع من البكاء.

أضاف: «وبعد أن أثبت وجهة نظري البلاغية، سأضع عينيّ الاصطناعيتين، أعني أنه ربما في وسع المرء أن يرى بعينيه الاصطناعيتين عبر قمصان الفتيات وغيره. بالتوفيق يا أغسطس، يا صديقي».

هزَ أغسطس برأسه فترةً وقد زمّ شفتيه، ثم رفع إبهاميه لإسحق. وأضاف بعدما استعاد رباطة جأشه، «كان من الأفضل حذف الجزء الذي يتحدث عن الرؤية عبر قمصان الفتيات».

شرع إسحق، الذي بقي متمسّكا بالمنصة، في البكاء. أسند جبهته إلى المنبر وراقبت كتفيه يهتزان، إلى أن قال أخيراً: «اللعنة يا أغسطس، لقد كتبت نعيك».

وقال غاس: «لا تلعن في قلب يسوع الفعلي».

«اللعنة»، قال إسحق من جديد. ورفع رأسه وابتلع ريقه. «هل يمكنني الحصول على المساعدة هنا، يا هازل؟».

نسيت أنه لا يستطيع العودة وحده إلى الحلقة. فنهضت ووضعت يده على ذراعي وسرت به ببطء إلى الكرسي الذي سبق أن جلست عليه بالقرب من غاس. ثم توجهت إلى المنبر وفتحت الورقة التي طبعت عليها نعيي.

«اسمي هازل. كان أغسطس واترز الحب العظيم الذي شاءه قدري. قصتنا، هي قصة حب ملحمية، ولا يمكنني أن أتفوّه بأكثر من جملة في الموضوع من دون أن أغرق في دموعي. غاس عرف. غاس يعرف. لن أخبركم بقصة حبنا لأنها ـ على غرار كل قصص الحب الحقيقية ـ ستموت معنا، كما هو مفروض. أملت أن يقوم هو بنعيي، فلا أحد أفضل بالأحرى .. وشرعت في البكاء. «حسناً، كيف يمكن للمرء ألا يبكي؟ كيف؟ حسناً. حسناً».

تنفست عميقاً عدّة مرات وعدت إلى الصفحة. «لا أستطيع الحديث عن قصة حبنا، وسأتحدث بالتالي عن الرياضيات. لستُ عالمة رياضيات،

لكنني أعرف هذا: هناك أعداد لا نهاية لها بين الصفر والواحد. هناك ۰,۱ و۰,۱۲ و۰,۱۱۲ ومجموعة لا تنتهي من الاعداد الأخرى. وهناك بالطبع مجموعة لا متناهية من الأعداد الأكبر بين الصفر والاثنين، أو بين الصفر والمليون. فبعض اللانهائيات أكبر من بعض اللانهائيات الأخرى. هذا ما علّمنا إياه مؤلف اعتدنا أن نحبه. وهناك أيام، أيام كثيرة، أمتعض فيها من مجموعات أرقامي التي لا حد لها. وأريد المزيد من الأعداد التي يُحتمل أن أحصل عليها. يا إلهي، أريد أعداداً لأغسطس واترز أكثر من تلك التي حصل عليها. لكن يا غاس، يا حبي، لا يمكنني أن أخبرك بمدى امتناني بلانهايتنا الصغيرة. ولن استبدل بها العالم كله. لقد منحتني الأبد في خلال أيام معدودة، ولهذا أنا شاكرة لك».

الفصل الحادي والعشرون

توفى أغسطس واترز بعد ثمانية أيام على مأتمه المسبق، في غرفة العناية الفائقة في ميموريال عندما أوقف السرطان، المصنوع منه، قلبه المصنوع منه هو الآخر.

كان مع أمه وأبيه وشقيقته. اتصلت بي أمه في الثالثة والنصف فجراً. عرفتُ من قبل بأنه راحل لأني تحدثت مع والده قبل أن آوي إلى السرير وأخبرني «أن ذلك قد يحدث الليلة». ومع ذلك انهار كل شيء في داخلي عندما أمسكت بالهاتف على طاولة السرير ورأيت هوية المتصل: والدة غاس. أخذت تبكي على الطرف الآخر من الخط، وأخبرتني أنها آسفة، وقلت لها إنني آسفة أيضاً. وقالت إنه فقد الوعي قبل نحو ساعتين من وفاته.

دخل عليّ والداي كمن يتوقّع الخبر واكتفيت بهز رأسي فأمسك أحدهما بذراع الآخر مهدّئا من روعه، وأنا متأكدة من أنهما يشعران بالرعب المتوافق مع ما سيحل بهما مباشرة متى حان الوقت.

اتصلتُ بإسحق الذي لعن الحياة والكون والخالق نفسه، وسأل عن الجوائز ليحطَمها. ثم أدركت أنْ لا أحد آخر اتصل به، وهذا أكثر ما أحزنني. فالشخص الوحيد الذي أردت أن أحدّثه عن وفاة أغسطس واترز هو أغسطس واترز نفسه.

بقي أهلي في الغرفة إلى أن حل الصباح وقال أبي في النهاية: «أتريدين الاختلاء بنفسك؟»، فهززت برأسي. قالت أمي: «سنكون في الخارج»، وفكّرت أني لا أشك في ذلك إطلاقاً.

إنه أمر لا يُحتمل. الأمر برمّته. وكل ثانية أسوأ من التي سبقتها. بقيت أفكّر في أن أتصل به متسائلة عما سيحدث وهل هناك من سيرد. لم نقم بأي عمل آخر إلا التذكر ونحن معاً في الأسابيع الأخيرة، وهذا لا شيء بالمقارنة مع ما حل بي: لقد انتُزعت مني لذة التذكّر لأنه لم يعد هناك من أتذكّر معه. بدت خسارة الشريك في التذكّر وكأنها تعني خسارة الذاكرة نفسها، كما لو أن الأمور التي قمنا بها أقل واقعية وأهمية مما كانت عليه قبل ذلك بساعات.

أول الأمور التي يُطلب إلى المرء القيام بها لدى دخوله غرفة الطوارئ هو تصنيف ألمه على سلّم من واحد إلى عشرة، ليقرروا بعدها العقاقير التي سيستخدمونها، والسرعة التي سيستخدمونها بها. وقد طُرح عليّ هذا السؤال مئات المرات على مرّ السنين. وأذكر مرّة منذ البداية عندما عجزت عن التقاط أنفاسي وأحسست بالنار تندلع في صدري وألسنة اللهب تلطع داخل ضلوعي وتضغط للاشتعال خارج بدني، فأخذني أهلي إلى غرفة الطوارئ. سألتني إحدى الممرضات عن الألم، ولم أتمكّن حتى من الكلام، فرفعت تسعاً من أصابعي.

لاحقاً، بعدما أعطوني شيئاً، جاءت الممرضة وأخذت تمسّد يدي وهي تقيس ضغط دمي وقالت: «أتعرفين كيف أعلم أنك مقاتلة؟ لقد أشرت إلى تسعة لا إلى عشرة».

لكن ذلك ليس صحيحاً تماماً. قلت تسعة لأنني كنت أدخر عشرتي. ثم ها هي، العشرة الكبرى والرهيبة، تضربني المرة تلو المرّة، وأنا مستلقية ساكنة، وحدي في سريري محدقة إلى السقف، والأمواج تلقيني على الصخور ثم تعود وتسحبني إلى البحر لتتمكّن من رميي من جديد على الواجهة المسنّنة للجرف الصخري وتتركني عائمة ووجهي إلى الأعلى، من دون أن أغرق.

واتصلت به في النهاية. رنّ هاتفه خمس مرات قبل أن أسمع البريد الصوتي. «أنتم تتصلون بالبريد الصوتي لأغسطس واترز»، قال، بالصوت الواضح الذي جعلني إنسانة مغرمة. «اتركوا رسالة». ثم إشارة «بيب». جاء صمت الخط مريعاً جداً. أردت العودة إلى ذلك المجال الثالث البَعْد ــ أرضي السري الذي زرناه ونحن نتحدث على الهاتف. انتظرت ذلك الشعور، لكنه لم يأتِ قط: لم يوفر صمت الهاتف التعزية، وأقفلت في النهاية الخط.

تناولت حاسوبي المحمول من تحت السرير وشغّلته وفتحت جداريته التي أخذت تغرق في التعازي. وجاء في آخرها:

أحبّك، يا أخي. أراك في الجانب الآخر.

كتبها شخص لم أسمع به قط. والواقع أن معظم المدوّنات التي كانت ترد بالسرعة التي بالكاد تمكنني من قراءتها، كتبها أناس لم

يسبق لي أن قابلتهم، ولم يتكلّم عنهم، أناس يثنون عليه الآن. بعد أن مات ويثنون على فضائله المختلفة على الرغم من أنني أعرف في الواقع أنهم لم يروه منذ أشهر، ولم يبذلوا أي جهد لزيارته. وتساءلت هل ستبدو جداريتي كهذه إذا مت، أو إذا خرجت من المدرسة والحياة بما يكفي لتفادي الإحياء الواسع للذكرى.

واصلت القراءة.

أفتقدك بالفعل، يا أخي.

أحبّك، يا أغسطس. باركك اللّه وحفظك.

ستعيش إلى الأبد في قلوبنا، أيها الكبير.

(ضايقني ذلك بالتحديد، لأنه يوحي ضمناً بخلود أولئك الذين تركهم: ستعيش في ذاكرتي إلى الأبد، لأنني سأعيش إلى الأبد! أنا ربّك الآن أيها الفتى الميت! أنا أمتلكك! فتفكير المرء بأنه لن يموت ليس إلا تأثيراً جانبياً للاحتضار).

لطالما كنت ذلك الصديق الكبير، وآسف لأنني لم أرك كثيراً بعد تركك المدرسة، يا أخي. أراهن أنك قد بدأت في لعب الكرة في السماء.

تخيّلتُ تحليل أغسطس واترز لذلك التعليق: هل يفترض لعبي كرة السلة في الجنة مكاناً مادياً فيها يحتوي على كرات سلّة مادية؟ من الذي يصنع كرات السلة المعنية؟ هل هناك أرواح أقل حظّاً في الجنة تعمل في مصنع سماوي لكرات السلة لأتمكن من اللعب، أم أن اللّه الكلّي القدرة يخلق كرات سلّة من العدم؟ هل هذه الجنة نوع من أنواع الكون الذي لا تمكن

مراقبته ولا تنطبق عليه قوانين الفيزياء، وإذا صحّ ذلك فلماذا ـ بحق الجحيم ـ سألعب كرة السلة فيما يمكنني الطيران أو القراءة أو النظر إلى الأناس الجملاء أو أي شيء آخر أستمتع به بالفعل؟ يكاد يكون الأمر كما لو أن الطريقة التي تتخيّل فيها موتي تعكس شيئاً مما في داخلك أكثر مما تعكس شيئاً من شخصيتي في الماضي والحاضر.

اتصل والداه قرابة الظهر ليبلغاني بأن الدفن سيجري بعد خمسة أيام، يوم سبت. وتخيّلت كنيسة تكتظ بأناس يعتقدون أنه أحب كرة السلة، وأردت أن أتقيأ، لكنني عرفت أن عليّ الذهاب بما أنني سألقي كلمة وما شابه. عدت، بعدما أقفلت الخط، إلى قراءة جداريته:

> سمعت للتو أن غاس واترز مات بعد معركة طويلة مع السرطان.
> أرقدْ بسلام، يا رفيق.

عرفت أن هؤلاء الناس حزانى بصدق، وأنني لست غاضبة حقّاً منهم. فأنا غاضبة من الكون. ومع ذلك أثار ذلك غيظي: يصبح كل هؤلاء أصدقاءَك تماماً عندما لا تعود بحاجة إلى أصدقاء بعد الآن. وكتبت ردّاً على هذا التعليق:

> نعيش في كون مُكرّس لخلق الوعي واجتثاثه. لم يمت أغسطس واترز بعد معركة طويلة مع السرطان. بل مات بعد معركة طويلة مع الإدراك البشري، ضحية ـ مثلما ستكونون ـ لحاجة الكون إلى صنع كل ما هو ممكن وتدميره.

نشرتها وانتظرت أن يردّ أحد عليها، معيدة تجديد الصفحة المرّة تلو

المرة. ولا شيء. ضاع تعليقي في عاصفة التدوينات الجديدة. فالجميع سيفتقدونه كثيراً. وكل واحد يصلّي لعائلته. وتذكّرت ما جاء في رسالة فان هوتن: الكتابة لا تحيي. إنها تدفن.

خرجت بعد فترة إلى غرفة الجلوس لأقبع مع والديّ وأشاهد التلفاز. ولا يمكنني أن أخبركم ما هو البرنامج، سوى أن والدتي قالت في لحظة ما: «ما الذي نستطيعه من أجلك، يا هازل؟».

واكتفيت بهّز رأسي. وشرعت من جديد في البكاء.

وسألتني أمي من جديد: «ما الذي نستطيع فعله؟».

هززت كتفيّ.

لكنها استمرت في السؤال كما لو أن هناك ما يمكنها فعله، إلى أن زحفتُ في النهاية عبر الأريكة إلى حضنها، وجاء والدي وأمسك بساقيّ بقوة فعلية، وأحطت أمي بذراعيّ، وبقيا يمسكان بي ساعات، ومدّ المشاعر يتوالى.

الفصل الثاني والعشرون

جلست في البداية، عندما وصلنا إلى المكان، في آخر غرفة الزيارة، وهي غرفة صغيرة عارية الجدران قبالة جانب المذبح في كنيسة قلب يسوع الفعلي. رُتّب حوالى ثمانين كرسيّاً في الغرفة وقد امتلأ ثلثاها، لكنني لم أشعر سوى بثلثها الفارغ.

اكتفيت فترة بمراقبة الناس يسيرون إلى النعش الموضوع على عربة مغطاة بشرشف أرجواني. وسيركع كل هؤلاء الناس الذين لم تسبق لي رؤيتهم بجانبه، أو يقفون فوقه ينظرون إليه برهة، ربما يبكون وربما يقولون شيئاً، ثم يلمسون جميعهم النعش بدلاً من لمسه لأن ما من أحد يريد لمس الميت.

وقفت أم غاس ووالده قرب النعش وهما يعانقان الجميع لدى مرورهم، لكنهما ابتسما لما لاحظاني وجرّا خطاهما صوبي. نهضت وعانقت والده أولاً ثم أمه التي ضمتني إليها بقوة شديدة، كما تعوّد غاس أن يفعل، وهي تعتصر عظمتي كتفي. بدا كل منهما طاعناً في السن.

محاجر أعينهما غائرة، وبشرتهما مرتخية على وجهيهما المنهكين. فهما أيضاً بلغا نهاية سباق الحواجز.

«أحَبَّكِ للغاية»، قالت أم غاس. «أحبك فعلاً. ولم يكن ذلك... لم يكن غرام مراهقة»، أضافت، كما لو أنني لم أعرف ذلك.

«أحَبَّكما كثيراً أيضاً»، قلت بهدوء. ويصعب شرح الأمر، لكن الحديث معهما بدا كأنك تَطعن وتُطعن. قلت، «أنا آسفة». ثم شرع أهله في الحديث مع أهلي، جرت المحادثة كلها برؤوس مهتزّة وشفاه مطبقة. نظرتُ إلى النعش ولم أجد أحداً من حوله فقررت السير إليه. انتزعت أنبوب الأكسجين من فتحتي أنفي ورفعته عن رأسي وسلّمته لوالدي. أردت أن نكون أنا وهو فقط. أمسكت بحقيبة يدي الصغيرة واجتزت الممر المؤقت بين صفوف الكراسي.

بدت المسافة طويلة، لكنني واصلت الطلب من رئتيّ أن تصمتا وأن تبقيا قويتين. تمكّنت من رؤيته وأنا أقترب: فُرِق شعره بعناية عند الجهة اليسرى بطريقة كان سيجدها مريعة تماماً، وبدا وجهه بلاستيكياً. لكنه لا يزال غاس. غاسي الطويل الضامر الجميل.

أردت ارتداء فستاني الصغير الأسود الذي اشتريته لحفلة عيد ميلادي الخامس عشر، ثوب موتي، لكنه لم يعد يناسبني، فارتديت ثوباً أسود عادياً يمتد حتى الركبتين. وارتدى أغسطس البزّة نفسها ذات طيّة الصدر الرقيقة التي ارتداها للذهاب إلى «أورانجي».

أدركت وأنا أركع أنهم أغمضوا عينيه ـ طبعاً أغمضوهما ـ وأنني لن أرى من جديد أبداً عينيه الزرقاوين. همست: «أحبك بصيغة الحاضر»، ثم وضعت يدي على صدره وقلت: «لا بأس يا غاس. لا

اس. لا بأس عليك، أتسمعني؟». لم أمتلك ـ ولا أزال لا أمتلك ـ ثقة مطلقة بأنه يمكن أن يسمعني. انحنيت عليه وقبلت خده. «لا بأس عليك»، قلت. «لا بأس».

خالجني فجأة شعور بأن كل هؤلاء الناس يراقبوننا، وبأن المرة الأخيرة التي شاهدَنا فيها هذا العدد الكبير من الناس ونحن نتبادل القبل كانت في منزل آن فرانك. لكن، في الحقيقة خلا هذا المشهد من غاس وبقيت أنا وحدي.

فتحت حقيبتي ومددت يدي وأخرجت علبة سجائر «كامل لايتس». وبحركة سريعة، أملت ألا ينتبه إليها أحد من ورائي، دسستها في الفسحة بين جانبه والبطانة الفضية الفخمة للنعش. وهمست له: «يمكنك إشعالها، فلن أمانع».

وفيما أنا أتحدّث إليه، اقتربت أمي وأبي إلى الصف الثاني ومعهما مستوعبي بحيث لا أضطر إلى القيام والسير طويلاً إلى الوراء. ناولني أبي منديلاً ورقياً وأنا أجلس. تمخطت، ولففت الأنبوبين من وراء أذنيّ وأعدت وضع الكانيولا

اعتقدت أننا سنذهب إلى المعبد المناسب لمراسم الدفن الفعلية، لكن جرى كل شيء في تلك الغرفة الصغيرة الجانبية ـ اليد الفعلية ليسوع، على ما أعتقد، ذلك الجزء من الصليب الذي سُمّر عليه. دخل الكاهن ووقف وراء النعش، كما لو أن النعش منبر للوعظ، وتحدث عن خوض أغسطس معركة شجاعة وعن بطولته في مواجهة المرض التي تشكل مصدر وحي لنا جميعاً، وغضبت من الكاهن عندما قال: «سيبرأ أغسطس أخيراً في النجنة ويعود كاملاً»، وهو يعني ضمنا أنه

كان أقل كمالاً من الناس الآخرين بسبب فقدانه ساقه، ولم أتمكن من كبح تنهيدة الاشمئزاز. أمسكني والدي من فوق ركبتي تماماً ورمقني بنظرة استنكار، لكن أحدهم، في الصف الذي ورائي، تمتم في أذني بصوت لا يكاد يُسمع، «يا له من كلام يشبه حمل عربة كاملة من الهراء، أليس كذلك يا صغيرة؟».

استدرت.

ارتدى بيتر فان هوتن بزّة من الكتان الأبيض، فُصّلت لتتناسب مع بدنه المتكوّر، وقميصاً بلون أزرق، وربطة عنق خضراء. بدا كأنه ارتدى هذه الثياب في حملة لاستعمار باناما وليس لحضور جنازة. وقال الكاهن: «لنصلّ»، ولم يسعني فيما حنى الجميع رؤوسهم إلا أن أحدّق فاغرة الفم بمنظر بيتر فان هوتن. وهمس لي بعد برهة: «يجب أن ندّعي الصلاة»، وأحنى رأسه.

حاولت نسيان أمره والاكتفاء بالصلاة لأغسطس. وتأكّدت من استماعي إلى الكاهن وعدم الالتفات إلى الوراء.

نادى الكاهن إسحق، الذي بدا أكثر جدّية بكثير مما كان عليه في المأتم السابق. وبدأ بالقول: «تولّى أغسطس واترز منصب رئيس بلدية مدينة «سرطانيا»، ومن غير الممكن استبداله بأحد سيخبركم آخرون قصصاً مسلية عن غاس، لأنه كان شخصاً مضحكاً، لكن دعوني أخبركم واحدة جدية: جاء أغسطس إلى المستشفى في اليوم الذي تلى اقتلاع عيني. وأنا أعمى ومحطم الفؤاد ولم أرد القيام بأي شيء، واندفع غاس إلى غرفتي وصاح: «أحمل خبراً جيداً!» وأنا كنت أشبه شخصاً يقول لنفسه: «لا أريد فعلاً سماع خبر جيّد في هذه اللحظة بالذات. وقال

غاس: «هذا خبر رائع تريد سماعه»، وسألته: «حسناً، ما هو؟» وقال: «ستعيش حياة جيدة وطويلة ملأى بالأوقات الرائعة والمدهشة بما لا يمكنك أن تتخيله!».

لم يتمكّن إسحق من المتابعة، أو ربما كان ذلك كل ما كتبه.

قال الكاهن، بعدما سرد أحد الأصدقاء من الثانوية أخباراً عن مواهب غاس الكثيرة في لعب كرة السلة وميزاته المتعددة بوصفه زميلا في الفريق: «سنستمع الآن إلى بضع كلمات من صديقة أغسطس الخاصة، هازل». صديقة خاصة؟ وصدر بعض الضحك المكبوت بين الحضور، فتصوّرت أنّ ما يبعث فيّ الأمان هو أن أبدأ كلامي بالقول للكاهن: «كنت صديقته الحميمة». وضحك الناس. ثم بدأت أقرأ من النعي الذي كتبته.

«هناك قول عظيم في منزل غاس وجده كلانا معزّياً جداً: لا يمكننا من دون الألم معرفة الفرح».

ومضيت أنهال في الكلام التشجيعي فيما تعانق والدا غاس، وقد شبكا ذراعيهما، وهما يهزان برأسيهما لكل كلمة. وقرّرتُ أن المآتم هي للأحياء.

تكلّمت شقيقته جولي وانتهت بعد ذلك المراسم بصلاة عن اتحاد غاس باللّه، وعاودتُ التفكير في ما قاله لي في «أورانجي» عن أنه لا يؤمن بالقصور وبالقيثارات، لكنه يؤمن بشيء، وحاولت بالتالي أن أتخيله، ونحن نصلي، موجوداً في مكان ما. إلا أنني، وحتى ذلك الحين، لم أستطع أن أقنع نفسي تماماً بأننا سنلتقي من جديد. وأنا قد عرفت كثيراً

من الأناس الموتى. حساسي بالوقت يختلف عن إحساسه به. وأنني، على غرار كل الغرفة، سأمضي في مراكمة الحب والخسارة فيما مر لي رته بالنسبة إليّ، المأساة الأخيرة والتي لا تُطاق فعلاً: فعلى الأعداد التي لا تُحصى من الموتى، ستنخفض مرتبته مرة أولى وأخيرة من حيّ إلى

ثم جلب واحد من صهريّ، غاس جهاز موسيقا وعزفوا هذه الأغنية التي اختارها غاس أغنية حزينة وهادئة لفريق «هكتيك غلو» عنوانها «الشريك الجديد». وأنا، بصراحة، أردت أن أعود إلى المنزل وحسب. فبالكاد كنت أعرف هؤلاء الناس، وشعرت بعيني بيتر فان هوتن الصغيرتين تحفران في عظمتي كتفي المكشوفتين، إلا أن الجميع جاؤوا إليّ، بعد انتهاء الأغنية، ليقولوا لي إنني تكلّمت بصورة جميلة وإن المراسم كانت رائعة، وهذا كذب: فتلك كانت جنازة. وهي تشبه أي جنازة أخرى.

جاء حاملو نعشه ـ أنسباؤه، والده، أحد أعمامه، وأصدقاء لم تسبق لي رؤيتهم ـ وأخذوه وساروا جميعهم في اتجاه عربة الموتى.

قلتُ، لما صعدنا أنا وأمي وأبي في السيارة: «لا أريد الذهاب، فأنا متعبة».

«هازل»، قالت أمي.

«أمي، لن يكون هناك مكان للجلوس وسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً جداً وأنا منهكة».

قالت أمي: «علينا، يا هازل، أن نذهب من أجل السيد والسيدة واترز».

«فقط..   قلت. وشعرت، لسبب ما، بأنني صغيرة في المقعد الخلفي. أردت نوعاً ما أن أكون صغيرة. صغيرة كما لو أنني في السادسة أو ما شابه. وقلت: «حسناً».

اكتفيت بالتحديق فترة من النافذة. لم أرد حقاً الذهاب. لم أشأ أن أراهم ينزلونه في التربة في المكان الذي اختاره مع أبيه، ولم أرغب في أن أرى والديه يجثوان على العشب المبلّل بالندى ويئنّان ألماً، ولم أرد أن أرى بطن بيتر فان هوتن المدمن على الكحول المتمدّد في سترته الكتانية، ولم أرد أن أبكي أمام مجموعة من الناس، ولم أرد أن أرمي حفنة من التراب في قبره، ولم أشأ أن يضطر والداي إلى الوقوف في المكان تحت السماء الزرقاء الصافية الساطعة بضوء بعد الظهر، وهما يفكران بيومهما وطفلتهما وقطعة أرضي ونعشي وترابي.

لكنني فعلت هذه الأمور. فعلتها كلها وفعلت أسوأ منها، لأن أمي وأبي شعرا بأنه يُفترض بنا ذلك.

***

توجّه بيتر فان هوتن بعد انتهاء الأمر صوبي ووضع يداً بدينة على كتفي وقال: «أيمكنني الركوب معك؟ فقد تركت سيارتي المستأجرة عند أسفل التلة». هززت كتفيّ، وفتح باب المقعد الخلفي في الوقت تماماً الذي فتح فيه والدي قفل السيارة.

ما إن أصبح في الداخل حتى انحنى بين المقعدين الأماميين وقال: «بيتر فان هوتن: مؤلف متقاعد ومخيّب شبه محترف للآمال».

عرّف والداي بنفسيهما، وصافحهما. وقد فوجئت للغاية بأن يقطع

بيتر فان هوتن مسافة نصف العالم لحضور مأتم. «كيف أنه حتى... شرعت في القول لكنه قاطعني.

«استخدمت الإنترنت الجهنمية الخاصة بكم لمتابعة إعلانات النعي في إنديانا بوليس». مدّ يده إلى بزّته الكتانية وأخرج منها زجاجة من الويسكي.

«واشتريتَ ببساطة تذكرة و...

وقاطعني من جديد وهو يفتح القنينة. «إنها خمسة عشر ألفاً لتذكرة الدرجة الأولى؛ لكنني متموّل بما يكفي لإشباع مثل هذه النزوات. كما أن المشروب مجاني على متن الرحلات. ويمكن للمرء الطموح أن يساوي بين الربح والخسارة».

أخذ فان هوتن رشفة من الويسكي وانحنى ليعرض بعضاً منه على والدي الذي قال، «هممم، شكراً. لا». ثم أحنى فان هوتن الزجاجة صوبي فأمسكت بها.

«هازل»، قالت أمي، لكنني فتحت الغطاء وارتشفت. وشعرت في معدتي بما أشعر به في رئتي. أعدت الزجاجة إلى فان هوتن الذي أخذ جرعة كبيرة منها ثم قال: «Omnis cellula e cellula» (كل الخلايا تأتي من خلايا).

«هاه؟»

«أنا وفتاك واترز تبادلنا رسائل، وفي آخر...

«انتظر، هل صرت تقرأ الآن رسائل المعجبين بك؟».

«لا لقد أرسلها إلى منزلي وليس من خلال ناشري. وأنا بالكاد أدعوه بالمعجب. فهو يحتقرني. لكنه تميّز في أي حال بالإصرار على أنه سيغفر لي سوء تصرّفي إذا حضرت جنازته وأخبرتك بما يحدث لوالدة آنّا. ولهذا أنا هنا، وهاكِ جوابك: Omnis cellula e cellula».

«ماذا؟»، سألت من جديد.

وقال من جديد «Omnis cellula e cellula» (كل الخلايا تأتي من خلايا. كل خلية تولد من خلية سابقة وُلدت من خلية سابقة. فالحياة تأتي من الحياة. الحياة تنجب الحياة، تنجب الحياة، تنجب الحياة، تنجب الحياة).

بلغنا أسفل التلة. «آه، نعم»، قلت. ومزاجي غير متهيئ لهذا. لن يختطف بيتر فان هوتن مأتم غاس. لن أسمح بذلك. «شكراً»، قلت. «حسناً، أعتقد أننا عند أسفل التلة».

وسأل: «ألا تريدين تفسيراً؟».

«كلا»، قلت. «أنا بخير. أعتقد أنك مدمن كحول مثير للشفقة يتفوّه بأمور مزخرفة للفت الانتباه تشبه تماماً فتى في الحادية عشرة، نضج قبل أوانه، وأشعر بالأسى الشديد عليك. لكن، نعم، لا، لم تعد الشخص الذي كتب «محنة عظيمة»، ولن يمكنك إضافة تتمة لها حتى لو أردتَ ذلك. شكراً مع هذا. أتمنى لك حياة ممتازة».

«لكن...

«شكراً على الكحول»، قلت. «والآن اخرج من السيارة». بدا

كمن تعرّض للتوبيخ. وقد أوقف والدي السيارة في المكان، تحت قبر غاس، دقيقة والمحرك لا يزال دائراً إلى أن فتح فان هوتن الباب، وقد صمت أخيراً، وغادر.

راقبته من النافذة الخلفية، ونحن نسير مبتعدين، وهو يتناول جرعة ويرفع الزجاجة في اتجاهي كما لو أنه يشرب نخبي. بدت عيناه حزينتين للغاية. وشعرت، صراحة، بنوع من الأسى تجاهه.

بلغنا المنزل أخيراً قرابة السادسة وأنا منهكة. أردت النوم فحسب، لكن أمي حملتني على تناول بعض الباستا بالجبن مع أنها سمحت لي على الأقل بالأكل في السرير. غفوت نحو ساعتين وأنا مربوطة بآلة التنفس. وجاء الاستيقاظ مريعاً لأنني شعرت في لحظة تشويش أن كل شيء بخير ثم سحقني الأمر من جديد. حلَّت أمي جهاز التنفس وربطتُ نفسي بالمستوعب المحمول وسرت متعثّرة إلى الحمام لأنظف أسناني.

تفحّصت نفسي في المرآة وأنا أنظف أسناني، وواصلت التفكير بوجود نوعين من الأشخاص البالغين: هناك أشباه بيتر فان هوتن - كائنات بائسة تطوف الأرض بحثاً عن شخص ما تؤذيه. وهناك ناس مثل أهلي يطوفون في المكان كالكائنات الميتة الحية، يقومون بواجباتهم للاستمرار في الطواف في المكان.

لم يؤثّر بي أي من هذين المستقبلين بوصفه مُحبّباً بنوع خاص. بدا لي أنني رأيت بالفعل كل ما هو طاهر وجيّد في العالم، وبدأت أشك في أن الموت نفسه لا يقف حائلاً في الطريق، فلم يكن بالإمكان قط لنوع

الحب الذي تبادلناه أنا وأغسطس أن يستمر. وقد كتب الشاعر: وهكذا يتحوّل الفجر إلى نهار / ولا يمكن لذهب أن يستمر.

قرع أحدهم باب الحمام.

«مشغول»، قلت.

«هازل»، قال أبي. «هل أستطيع الدخول؟» لم أجب، لكنني فتحت بعد هنيهة قفل الباب. وجلست على كرسي الحمام المقفل. لماذا يتطلّب التنفس كل هذا الجهد؟ ركع أبي بالقرب مني. أمسك برأسي وسحبه إلى ترقوته، وقال، «آسف لأن غاس مات». شعرت بقميصه كأنه يخنقني. لكن الإمساك بي بهذه القوة منحني شعوراً جيداً وأنا مشدودة إلى رائحة والدي المريحة. بدا كما لو أنه غاضب، وأحببت ذلك لأنني غاضبة أنا الأخرى. «هراء تام»، قال. «الأمر برمته. تراجعت حظوظ بقائه حيّاً إلى عشرين بالمئة؟ هراء. كان فتى لامعاً. هذا هراء. أكره ذلك. لكنه امتياز ولا شك أن تحبيه، هاه؟».

هززت برأسي المسند إلى قميصه.

قال: «هذا يعطيك فكرة عن شعوري تجاهك».

إنه رجلي العجوز الذي يعرف دوماً ما يجب قوله.

الفصل الثالث والعشرون

استيقظت قرابة الظهر بعد ذلك بيومين وتوجهت بالسيارة إلى منزل إسحق الذي فتح الباب بنفسه، وقال: «أخذت أمي غراهام إلى السينما».

قلت: «يجب أن نمضي ونقوم بعمل ما».

«هل يمكن أن نلعب لعبة الفيديو المخصّصة للعميان ونحن نجلس على الأريكة؟».

«نعم، ذلك هو الشيء الذي في بالي».

جلسنا نحو ساعتين نتحدّث معاً إلى الشاشة ونبحر في متاهة هذا الكهف الخالي من أي دفق ضوئي واحد. والجزء الأكثر تسلية في اللعبة هو محاولة حمل الحاسوب على الدخول معنا في محادثة فكاهية:

أنا: «المس جدار الكهف».

الحاسوب: «أنت تلمسين جدار الكهف، وهو رطب».

إسحق: «الحس جدار الكهف».

الحاسوب: «لم أفهم. هل تكرَر».

أنا: «جامعْ جدار الكهف الرطب».

الحاسوب: «تحاولين القفز. ستضربين رأسك».

إسحق: «لا تقفزْ، بل جامعْ».

الحاسوب: «لا أفهم».

إسحق: «يا رفيق، مضت أسابيع وأنا وحدي في ظلمة هذا الكهف، وأحتاج إلى بعض التنفيس. جامع جدار الكهف».

الحاسوب: «أنت تحاول أن...

أنا: «اضغط بحوضك على جدار الكهف».

الحاسوب: «أنا لا...

إسحق: «مارس الحب اللذيذ مع الكهف».

الحاسوب: «أنا لا

أنا: «حسناً. اتبع الفرع الأيسر».

الحاسوب: «أنت تتبعين الفرع الأيسر. الممر يضيق».

أنا: «ازحف».

الحاسوب: «أنت تزحفين مئة ياردة. المعبر يضيق».

أنا: «اِزحف كالحية».

الحاسوب: «أنت تزحفين كالحية ثلاثين ياردة. المياه تدلف وتنساب على جسمك. تبلغين كومة من الصخور الصغيرة التي تسد المعبر».

أنا: «أيمكنني مجامعة الكهف الآن؟»

الحاسوب: «لا يمكنك القفز من دون الوقوف».

إسحق: «أكره الحياة في عالم من دون أغسطس واترز».

الحاسوب: «لا أفهم...

إسحق: «وأنا أيضاً. إيقاف مؤقت».

أسقط جهاز التحكّم على الأريكة بيننا وسأل: «أتعرفين إن كان ذلك يؤلم؟».

«أعتقد أنه قاتل فعلاً ليستطيع التنفس»، قلت. «غاب في النهاية عن الوعي، لكن يبدو أن... نعم، لم يكن الأمر رائعاً. الاحتضار كريه».

«نعم»، قال إسحق. ثم تابع بعد وقت طويل، «يبدو الأمر مستحيلاً».

قلت: «هذا يحدث دوماً».

قال: «تبدين غاضبة».

«نعم»، قلت. واكتفينا بالجلوس في مكاننا صامتين مدة طويلة، ولا بأس بذلك. أخذت أعود بذاكرتي إلى البعيد، إلى البداية تماماً في قلب يسوع الفعلي عندما أخبرنا غاس أنه يخشى النسيان وقلت له إنه يخاف من أمر عام وحتمي، وإنّ المشكلة لا تكمن فعلاً في الألم نفسه أو النسيان نفسه بل في اللامعنى الفاسد لهذه الأمور، العدمية اللاإنسانية المطلقة للألم. وفكرت في أبي يقول لي إن الكون يريد أن نلاحظه. لكن ما نريده هو أن يلاحظنا الكون وأن يبالي بما يحدث لنا بوصفنا أفراداً، لا جماعات.

قال: «هل تعرفين أن غاس أحبّك فعلاً؟».

«أعرف».

«لم يكف عن الكلام عن ذلك».

«أعرف». قلت.

«كان ذلك مضجراً».

قلت: «لم أجده مضجراً إلى هذا الحد».

«هل سلَمك ذلك الشيء الذي كان يكتبه؟».

«أي شيء؟».

«تلك التتمة لذلك الكتاب الذي أحببته».

استدرت صوب إسحق، «ماذا؟».

«قال إنه يعمل على شيء من أجلك، لكنه ليس بذلك الكاتب الجيّد».

«متى قال هذا؟».

«لا أدري. ربما بعد عودته من أمستردام».

ألححت: «متى؟» ألم تتح له الفرصة لإنهائها؟ هل أنجزها وتركها على حاسوبه؟

«هممم»، تنهّد إسحق. «هممم، لا أدري. تكلّمنا عن الأمر مرة واحدة هنا. جاء إلى هنا، كأن... آه، لعبنا بآلتي الخاصة، بالرسائل الإلكترونية وقد تلقيت للتو رسالة من جدتي. يمكنني التدقيق بالآلة إذا كنتِ...

«نعم، نعم، أين هي؟».

أشار إلى الأمر قبل ذلك بشهر. شهر. وهو، باعتراف الجميع، ليس

بالشهر الجيّد، ومع ذلك... شهر. أتاح له ذلك ما يكفي من الوقت ليكتب شيئاً، على الأقل. لا يزال هناك شيء منه، أو على الأقل من صنعه. يطوف في المكان. وأنا أحتاجه.

قلت لإسحق: «سأذهب إلى منزله».

أسرعت خارجة إلى الميني ـ فان وسحبت مستوعب الأوكسيجين ورفعته إلى مقعد الراكب. وأدرت السيارة. دوّى إيقاع الهيب ـ هوب من جهاز الستيريو ومددت يدي لتغيير المحطة، وشرع أحدهم في غناء الراب، بالسويدية.

استدرت وصرخت لما شاهدت بيتر فان هوتن جالساً في المقعد الخلفي.

«أعتذر لإرعابك»، قال بيتر فان هوتن والستيريو يصدح بصوت الراب، وهو لا يزال يرتدي بزّة المأتم بعد ما يقارب الأسبوع من ذلك. طفحت رائحته كما لو أنه يتصبّب كحولاً لا عرقاً. «يمكنكِ الاحتفاظ بالقرص المدمج»، قال. «إنه سنوك وهو واحد من كبار السويديين...

أطفأت الستيريو. «آه، آه، آه، آه، أخرج من سيارتي».

«على حد علمي هذه سيارة والدتك»، قال. «كما أنها لم تكن موصدة».

«أوه، يا إلهي! اخرج من السيارة وإلا سأتصل بـ «تسعة واحد واحد» ما هي مشكلتك؟».

«لو أن هناك مشكلة واحدة فقط»، قال متأملاً. «أنا هنا للاعتذار وحسب. كنتِ محقة في ملاحظتك سابقاً أنني رجل وضيع مثير للشفقة

مدمن على الكحول. كانت لي إحدى الصديقات التي لم تقضِ الوقت معي إلا لأنني دفعت لها للقيام بذلك ـ يبقى أن الأسوأ يتمثل في أنها استقالت منذ ذلك اليوم وتركت تلك الروح النادرة التي لا تستطيع الحصول على الرفقة حتى بواسطة الرشوة. ذلك كله صحيح يا هازل. ذلك كله وأكثر».

«حسناً»، قلت. لو أنه لم يمضغ كلماته لكان خطابه أكثر تأثيراً في النفس.

«تذكّرينني بآنّا».

أجبت، «أذكّر كثيراً من الناس بكثيرٍ من الناس. عليّ حقاً أن أرحل».

قال: «قودي إذاً».

«اخرج».

«لا تذكّرينني بآنّا»، قال من جديد. وبعد لحظة رجعتُ خارجة بالسيارة. لم أستطع إرغامه على المغادرة، وليس عليّ ذلك. سأقود إلى منزل غاس حيث سيجبره والدا غاس على المغادرة.

قال فان هوتن: «تعرفين بالطبع أنطونييتا ميو».

«آه، لا»، قلت. أدرت الستيريو ودوّى صوت الهيب-هوب السويدي، لكن فان هوتن صاح.

«قد تصبح قريباً أصغر قديسة غير شهيدة تطوّبها الكنيسة الكاثوليكية. وقد أصيبت بنوع السرطان نفسه الذي أصيب به السيد واترز، الغرن العظمي. بتروا ساقها اليمنى. شعرت بألم مبرح. وفيما

انطونييتا ميو تحتضر نتيجة هذا السرطان المعذب وهي في عمر السادسة الناضج، قالت لوالدها: الألم مثل القماش، كلما كان قوياً زادت قيمته. هل ذلك صحيح يا هازل؟».

لم أنظر إليه مباشرة بل إلى انعكاسه في المرآة. صحت والموسيقى تصدح: «لا، ذلك هراء».

وصاح مجيباً: «لكنك تتمنين لو أنه صحيح!». أسكتّ الموسيقا. «آسف لأنني خربت رحلتكِ. كنت صغيرة جداً. كنت...» وانهار. كما لو أن من حقه أن يبكي على غاس. فليس فان هوتن إلا مجرّد واحد آخر من مشيّعين لا نهاية لهم ممن لم يعرفوه، مجرّد رثاء آخر متأخر جداً على جداريته.

«لم تخرّب رحلتنا، يا ابن الحرام الذي يعظّم نفسه كانت رحلتنا رائعة».

«أحاول»، قال. «أحاول، أقسم بذلك». عند هذا الحد أدركت أن شخصاً من عائلة بيتر فان هوتن كان قد توفي. فكّرت في الصدق الذي كتب به عن الأولاد المصابين بالسرطان؛ وواقع أنه لم يستطع التحدث إليّ في أمستردام إلا ليسألني إن كنتُ تقصّدت أن ألبس مثلها؛ وتصرّفه السخيف معي ومع أغسطس؛ سؤاله الموجع عن العلاقة بين أقصى الألم وقيمته. جلس هناك يشرب، رجلاً عجوزاً ثملاً منذ سنين. فكرت في إحصائيات تمنيت لو لم أعرفها: نصف الزيجات تنتهي بعد عام على وفاة الولد. التفتّ إلى الوراء إلى فان هوتن. كنت أقود في الطريق إلى المعهد وانحرفت وراء صف من السيارات المتوقفة وسألته، «هل توفي أحد أولادك؟».

«ابنتي»، قال. «كانت في الثامنة. تألمت كثيراً. ولن تُطوّب قديسة أبداً».

وسألت: «أُصيبت بسرطان الدم؟» هزّ برأسه. وقلت، «مثل آنّا. مثلها تماماً، نعم».

«هل كنت متزوجاً؟».

«لا حسناً، ليس وقت موتها. فأنا كنت شخصاً لا يُطاق قبل وقت طويل من خسارتنا لها. الحزن لا يغيّرك يا هازل. بل يميط اللثام عنك»

«هل عشت معها؟».

«لا، ليس في البداية، ثم جئنا بها في النهاية إلى حيث كنت أقيم في نيويورك لتخضع لسلسة من العذابات التجريبية التي زادت من بؤس أيامها من دون زيادة عددها».

وقلت بعد برهة: «وهكذا يبدو وكأنك نفثت فيها هذه الحياة الثانية التي تصبح فيها مراهقة».

«أعتقد أن في هذا تقويماً عادلاً»، قال، ثم أضاف سريعاً: «أفترض أنكِ على معرفة بالتجربة الفكرية حول معضلة الترام لفيليبا فوت؟».

قلت: «وعندها ظهرتُ في منزلك وأنا أرتدي ثياباً مثل الفتاة التي أملتَ أن تعيش ابنتك لتصبح مثلها، فأذهلك ذلك كلّياً».

قال: «هناك عربة ترام تسير على السكة وقد خرجت عن السيطرة».

قلت: «لا أبالي باختبارك الفكري الغبي».

«إنه في الواقع اختبار فيليبا فوت».

«حسناً، ولا أبالي باختبارها هي أيضاً».

«لم تفهم سبب حدوث حصول ذلك»، قال. «اضطررت إلى إخبارها بأنها ستموت. أبلغتني عاملتها الاجتماعية بأن علي أن أخبرها. اضطررت إلى أن أبلغها بأنها ستموت، وقلت لها بالتالي إنها ستصعد إلى الجنة. سألتني هل سأكون هناك وقلت إنني لن أكون فيها، ليس بعد. وقالت: لكن ذلك سيحدث في النهاية، وأجبتها: نعم، بالطبع، قريباً جداً. وقلت لها إن لدينا في تلك الأثناء عائلة كبيرة فوق ستعتني بها. وسألتني متى سأصبحُ هناك، وقلت لها قريباً جداً. حدث ذلك منذ اثنين وعشرين عاماً».

«آسفة».

«وأنا أيضاً».

سألته بعد فترة: «ماذا حل بأمها؟».

ابتسم. «لا تزالين تبحثين عن تكملة القصة، أيتها الفأرة الصغيرة».

ابتسمت بدوري. «عليك العودة إلى الديار»، وقلت له. «اصحَ. اكتب رواية أخرى. قُمْ بالأمر الذي تجيده. ليس لكثير من الناس الحظ في أن يجيدوا أمراً ما».

حدّق إليّ فترة طويلة عبر المرآة، وقال: «حسناً. نعم، أنتِ محقة. أنتِ محقة». إلا أنه حتى وهو يقول هذا سحب زجاجة الويسكي التي تكاد تفرغ. شرب، وأعاد إغلاقها وفتح الباب. «الوداع، يا هازل».

«هوّن عليك، يا فان هوتن».

جلس على المنعطف خلف السيارة. وسحب الزجاجة، وأنا أراقبه عبر مرآة الرؤية الخلفية وهو يتضاءل، وبدا في خلال وهلة أنه سيتركها عند المنعطف. ثم أخذ رشفة.

كان ذلك بعد ظهر يوم حار في إنديانا بوليس، والهواء مثقل وساكن كما لو أننا داخل غيمة. وهذا أسوأ أنواع الهواء بالنسبة إلي، وقلت لنفسي إنه الهواء وحسب عندما شعرت بأن السير من معبر بيت غاس إلى باب المدخل لا ينتهي. قرعت الجرس وفتحت أمه الباب.

«أوه، هازل»، قالت، وطوّقتني وهي تبكي.

أعتقد أن كثيراً من الناس جاؤوهما بالطعام، وقد جعلتني أتناول بعض اللازانيا بالباذنجان معها ومع والد غاس «كيف حالك؟».

«أفتقده».

«نعم».

لم أعرف في الحقيقة ماذا أقول. أردت أن أنزل أولاً إلى تحت وأعثر على ما كتبه لي. ثم إن الصمت في الغرفة أزعجني فعلاً. أردت أن يتحدّث أحدهما إلى الآخر، أن يتواسيا أو يمسك أحدهما بيد الآخر، لكنهما اكتفيا بالجلوس في المكان يتناولان كميات قليلة من اللازانيا من دون أن يتبادلا النظرات. قال والده بعد فترة: «احتاجت السماء إلى ملاك».

«أعرف»، قلت. ثم ظهرت شقيقتاه وأولادهما بجلبتهم وتكوّموا في المطبخ. نهضت وعانقت كلتا الشقيقتين ثم راقبت الأولاد يركضون في أرجاء المطبخ محدثين ضجيجاً وحركة وكانوا يشبهون جزيئات يصطدم بعضها ببعض وهم يصيحون: «أنت كذلك، لا أنت كذلك. لا كان ذلك ثم أمسكتك، لم تمسكني بل أخطأتني. حسناً ها أنا أمسك بك الآن، لا أيها الغبي، وقت مستقطع. دانيال لا تنادِ شقيقك بالغبي. أمي إذا لم تريديني أن أستخدم تلك الكلمة فكيف حدث أن

استخدمتها للتو. غبي، غبي»، ثم يرددون كأنهم في جوقة غبي، غبي، غبي، غبي، غبي، وها إن والدي غاس يمسك الآن أحدهما يد الآخر وهما جالسان إلى الطاولة ما منحني شعوراً أفضل.

قلت: «أخبرني إسحق أن غاس كان يكتب شيئاً لي». واستمر الأولاد في إنشاد أغنية الغبي.

قالت أمه: «يمكننا التحقَق من حاسوبه».

قلت: «لم يستخدمه كثيراً في الأسابيع القليلة الأخيرة».

«ذلك صحيح. لست متأكدة حتى من أننا جلبناه إلى فوق. ألا يزال في القبو، يا مارك؟».

«ليست لدي أي فكرة».

«حسناً. أيمكنني.. وأومأت برأسي صوب باب القبو.

«لسنا مستعدين»، قال والده. «لكن بالطبع، نعم، يا هازل. تستطيعين بالطبع».

نزلت إلى تحت، واجتزت سريره غير المرتب وكرسيي اللعب من تحت التلفاز. حاسوبه لا يزال يعمل، نقرت على الفأرة لتشغيله ثم بحثت عن آخر الملفات المُحرّرة. لا شيء من الشهر الفائت. وأحدثها بحث يردّ فيه على أسئلة تتعلق بكتاب توني موريسون: العين الأكثر زرقة.

ربما كتب شيئاً بخط اليد. توجّهت إلى رفوف كتبه بحثاً عن مفكَرة أو دفتر ملاحظات. لا شيء. وقلّبت صفحات نسخته من «منحة عظيمة»، ولم يترك فيها ولو علامة واحدة.

سرب بعد ذلك إلى طاولة سريره. وضع «مايهم اللامتناهي» وهو التكملة التاسعة لـ «ثمن انبلاج الفجر». فوق الطاولة بجانب مصباح القراءة وقد طويت زاوية الصفحة ١٣٨ لم يصل أبداً إلى نهاية الكتاب. «تنبيه مفسد للرواية: مايهم ينجو»، قلت له بصوت مرتفع في حال أمكنه أن يسمعني.

ثم زحفت إلى سريره غير المرتب ولففت نفسي بلحافه مثل الشرنقة محيطة نفسي برائحته. سحبت الكانيولا لأتمكن من الشم بطريقة أفضل، وأنا أتنشق وأزفر، والرائحة تتلاشى حتى وأنا مستلقية في المكان، وصدري يحرقني إلى أن عجزت عن التمييز بين الآلام.

جلست على السرير فترة ثم أعدت وضع الكانيولا وتنفست هنيهة قبل أن أصعد الدرج. اكتفيت بهز رأسي بالنفي رداً على نظرات أهله المستفهمة. تسابق الصبية واجتازوني. وقالت إحدى شقيقتي غاس - لا أستطيع تمييز إحداهما من الأخرى - «أتريدينني يا أمي أن آخذهم إلى المتنزّه؟».

«لا، لا، لا بأس».

«هل هناك مكان يمكن أن يضع فيه دفتر ملاحظات؟ إلى جانب سرير المستشفى أو غيره؟»، وقد اختفى السرير بعدما استردته دار الرعاية.

«هازل»، قال والده، «كنتِ معنا هنا كل يوم. أنت... لم يبقَ كثيراً وحده، يا عزيزتي. ولم يمتلك الوقت ليكتب أي شيء. أعرف أنك تريدين أنا أريد ذلك أيضاً. لكن الرسائل التي يتركها لنا تأتي الآن من فوق، يا هازل». وأشار بإصبعه صوب السقف كما لو أن غاس

يطوف فوق المنزل. ربما هو يفعل ذلك. لا أدري. إلا أنني لا أشعر بحضوره.

«نعم»، قلت. ووعدتهم بزيارتهم مرة أخرى بعد أيام قليلة.

ولم أشمّ رائحته تماماً بعد ذلك.

الفصل الرابع والعشرون

بعد ذلك بثلاثة أيام، في اليوم الحادي عشر من أغسطس، اتصل بي والده صباحاً. كنت لا أزال موصولة بجهاز التنفّس فلم أجب، لكنني استمعت إلى رسالته في اللحظة التي تلقّيت إشارتها عبر هاتفي. «هازل، مرحباً، أنا والد غاس. عثرت على دفتر ملاحظات أسود على رف المجلات قرب سرير المستشفى، بحيث يكون في متناول اليد. لسوء الحظ ليس هناك كتابات في دفتر الملاحظات كل الصفحات بيضاء. لكن الصفحات الأولى ـ أعتقد أنها ثلاث أو أربع ـ منزوعة من الدفتر. وبالتالي لا أعرف كيف أفسّر الأمر. ربما كانت تلك الصفحات هي التي أشار إليها إسحق؟ آمل، على أي حال، أنك بخير. نذكرك في صلواتنا كل يوم يا هازل. حسناً، الوداع».

ثلاث أو أربع صفحات انتُزعت من دفتر ملاحظات لم تعد موجودة في منزل غاس. أين سيتركها لي؟ ملصقة بمنتزه «العظام غير التقليدية؟» لا لم يكن في حال تسمح له بالوصول إلى هناك.

قلب يسوع الفعلي. ربما تركها لي هناك في يومه الجيّد الاخير.

قصدت مجموعة الدعم في اليوم التالي مبكرة عشرين دقيقة. قدت السيارة إلى منزل إسحق واصطحبته ثم توجهنا إلى قلب يسوع الفعلي وقد أنزلنا نوافذ الميني-فان ونحن نستمع إلى ما تسرّب من البوم «هكبتيك غلو» الجديد الذي لن يسمعه غاس أبداً.

استخدمنا المصعد ثم سرت بإسحق إلى أحد المقاعد في حلقة الثقة، ثم أخذت أدور ببطء حول القلب الفعلي. تفقّدت كل مكان: تحت الكراسي، حول منبر الوعظ الذي وقفت وراءه وأنا ألقي نعيي، تحت طاولة الحلوى، على لوحة الإعلانات المكتظة برسوم محبة اللّه لأولاد مدرسة الأحد. لا شيء. إنه المكان الوحيد، إلى جانب منزله، الذي كنا فيه معاً في تلك الأيام الأخيرة. فإما أنها ليست هنا وإما أنني أفوّت أمراً ما. ربما تركها لي في المستشفى، وإذا فعل فمن شبه المؤكد أنها رُميت بعد وفاته.

انقطعت أنفاسي فعلاً في الوقت الذي جلست فيه على الكرسي إلى جانب إسحق، وكرّست الوقت الذي كان فيه باتريك الفاقد الخصيتين يتلو شهادته وأنا أبذل جهدي ليكون تنفسي طبيعياً مطمئنة إلى وجود ما يكفي من الأكسجين. وقد تم نزح رئتيّ قبل أسبوع فقط من وفاة غاس - شاهدت الماء السرطاني العنبري يتقطّر مني عبر الأنبوب - وها إنني أشعر مع ذلك بأنهما امتلأتا من جديد. ركّزت كثيراً في أن أطلب من نفسي التنفس بحيث لم ألاحظ في البداية أن باتريك ناداني.

انتبهت بسرعة وقلت: «نعم».

«كيف حالك؟».

«أنا بخير يا باتريك، منقطعة الأنفاس بعض الشيء».

«أتودين إشراك المجموعة في استذكار أغسطس؟».

«أود، يا باتريك، لو أنني أموت. أرغبت في أن تموت؟».

«نعم»، قال باتريك من دون وقفته المعتادة. «نعم، بالتأكيد. ولماذا لا تفعلين؟».

فكّرت في الأمر. كان جوابي المعلّب القديم أنني أريد البقاء حية من أجل أهلي، لأنهما من بعدي سيصبحان خائبين ومن دون أولاد، ولا يزال ذلك صحيحاً إلى حد ما، لكنه ليس كذلك بالتحديد. «لا أدري».

«أملاً منك في أن تتحسني؟».

«لا لا، ليس ذلك. أنا حقيقة لا أعرف. إسحق؟». سألت وقد تعبت من الكلام.

شرع إسحق يتحدث عن الحب الحقيقي. ولم أتمكن من أن أخبرهم بما أفكّر لأنه بدا لي سيئاً، سوى أنني أخذت أفكر في الكون الذي يريد أن تتم ملاحظته وكيف عليّ أن ألاحظه بأفضل ما يمكن. شعرت أن عليّ ديناً للكون لا يُسدَّد إلا بتأمّله واستخلاص عِبره، وأن لديّ أيضاً ديناً لجميع من ليسوا أشخاصاً على قيد الحياة بعد الآن، ولكل من لم يعش حياته حتى الآن كما يبتغيها. أي فكرت أساساً، في ما قاله لي والدي.

بقيت صامتة طوال ما تبقى من وقت اجتماع مجموعة الدعم، وتلا باتريك صلاة خاصة لي وثُبِّت اسم غاس في اللائحة الطويلة للموتى ـ

أربعة عشر شخصاً منهم لكل واحد منّا ـ وتعهّدنا بأن نعيش أفضل ما في حياتنا اليوم، ثم أخذت إسحق إلى السيارة.

حين عدت إلى المنزل كانت أمي وأبي جالسين إلى طاولة غرفة الطعام وكل منهما أمام حاسوبه المحمول الخاص، ولحظة عبوري الباب أطبقت أمي غطاء حاسوبها بسرعة. «ماذا على الحاسوب؟».

«بعض الوصفات المضادة للأكسدة فقط. أجاهزة أنت لجهاز التنفس ولأميريكاز نكست توب موديل؟»، سألتْ.

«سأذهب للتمدّد بعض الوقت».

«هل أنت بخير؟».

«نعم، تعبة فقط».

«لكن، يجب أن تأكلي قبل...».

«أمي، أنا، وأقولها بقوّة، لست جائعة». وخطوت خطوة واحدة باتجاه الباب لكنها قاطعتني.

«هازل، يجب أن تأكلي، فقط بعض الـ...

«لا، سآوي إلى السرير».

«لا»، قالت أمي. «لن تذهبي». وألقيتُ نظرة على والدي فهزّ كتفيه.

قلت: «هذا شأني».

«لن تجوّعي نفسك حتى الموت لأن أغسطس مات. ستتناولين العشاء».

حنقت فعلاً لسبب من الأسباب. «لا أستطيع الأكل، يا أمي. لا أستطيع. مفهوم؟».

حاولت دفع نفسي وتجاوزها لكنها أمسكت بكلتا كتفيّ وقالت: «هازل، ستتناولين العشاء. تحتاجين إلى أن تبقي معافاة».

«لا!» صحت. «لن أتناول العشاء، ولا يمكنني أن أبقى معافاة لأنني لست معافاة. أنا أحتضر، يا أمي. سأموت وأتركك هنا وحدك ولن أبقى لك لتحومي من حولي ولن تبقي أماً بعد ذلك، وأنا آسفة، لكنني لا أستطيع شيئاً حيال ذلك، مفهوم؟».

ندمت ما إن تفوّهت بذلك.

«سمعتني».

«ماذا؟».

«هل سمعتني أقول ذلك لوالدك؟»، ودمعت عيناها. «هل فعلت؟». وأومأت برأسي. «أوه، يا إلهي، هازل. أنا آسفة. أخطأتُ، يا حبيبتي. ذلك ليس صحيحاً. قلت ذلك في لحظة يأس. وأنا لا أؤمن بهذا». جلستْ وجلستُ معها. وأخذت أفكر في أنه كان عليّ أن أزدرد بعض الباستا من أجلها بدلاً من الاستياء.

وسألتها: «بماذا تؤمنين إذاً؟».

«ما دام أحدنا حياً فسأبقى أمك»، قالت. «وحتى لو متّ، فأنا...

«عندما أموت»، قلت.

وهزت برأسها. «حتى عندما تموتين فسأبقى أمك يا هازل. لن أتوقف عن كوني أمك. هل توقفت عن حب غاس؟»

هززت رأسي نفياً. «حسناً، وكيف لي إذاً أن أتوقّف عن حبك؟»
«حسناً»، قلت. وها إن أبي شرع الآن في البكاء.

«أريد أن تحظيا بحياة طبيعية»، قلت. «أخشى أنكما لن تحظيا بها، وأنكما ستجلسان من دون وجودي، وتحدّقان إلى الجدران وتريدان القضاء على نفسيكما».

قالت أمي بعد دقيقة: «إنني أتلقى بعض الدروس، على الإنترنت عبر جامعة إنديانا للحصول على إجازة في العمل الاجتماعي. وأنا لم أكن أبحث في الحقيقة عن وصفات مضادة للأكسدة؛ بل أكتب مقالة»

«صحيح؟».

«لا أريد أن تعتقدي أنني أتصوّر عالماً من دونك. لكن يمكنني في حال حصولي على الإجازة في العمل الاجتماعي أن أقدم النصح لعائلات تواجه أزمة أو أقود مجموعة تتعامل مع الأشخاص المرضى في عائلتها أو...».

«مهلاً، هل ستصبحين مثل باتريك؟».

«حسناً، ليس بالضبط. هناك أنواع كثيرة من وظائف العمل الاجتماعي».

قال أبي: «اعترانا القلق من أنك ستشعرين بالإهمال. ومن المهم أن تعرفي أننا سنكون دوماً هنا من أجلك، يا هازل. وأمك لن تذهب إلى أي مكان».

«لا، ذلك عظيم. إنه رائع!»، وابتسمت. «أمي ستصبح باتريك ستصبح «باتريكاً عظيماً!» ستتقن الأمر أفضل بكثير من باتريك».

«شكراً، يا هازل. هذا يعني كل شيء بالنسبة إليّ».

هززت رأسي. وأخذت أبكي. لم أستطع أن أتغاضى عن سعادتي، اخذت، للمرة الأولى أذرف دموعاً صادقة من الفرح الحقيقي، وأنا خيّل أمي تلعب دور باتريك. وجعلني ذلك أفكّر في والدة آنّا التي ان بإمكانها أن تصبح هي الأخرى عاملة اجتماعية جيدة أيضاً.

شغّلنا التلفاز بعد فترة وشاهدنا أميريكاز نيو توب موديل. لكنني وقفت البرنامج مؤقتاً بعد نحو خمس ثوان بسبب كل هذه الأسئلة التي أردت طرحها على أمي: «كم اقتربتِ، إذاً، من الانتهاء؟».

«إذا ذهبت في هذا الصيف فترة أسبوع إلى بلومينغتون يجب أن تمكّن من الانتهاء بحلول كانون الأول/ديسمبر».

«كم مضى من الوقت، بالضبط، وأنت تخفين ذلك عني؟».

«سنة».

«أمي».

«لم أرد أن أجرحك، يا هازل».

مدهش. «وهكذا عندما كنت تنتظرينني خارج المعهد أو مجموعة دعم، أخذتِ دائماً..

«نعم، أعمل أو أقرأ».

«عظيم جداً. أريد أن تعرفي أنني إذا مت فسأتنهّد لك من الجنة كل مرة تطلبين من أحد أن يشارك الآخرين مشاعره».

ضحك والدي، وأكد لي: «سأكون هناك معك تماماً، يا صغيرتي».

وشاهدنا في النهاية «أميريكاز نيو توب موديل». حاول أبي ألا

يموت من السأم، واستمر يخطئ في تحديد هوية الفتيات قائلاً: «هل نحب هذه الفتاة؟».

وشرحت أمي: «لا، لا. فنحن نزدري أنستاسيا. ونحب أنطونيا، الشقراء الأخرى».

«جميعهن طويلات القامة ومريعات»، رد أبي. «أعذراني لعجزي عن التفريق بينهن». ومد أبي يده فوقي للإمساك بيد أمي.

وسألت: «أتعتقدان أنكما ستبقيان معاً إذا متّ؟».

«هازل، ماذا؟ حبيبتي». وتحسستُ مكان جهاز التحكّم عن بعد وأطفأت التلفاز مؤقتا من جديد. «ما الخطب؟».

«فقط، هل تعتقدان أنكما ستبقيان معاً؟».

«نعم، بالتأكيد، طبعاً»، قال أبي. «فأنا أحب أمك وأمك تحبني، وإذا خسرناك فسنجتاز الأمر معاً».

قلت: «احلف بالله».

وقال: «أحلف بالله».

عاودت النظر إلى أمي، ووافقت: «أقسم بالله. لماذا تقلقين بهذا الشأن؟».

«لا أريد أن أدمر حياتكما».

انحنت أمي وضغطت وجهها في شعري المنفوش غير المرتب، وقبّلت أعلى قمة رأسي. وقلت لوالدي: «لا أريد أن تصبح أشبه بمتعطّل بائس مدمن على الخمر».

ابتسمت أمي: «والدك ليس بيتر فان هوتن، يا هازل. وعليكِ أنتِ من بين جميع الناس أن تعرفي أنه يمكن التعايش مع الألم».

«نعم، حسناً»، قلت. وعانقتني أمي، وتركتها تفعل ذلك على الرغم من أنني لم أرد فعلاً أن أُعانقها. «حسناً»، قلت. «يمكنك استئناف البرنامج». طُردت أنستاسيا، وأصيبت بنوبة غضب. كان ذلك مذهلاً.

أكلت بضع قضمات من العشاء ـ باستا على شاكلة جناحي فراشة مع صلصة البِستو ـ وتمكّنت من إبقائها في جوفي.

الفصل الخامس والعشرون

استيقظت في الصباح التالي مذعورة وقد حلمت بأنني وحدي، بلا قارب، في بحيرة هائلة. وقفت وأنا أصارع جهاز التنفّس وشعرت بذراع أمي عليّ.

«هاي، هل أنت بخير؟».

تسارعت دقات قلبي، لكنني أومأت برأسي. قالت أمي: «الاتصال لك، إنها كيتلين». أشرت إلى جهاز التنفس فساعدتني في نزعه عني وربطتني بـ«فيليب» أخذتُ بعدها هاتفي الخلوي من أمي وقلت: «هاي، كيتلين».

«أتصل لأطمئن عليك»، قالت. «كيف حالك إذاً؟».

«نعم، شكراً»، قلت. «إنني بخير».

«كان حظك سيئاً للغاية، يا عزيزتي. هذا غير معقول».

«أعتقد»، قلت. لم أعد أفكّر، بطريقة أو بأخرى، في حظي بعد

الآن. وأنا بصراحة لم أرد حقاً التحدث مع كيتلين في أي شيء، لكنها استمرت في جرجرة الحديث.

سألتُ، «كيف هو الأمر إذاً؟».

«أن يموت فتاكِ؟ هممم، إنه كريه».

«لا»، قالت. «بل الحب».

«أوه»، قلت. «أوه. إنه إنّ قضاء الوقت مع شخص يثير هذا القدر من الاهتمام شيء جيد. كنا مختلفين جداً وتعارضنا حول كثير من الأمور، لكنه بقي دوماً مثيراً جداً للاهتمام، أتعرفين؟».

«للأسف لا أعرف. فالفتية الذين أهتم بهم ليسوا مثيرين للاهتمام إلى هذا الحد».

«لم يكن كاملاً أو أي شيء، ولا يشبه أمير القصص الخرافية أو ما شابه. وقد حاول أن يصبح كذلك أحياناً، لكنني أحببته أكثر مع زوال ذلك الشيء».

«ألديك دفتر يحتوي على قصاصات من صوره والرسائل التي كتبها؟».

«لدي بعض الصور، لكنه لم يكتب لي الرسائل فعلاً. باستثناء وجود بعض الصفحات المفقودة من دفتر ملاحظاته قد تحتوي على شيء لي، لكنني أعتقد أنه رماها أو فُقدت أو أي شيء من هذا القبيل».

قالت: «ربما أرسلها لك بالبريد».

«لا، لو كان ذلك صحيحاً، لكان وصلت إليّ».

«إذاً، ربما لم تُكتب لك»، قالت. «ربما أقصد أنني لا أحاول أن أحبطك أو ما شابه، لكن ربما كتبها لأحد آخر وأرسلها بالبريد...

وصحت: «فان هوتن!».

«هل أنت بخير؟ هل ذلك سعال؟».

«كيتلين، أحبك. أنت عبقرية. يجب أن أذهب».

أقفلت الخط، واستدرت وأخذت حاسوبي وأدرته وبعثت برسالة إلكترونية إلى ليدوفيه. فليغنثارت.

ليدوفيه،

أعتقد أن أغسطس واترز، قبل وفاته بفترة وجيزة، بعث بالبريد بضع صفحات من دفتر ملاحظات إلى بيتر فان هوتن. يهمني جداً أن يقرأ أحدهم هذه الصفحات. وأنا أريد قراءتها، بالتأكيد، لكنها ربما لم تُكتب لي. ويجب، بغض النظر عن ذلك، أن تُقرأ. يجب أن تُقرأ.

هل يمكنك المساعدة؟

صديقتك،

هازل غريس لانكستر

وأجابتني في وقت متأخر من بعد الظهر ذاك.

عزيزتي هازل،

لم أعرف أن أغسطس قد توفي. وأنا حزينة جداً لسماعي الخبر. كان شاباً يتمتع بقدر كبير من الكاريزما. وأنا آسفة جداً وحزينة جداً.

لم أتحدث مع بيتر منذ استقالتي في ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه. والوقت ليل ومتأخر كثيراً هنا، إلا أن أول عمل سأقوم به في الصباح هو التوجّه إلى منزله للعثور على هذه الرسالة وإجباره على قراءتها. وفترات الصباح هي في العادة أفضل أوقاته.

صديقتك،

ليدوفيه فليغنثارت

ملاحظة: سأصطحب صديقي معي في حال اضطررنا إلى كبح بيتر جسدياً.

تساءلتُ عن سبب كتابته لبيتر فان هوتن بدلاً مني في تلك الأيام الأخيرة، قائلاً له إنه لن يُعتَق إلا إذا زوّدني بالتتمة. ربما لم تكن صفحات دفتر الملاحظات إلا تكراراً لطلبه من فان هوتن. وهذا منطقي، أن يستخدم غاس قربه من النهاية من أجل تحقيق حلمي، صحيح أنه أمر بسيط قام به قبل موته لكنه أسمى ما كان قادراً على فعله.

تحقّقت بشكل مستمر في تلك الليلة من بريدي الإلكتروني، وغفوت بضع ساعات، ثم عاودت التحقّق حوالى الخامسة فجراً. لكن لم يردني شيء. حاولت إلهاء نفسي بمشاهدة التلفاز، إلا أن أفكاري استمرت في الانجراف عائدة إلى أمستردام وأنا أتخيّل ليدوفيه فليغنثارت وصديقها يدوران على الدراجة حول المدينة في تلك المهمة المجنونة المتمثلة في العثور على آخر مراسلة لفتى ميت. وكم سيكون ممتعاً لي الاهتزاز على المقعد الخلفي لدراجة ليدوفيه

فليغنثارت على آجر الشوارع وشعرها الأحمر المجعّد يتطاير على وجهي، ورائحة القنوات ودخان السجائر، وجميع الناس الجالسين خارج المقاهي يشربون الجعة، يلفظون بعض الحروف بطريقة لن أتعلّمها أبداً.

اشتقت إلى المستقبل. من الواضح أنني عرفت، حتى قبل انتكاسة أغسطس واترز، أنني لن أشيخ معه أبداً. لكنني شعرت بأنني كمن تعرّض للسرقة وأنا أفكر في ليدوفيه وفتاها. ربما لن أرى مرة أخرى المحيطِ من علو ثلاثين ألف قدم، وهذا ارتفاع شاهق جداً بحيث لا يتمكّن المرء من تمييز الموج أو أية مراكب، فيصبح المحيط كتلة متراصة عظيمة لا نهاية لها. أمكنني تخيّل ذلك. أمكنني تذكّره. لكن لن يكون بإمكاني رؤيته من جديد. وخطر لي أن طموح البشر المفترس لا يُشبعه أبداً تحقيق الأحلامِ، بسبب الوجود الدائم لتلك الفكرة المتمثلة في أنه يمكن صنع كل شيء بطريقة أفضل ومن جديد.

ربما كان هذا صحيحاً حتى لو بلغ المرء سن التسعين على الرغم من أنني أحسد الناس الذين سيتمكّنون من معرفة ذلك بالتأكيد. ثم إنني، ومن جديد، عشت ضعفيّ عمر ابنة فان هوتن. فأيّ جهد كان سيبذله لتبقى ابنته على قيد الحياة حتى سن السادسة عشرة؟

وها إن أمي تقف فجأة بيني وبين التلفاز ويداها متشابكتان من خلف ظهرها. «هازل»، قالت. بلغ صوتها حدّاً من الجدية اعتقدتُ معه أن ثمة خطباً ما.

«نعم؟».

«أتعرفين أي يوم هو اليوم؟».

«ليس عيد ميلادي، أليس كذلك؟».

ضحكتْ. «لا ليس بعد. إنه الرابع عشر من تموز/يوليو يا هازل»

«أهو عيد ميلادك؟».

«لا

«أهو عيد ميلاد هاري هوديني؟».

«لا

«تعبت حقاً من التخمين».

«إنها ذكرى تحرير الباستيل!». وسحبت ذراعيها من وراء ظهرها وأظهرت علمين فرنسيين بلاستيكيين صغيرين لوحت بهما بحماسة.

«يبدو ذلك كأمر زائف. مثل يوم التعريف بالكوليرا».

«أؤكّد لك، يا هازل، عدم وجود ما هو زائف في ذكرى تحرير الباستيل. هل تعرفين أن الشعب الفرنسي اقتحم سجن الباستيل قبل مئتين وثلاثة وعشرين عاماً من اليوم لتسليح نفسه من أجل معركة حريته؟».

«واو»، قلت. «علينا أن نحتفل بهذه الذكرى الخطيرة».

«لقد رتّبت نزهة مع والدك في هوليداي بارك».

لا تكف أمي عن المحاولة. دفعت بنفسي عن الأريكة ووقفت. وهيّأنا معاً بعض السندويشات ووجدنا سلة نزهة مغبّرة في خزانة المنافع في الممشى.

إنه ليوم جميل. لدينا أخيراً صيف حقيقي في إنديانا بوليس، دافئ ورطب: نوع الطقس الذي يذكرك بعد شتاء طويل بأن العالم لم يُبنَ

للبشر بل إن البشر صُنعوا من أجل العالم. انتظَرَنا أبي، مرتدياً بذلة حنطية، وهو يقف في موقف للمعوّقين يطبع على حاسوبه المحمول. لوّح لنا ونحن نركن السيارة ثم عانقني. «يا له من يوم»، قال. «لو عشنا في كاليفورنيا لباتت أيامنا كلها كهذا اليوم».

«نعم، لكن ما كنّا لنستمتع بها»، قالت أمي. وهي مخطئة لكنني لم أصحّح لها.

انتهى بنا الأمر ونحن نفرش حرامنا عند «البقايا الأثرية»، هذا المستطيل الغريب من الآثار الرومانية المرمية في وسط حقل في إنديانا بوليس. لكنها ليست آثاراً حقيقية: إنها أشبه بنسخة محفورة للآثار بُنيت منذ ثمانين عاماً، وتعرّضت الآثار المزيفة للإهمال الشديد بحيث أضحت، عَرَضاً، آثاراً حقيقية أحبها فان هوتن وغاس أيضاً.

وهكذا جلسنا في ظَل الآثار وتناولنا قليلاً من الغداء. وسألتني أمي: «أتحتاجين إلى حاجب لأشعة الشمس؟».

قلت: «أنا بخير».

سمعت صوت الريح في أوراق الشجر، وعلى هذه الريح سافرت صيحات الأولاد في الملعب في البعيد، الصغار الذين يتصوّرون كيف يكونون أحياء، وكيف يبحرون في عالم لم يُبنَ لهم من خلال الإبحار في ملعب لهم. شاهدني أبي أراقب الأولاد وقال: «تفتقدين إلى الجري في المكان على ذلك النحو؟».

«أحياناً، على ما أعتقد». لكن ليس ذلك ما أخذت أفكّر به. حاولت أن ألاحظ كل شيء: الضوء على الآثار الخربة، هذا الطفل الصغير، الذي لا يكاد يمشي، يكتشف قضيباً عند زاوية الملعب، أمي

النشيطة وهي تضع الخردل بشكل متعرّج على ساندويش الحبش، والدي يربّت على حاسوبه المحمول في جيبه مقاوماً الرغبة في التحقّق منه، فتى يرمي القرص الطائر فيما كلبه يستمر في الركض تحته والإمساك به وإعادته إليه.

من أنا لأقول إن هذه الأمور قد لا تستمر إلى الأبد؟ من هو بيتر فان هوتن ليؤكّد على واقع مخاضنا المؤقت بوصفه أمراً بديهياً؟ فكل ما أعرف عن الجنة وكل ما أعرف عن الموت موجود في هذا المتنزّه: كون بديع في حركة دائمة، حافل بالآثار الخربة وبالأولاد الصائحين.

أخذ والدي يلوّح بيده أمام وجهي: «اضبطي موجتك يا هازل. هل أنت معنا؟».

«عفواً، نعم، ماذا؟».

«اقترحت أمك أن نذهب لزيارة غاس؟».

«أوه، نعم». قلت.

وهكذا توجّهنا بعد الغداء جنوباً إلى مقبرة «كراون هيل»، مكان الراحة الأخير والنهائي لثلاثة نواب رؤساء ورئيس واحد وأغسطس واترز. قدنا السيارة حتى أعلى التلة وركنّاها. هدرت السيارات من ورائنا في الشارع الثامن والثلاثين. وكان سهلاً العثور على قبره. فهو الأحدث. ولا يزال التراب مكوّماً فوق نعشه. ولم يوضع عليه بعد شاهد الضريح.

لم أشعر أنه هناك أو أي شيء من هذا النوع، إلا أنني أخذت مع ذلك واحداً من علميّ أمي الفرنسيين وغرزته عند أسفل ضريحه. ربما يعتقد العابرون أنه عضو في الفيلق الأجنبي الفرنسي أو بطل ما.

وأخيراً ردّت ليدوفيه تماماً بُعَيْدَ السادسة مساء، وأنا على الأريكة أشاهد في آنٍ التلفاز والفيديو على حاسوبي المحمول. شاهدت على الفور أربعة مرفقات بالرسالة الإلكترونية وأردت فتحها أولاً، لكنني قاومت الإغراء وقرأت الرسالة الإلكترونية.

عزيزتي هازل،

وجدنا بيتر مخموراً جداً لدى وصولنا هذا الصباح إلى منزله، لكن ذلك سهّل بطريقة ما عملنا. ألهاه باز (صديقي) فيما أخذت أفتش في كيس النفايات الذي يحتفظ فيه بيتر برسائل المعجبين، ثم أدركت أن أغسطس عرف عنوان بيتر. وُجدت كومة كبرى من البريد على طاولة غرفة طعامه حيث عثرت سريعاً جداً على الرسالة. فتحتها ووجدت أنها مُرسلة إلى بيتر فطلبت منه قراءتها، ورفض.

عند هذا الحد اعتراني غضب شديد، لكنني لم أصرخ عليه. بل قلت له إنه مدين لابنته المتوفاة بأن يقرأ هذه الرسالة من فتى ميت، وأعطيته الرسالة وقرأ كل ما جاء فيها وقال، وأنا أستشهد بما قاله مباشرة ـ «أرسليها إلى الفتاة وقولي لها إنه ليس لديّ ما أضيفه».

لم أقرأ الرسالة، على الرغم من أن عينيّ وقعتا على بعض الجمل وأنا أمسحها. وقد أرفقتها بهذه الرسالة وسأرسلها لك بالبريد إلى منزلك؛ ألا يزال عنوانك على حاله؟

باركك اللّه وحماك، يا هازل.

صديقتك ليدوفيه فليغنثارت،

نقرت على المرفقات الأربعة. خطه رديء ومنحرف عبر الصفحة حيث يتباين حجم الحروف، وكذلك يتغيّر لون القلم. كتبها على مدى أيام كثيرة بدرجات متنوعة من الوعي.

فان هوتن،

أنا إنسان جيد لكنني كاتب رديء. وأنت إنسان رديء ولكنك كاتب جيد. ونشكّل معاً فريقاً جيداً. لا أريد أن أسألك أي معروف، لكنني أتساءل، إذا توفر لك الوقت ـ ولديك، حسبما رأيت، وفرة منه ـ هل يسعك أن تكتب نعياً لهازل. دوّنتُ الملاحظات وكل شيء، لكن هل يمكنك أن تحوّلها إلى كلّ متماسك؟ أو أن تقول لي وحسب ما الذي يجب أن أقوله بطريقة مغايرة.

هاك الأمر بالنسبة إلى هازل: جميع الناس تقريباً مهووسون بترك علامتهم في العالم. بترك إرث. بالاستمرار بعد الموت. جميعنا يريد أن يُذكر. وأنا أريد ذلك أيضاً. وأكثر ما يزعجني أن أصبح ضحية منسية أخرى في الحرب القديمة وغير المجيدة ضد المرض.

أريد أن أترك علامة.

لكن، يا فان هوتن: إن العلامات التي يتركها البشر هي في الغالب ندوب. فأنت تبني مركزاً صغيراً بشعاً للتسوّق أو تشرع في انقلاب أو تحاول أن تصبح نجم «روك» وتفكِر، «سيذكرونني الآن»، لكن (أ) لا يتذكرونك، و(ب) كل ما تخلفه وراءك هو مزيد من الندوب. يتحول انقلابك إلى ديكتاتورية. ويصبح مركز تسوّقك آفة.

(حسناً، ربما لستُ هذا الكاتب السيئ. لكنني، يا فان هوتن، لا أستطيع جمع شتات أفكاري. فأفكاري نجوم لا أستطيع استعراضها في مجرات).

نحن أشبه بقطيع من الكلاب تبول على خراطيم إطفاء النار. نسمّم ببولنا المياه الجوفية، وندمغ كل شيء بأنه لي في محاولة سخيفة للبقاء بعد موتنا. لا أستطيع التوقف عن التبوّل على خراطيم الإطفاء. أعرف أن ذلك أخرق وعقيم ـ عقيم بشكل ملحمي في حالتي ـ لكنني حيوان كأي حيوان آخر.

هازل مختلفة. تسير بخفة، أيها العجوز. تمشي بخفة على الأرض. فهازل تعرف الحقيقة: من المرجح أن نؤذي الكون بقدر ما هو مرجح أن نساعده، ومن غير المرجح أن نقوم بأي من الأمرين.

سيقول الناس إنه من المحزن أن تترك ندبة أصغر، وإن عدداً أقل من الناس سيتذكرونها، وإنها حظيت بحب عميق لكنه ليس واسع النطاق. لكن ذلك ليس محزناً، يا فان هوتن. إنه انتصار. إنه بطولة. أليست هذه البطولة الحقة؟ كما يقول الأطباء: في البداية، لا تؤذِ غيرك.

الأبطال الحقيقيون ليسوا الناس الذين يقومون بأشياء؛ الأبطال الحقيقيون هم الناس الذين يلاحظون الأشياء، وينتبهون. فالشخص الذي اخترع لقاح الجدري لم يخترع في الواقع أي شيء. لاحظ أن الناس المصابين بجدري البقر لا يُصابون بالجدري.

بعدما توقّد تصويري المقطعي تسلّلت إلى غرفة العناية الفائقة وشاهدتها وهي فاقدة الوعي. سرحت وحسب وراء ممرضة تحمل

بطاقة تعريف وتمكَنت من الجلوس بقربها نحو عشر دقائق قبل أن يتم الإمساك بي. فكَرت حقّاً في أنها ستموت قبل أن أتمكَن من إخبارها بأنني أنا أيضاً سأموت. في الأمر قساوة: الضجيج الممكن المتواصل للعناية الفائقة. وقد أخذ ماء السرطان الداكن هذا في التقطّر من صدرها. عيناها مغمضتان. وقد أُدخلت فيها الأنابيب. لكن يديها بقيتا على حالهما، لا تزالان دافئتين وأظافرها مطلية بهذا الأزرق الداكن الذي يكاد يصبح أسود. واكتفيت بالإمساك بيدها وحاولت، في خلال ثانية، أن أتخيّل العالم من دوننا، وأصبحت، إنساناً على درجة كافية من الطيبة لآمل أنها ماتت حتى لا تعرف أبداً أنني راحل أنا الآخر. ثم أردت عندها مزيداً من الوقت لكي يُغرم الواحد بالآخر. وأفترض أنني حققت أمنيتي. لقد تركت ندبتي.

جاء ممرض وأبلغني بأن عليّ المغادرة، وبأن الزيارات ممنوعة، وسألته هل هي بخير وقال الفتى: «انها لا تزال تُخرج الماء». بَرَكة الصحراء، لعنة المحيط.

ماذا بعد؟ إنها جميلة للغاية. لا تتعب من النظر إليها. لا يصيبك القلق من أنها أشد ذكاء منك: بل تعرف أنها كذلك. وهي خفيفة الظل غير لئيمة أبداً. أحبها. وأنا. يا فان هوتن، محظوظ جداً بحبها. وأنت لا تختار أن تتأذى في هذا العالم، لكنك تمتلك رأياً في من يؤذيك. وأنا أحب خياراتي. وآمل أيها العجوز أنها تحب خياراتها».

أحبّها يا أغسطس.

أحبّها.

شكر

يوّد المؤلف أن يعترف:

أنه تم في هذه الرواية التعامل مع المرض وعلاجه بصورة خيالية. فلا وجود، على سبيل المثال، لشيء اسمه فلانكسيفور. فقد اخترعته لأنني أريد أن يكون موجوداً. وعلى كلّ من يسعى إلى تاريخ فعلي للسرطان أن يقرأ «إمبراطور كل الأمراض» The Emperor of All Maladies لسيدارتا موكهرجي. وأنا مدين أيضاً لكتاب «بيولوجيا السرطان» Biology of Cancer لروبرت أ. واينبرغ، ولجوش ساندكويست ومارشال يورست وجونيكي هولندرز، الذين شاركوني وقتهم وخبرتهم في الأمور الطبية التي تجاهلتها بسعادة عندما تناسب ذلك مع نزواتي.

أشكر أيضاً أستير إيرل التي كانت حياتها هدية لي ولكثير غيري. وأنا شاكر أيضاً آل إيرل ـ لوري، واين، أبّي، أنجي، غراهام، وإيب ـ على سخائهم وصداقتهم. أسس آل إيرل، مستوحين ذلك

من إستير وتخليداً لذكراها. مؤسسة «هذا النجم لن يأفل» This Star Won't Go Out التي لا تتوخّى الربح. ويمكنكم معرفة مزيدٍ عنها في tswgo.org.

أشكر «مؤسسة الأدب الهولندي» التي منحتني شهرين في أمستردام للكتابة. وأنا ممتن بنوع خاص لفلور فان كوبن، جان كريستوف بول، ڤان هنزبرويك جانيتا دي ويز، كارولين فان رافنستين، مارجي شيبسما، وجمعية «نيردفايتر» Nerdfighter الهولندية.

كما أشكر محرّرتي وناشرتي جولي ستراوس-غابل التي التزمت بهذه الرواية عبر سنوات كثيرة من التحوّلات والانعطافات كما فعل ذلك الفريق الرائع في «بنغوين». وأتقدم بشكر خاص من روزان لاور، ديبورا كابلان، ليزا كابلان، إليز مارشال، ستيف ملتزر، نوفا رن سوما، وإيرين فاندرفورت.

كما أتوجّه بالشكر إلى إلين كوبر، مرشدتي وعرابتي الجنية.

وإلى وكيلتي جودي ريمر التي أنقذتني مشورتها العاقلة من كوارث لا تُحصى.

وإلى «نيردفايتر» لأنهم رائعون.

وإلى «كاتيتود» التي لا تريد شيئاً سوى أن يصبح العالم أقل كرهاً.

وإلى شقيقي، هانك، وهو أفضل صديق لي وأقرب معاون.

وإلى زوجتي، ساره، وهي ليست حب حياتي الكبير فحسب، بل هي أوّل قرائي وأكثرهم إخلاصاً لي. وأيضاً إلى الطفل، هنري، الذي وَلَدَته. إضافة إلى أهلي، مايك وسيدني غرين، وحمويّ

كوني ومارشال يورست.

أشكر صديقَيّ كريس ومارينا واترز اللذين ساعداني في هذه الرواية في اللحظات الجوهرية، كما فعلت ذلك جولين هوسلر، شانون جايمس، في هارت، وكارن كافيت البارعة في «مخطَط فين»، فاليري بار، روزيانا هالس روخاس، وجون دارنيال.

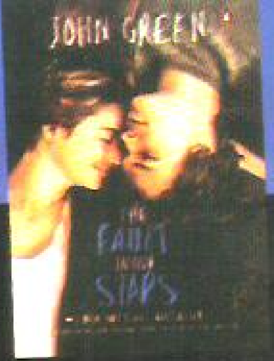

ترجمت إلى أكثر من خمسين لغة
وتصدرت لائحة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعا

ما تخبئه لنا النجوم

أنا أقرر إن كنت سأمرض وأنا أقرر إن كنت سأشفى مهما يكن المرض خطيرا وعضالا ولا شفاء منه. وصراعي مع المرض أشبه بحرب أهلية، حيث يخرج الإنسان من خوضه نهائيا لا تعود هناك نهايات في نظره، بل لا نهايات تراوح بين الطول والقصر
عندها فقط يتحدث عن الرحيل والوداع وكأنه يتحدث عن نزهة على شاطئ بحيرة.
هكذا تقودنا الرواية وهي تسرد قصة حب نشبت بين شاب وشابة في مركز لمجموعات اليأس القاتل
يسعيان معا إلى أمسيات رائعة في وقت ليس فيه كثير من الوقت يدخلان صراعا آخر إنما هذه المرة مع الساعات والثواني..
يفردان شراشف الذكريات لتتعمق صلات أحدهما بالآخر.. ويرسمان غدا مضيئا بمعزل عن طوله أو قصره.

جون مايكل غرين..

ولد عام ١٩٧٧ إنديانا - الولايات المتحدة، هو كاتب الأكثر مبيعا حسب صحيفة نيويورك تايمز والحائز على جوائز متعددة منها ميدالية برنتز، وجائزة برنتز الشرفية، وجائزة إدغار بلغ مرتبة المراتب النهائية في جائزة لوس أنجلس تايمز للكتاب. في عام ٢٠١٤ أدرج غرين على قائمة مجلة التايمز لـ ١٠٠ شخص الأكثر نفوذا في العالم، بعدما تصدرت النسخة الإنجليزية من روايته هذه قائمة الكتب الأكثر مبيعا

ISBN 978-9953-88-831-6

الحمراء شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب. ٨٣٧٥-١١٣ بيروت لبنان
تلفون [illegible] فاكس [illegible]

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

JOHN GREEN THE FAULT IN OUR STARS